

أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي

دكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي
عميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية «سابقاً»

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الاهل والاعوان

الى زوجتي

بنت إسكندرية

الى ولدي وبناتي

أبناء وبنات إسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَدِيمَة

عنى المؤرخون العرب عناية كبرى بالتأريخ لمدنهم لأن المدن كانت مراكز النشاط الاقتصادى والعمرانى ومصادر الإشعاع الفكرى ، ففيها أقيمت معاهد العلم بمسمياتها المختلفة من مساجد ودور علم ومدارس وخانقاوات وربط وزوايا ، وكانت الرحلة فى طلب العلم تقليداً أساسياً من تقاليد المجتمع العربى الإسلامى ، فإذا برز عالم فى مدينة من المدن جلب الشهرة لمدينته ، وكان العالم بدوره يعتز بمدينته فينسب نفسه إليها ، ومن هنا نسبت الغالبية العظمى من علماء الإسلام إلى مدنهم ، كالدمشقى والمقدسى والسيوطى والدمياطى والحوارزى والبيرونى والقرطبى والفاستى والبغدادى .. إلخ .

فالحضارة العربية الإسلامية فى الأغلب الأعم حضارة مدن ، ولهذا لم يستعمل العرب لفظة « حضارة » بقدر ما استعملوا لفظة « مدنية » و « تمدن » ، ولهذا أيضاً حرص كثير من علماء العرب على أن يؤرخوا لمدنهم الكبرى والصغرى ، ولا نكاد نجد مدينة من مدن العالم الإسلامى لم يؤلف فى تاريخها كتاب ، والمراجع تشير إلى الكثير من هذه الكتب ، وإن كان الموجود منها أقل بكثير من المفقود ، وبعض هذه الكتب موسوعات كبيرة فى أجزاء عدة كتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ حلب لابن العديم ؛ وبعضها صغير يقع فى جزء واحد كتاريخ الفيوم للنبلسى وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى وتاريخ الرقة لأبى على محمد بن سعيد القشبرى .. إلخ .

والمنهج الذى اتبعه المؤرخون العرب للتأريخ لمدنهم منهج سليم ، فالمدينة فى نظرهم ليست مكاناً وبنياً وحسب ، بل هى قبل هذا كله أناس أحياء ، هم الذين خططوا المدينة ، وهم الذين أقاموا منشأتها الحربية والدينية والمدنية والعمرانية ، وهم أخيراً الذين أكسبوها الشهرة . وتذكر الحسن : ولهذا كان مؤرخو المدن الإسلامية يفردون

قسماً صغيراً من كتبهم للتأريخ للمدينة وتطورها . ثم يخصصون الجزء الأكبر من هذه الكتب للترجمة للنابعين من الرجال الذين أنبتهم هذه المدينة ، بل للنابعين ممن زاروها أو أقاموا بها رداً من الزمن .

وأنا منذ اخترت لنفسى - أو اختار لى القدر - التخصص فى دراسة التاريخ الإسلامى وجدتني أشغف شغفاً كبيراً بتواريخ المدن وتواريخ الثغور البحرية بصفة خاصة : فعنيت أول ما عنيت بتاريخ مدينة دمياط - وطنى الصغير ومسقط رأسى - ودلتنى قراءاتى إلى أن المكتبة العربية كانت تضم كتاباً فى تاريخ هذا الثغر ولكنه ضاع ، فجمعت ما توافر لى من معلومات وأخرجت منها فى سنة ١٩٤٩ تاريخاً مختصراً أسميته « مجمل تاريخ دمياط » ؛ وكان يعاصر دمياط فى العصور الإسلامية وينافسها ثغر آخران لا يقلان عنها أهمية : وهما : ثغر تنيس فى شرقها . و ثغر الإسكندرية فى غربها ، وقد لعب الثغور الثلاثة دوراً مشتركاً فى النواحي الحربية والثقافية والعمرانية ، ولهذا كنت أحرص فى قراءاتى على جمع كل المادة التى أعثر عليها عن تاريخ هذه الثغور الثلاثة جميعاً .

وقد عثرت على قطعة مخطوطة بقيت من كتاب ألف قديماً فى تاريخ تنيس بعنوان « أنيس الجليس فى تاريخ تنيس » ، وألقيت عنها محاضرة فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى سنة ١٩٥٩ ، وأنا أعد الآن البحث والمخطوطة للنشر . أما الإسكندرية فقد أشارت المراجع إلى وجود كتاب فى تاريخها ألفه أحد علمائها ومحتسبها فى القرن السابع الهجرى وهو منصور بن سليم ، ولكن الكتاب مفقود للأسف الشديد .

وقد زاد اهتمامى بتاريخ الإسكندرية بعد تعيينى فى جامعها فى سنة ١٩٤٣ ، وحرصت منذ ذلك الحين على تتبع تاريخها فى كل المراجع والمطان ، مطبوعها ومخطوطها ، وكنت أحياناً أنهى من قراءة المجلد الضخم وقد حصلت على سطور قليلة ، ولكننى وجدت بعد سنوات أنه قد تجمع لى من هذه الشذرات حصيلة طيبة تصلح أن تكون نواة طيبة لكتابة تاريخ لمدينة الإسكندرية .

وفى سنة ١٩٤٩ أعلنت الغرفة التجارية لمدينة الإسكندرية عن عزمها على إخراج كتاب تذكارى لها ، وعن رغبتها فى أن يتضمن هذا الكتاب فصولاً عن

تاريخ المدينة في مختلف عصورها ، وطلبت من أستاذة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية أن يكتبوا هذه الفصول : وكتبت أنا فصلا عن « الإسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي » كان باكورة ما أخرجته عن تاريخ هذه المدينة .

وفي سنة ١٩٥٢ كتبت بحى الثانى عن المدينة ، وخصصته للدراسة طبوغرافية المدينة وتطورها ، ونشرته في « مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » بعنوان : « الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر » .

وكنيت في مرحلة جمع المادة ألتزم منهج السابقين من مؤرخينا العرب فكنت أحرص على جمع كل الشوارد الخاصة بتاريخ المدينة نفسها وبتاريخ رجالها وأعلامها .

وفي نفس السنة ١٩٥٢ افتتحت الإذاعة المحلية لمدينة الإسكندرية ، وتفضل السادة القائمون عليها فطلبوا منى إلقاء سلسلة من الأحاديث عن « أقطاب الإسكندرية » ، واستجبت إلى الدعوة ، وظللت ألقى هذه الأحاديث خلال سنوات ثلاث .

ووجدت بعد أن فرغت من هذه الأحاديث أنه قد تجمع لدى مادة كبيرة أخرى عن أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ، وكنيت كل يوم أعر على جديد ، وكان كل عليم يقودنى إلى علم آخر قد يكون أستاذة ، وقد يكون تلميذه أو معاصره .

وتبين لى أن الإسكندرية الإسلامية قد ظلمت ظلماً واضحاً ، فكل الذين أرخوا لها من أجنب ومصريين ركزوا جهودهم كلها على العصور القديمة اليونانية والرومانية ، وقالوا الكثير عن أمجاد المدينة الحضارية والعلمية في تلك العصور ، وكانوا إذا وصلوا إلى العصر الإسلامي مروا به مر الكرام ، وخصصوا له صفحة أو صفحتين أكدوا فيها أن الإسكندرية قد تدهورت وتأخرت واضمحلت في كل نواحي حياتها خلال هذا العصر .

كانت إذن هذه الأحاديث الإذاعية هى نقطة البدء ، وانطلقت أقراً وأتعراف وأجمع ، وإذا بالسحب تنفتح وتنكشف عن الإسكندرية كمرکز من أهم المراكز العلمية والثقافية في العصر الإسلامي ، تضح بالعلماء ورجال الأدب والفكر من

كل صنف ، وتنتشر في أرجائها المساجد والمدارس والربط ، وتجذب إليها طلاب العلم والعلماء من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب .

واخترت عدداً من أبرز هؤلاء الأعلام ، وأعدت كتابة سيرهم مستعيناً بالجلد الذي توافر لدى من معلومات ، ولكنني وجدت بعد قليل أنني لو سرت على هذا المنوال والتزمت الدراسة العلمية التفصيلية لسيّر كل من اخترت من الأعلام فإن الكتاب سيتضخم ، ولهذا رأيت أن أخرج للناس هذه الدراسات التي أتممتها والتي تضمها صفحات هذا الكتاب ، وهي ثلاث عشرة سيرة ، بدأتها بالصحابي الجليل أبي الدرداء ، وثنيها بعلم من أعلام الفكر الإسلامي الأوّل عاش في الإسكندرية وقتاً ما وتوفي بها ، وهو التابعي الجليل عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج) أستاذ الإمام مالك، وأحد اثنين قسنا للغة العربية قوانينها ووضع علم النحو .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى عصر الذروة الفكرية والعلمية في تاريخ الإسكندرية الإسلامية، فاخترت أبرز أعلامه وترجمت لهم ترجمة مستفيضة، وأحدهم يمثل مدرسة الحديث، وهو المحدث الكبير الحافظ السّاقى ، وقد انتقل من أقصى الشرق ، من مدينته أصفهان . واستوطن الإسكندرية ، وجذب إليه طلاب هذا العلم من كل أنحاء العالم الإسلامي ، وتلمذ عليه المئات بل الألوف .

واثنان آخران يمثلان مدرسة الفقه المالكي ، أحدهما أبو بكر الطرطوشي الذي وفد من أقصى الغرب من مدينة طرطوشة بالأندلس ، واستوطن الإسكندرية كذلك ، وكون مدرسة ضخمة ووضع فيها معظم مؤلفاته ، والثاني أبو الطاهر بن عوف ، وهو عالم مصري من أبناء الإسكندرية ومن أعرق أسرها ، وقد أثبت في الفصل الخاص به أن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية بنيت فيها مدارس في العصر الإسلامي .

ونفر آخرون يمثلون المدرسة الصوفية التي عمرت بها المدينة في تلك العصور ، وعلى رأسهم القطب الغوث أبو الحسن الشاذلي ، وتلميذه أبو العباس المرسى ، وتلميذه ابن عطاء الله السكندري ، ومعاصر هؤلاء أبو القاسم القباري

ومن العصر الإسلامي المتأخر اخترت أعلاماً ثلاثة هم : السيد محمد كريم ،

والسيد عبد الله النديم ، والشيخ عبد العزيز جاویش ، وهم جميعاً يمثلون روح النضال القومى ضد الاعتداء الأجنبى على مصر

وهذه الدراسات تدل على تنوع الثقافات والتيارات الفكرية فى الإسكندرية الإسلامية ، فمن هؤلاء الأعلام مَنْ كان عالم نحو ، وَمَنْ كان محدثاً ، وَمَنْ كان فقيهاً معلماً ، وَمَنْ كان صوفياً أو زاهداً متعبداً ، وَمَنْ كان خطيباً أو مناضلاً سياسياً أو صحفياً .

ووراء هذه الدراسات معنى آخر أحب أن أبرزه : وذلك أن مفهوم القومية الضيق الذى عرفناه مع مطلع العصر الحديث لم يكن معترفاً به فى العصور الإسلامية الأولى ، بل كان مفهوم الوطن هو الوطن العربى الإسلامى الكبير ، ولهذا كان أى عالم مسلم يرحل عن بلده وينزل بأى قطر من أقطار الوطن الإسلامى لا يشعره أهل هذا القطر أنه غريب عنهم ، بل يعتبرونه مواطناً كسائر المواطنين ، ويرحبون به .

وهذه النخبة من العلماء الأعلام تؤكد هذه الحقيقة ، فالسلى من أصفهان ، والطروطشى والمرسى من الأندلس ، وأبو الدرداء وابن هرمز من الحجاز ، وابن عوف وسند بن عنان وابن عطاء الله والقبارى من الإسكندرية ، ولكنهم كلهم عاشوا فى الإسكندرية وملأوها علماً واعتبروا فى النهاية سكندريين ، فالوحدة العربية التى نادى بها اليوم لم تكن فى الماضى بدءاً أو شيئاً غريباً ، وإنما كانت حقيقة واقعة ، وكان سلاحها الفعال العلم والثقافة والكتاب .

وبعد ، فهذا الكتاب ليس إلا محاولة أولى لدفع الظلم الذى وصمت به الإسكندرية الإسلامية حين اتهمت بالتأخر والتدهور والاضمحلال ، وما زالت لدى حصيلة كبرى من المادة التى تلقى أضواء جديدة على نواحي الحياة المختلفة فى الإسكندرية الإسلامية ، وخاصة الحياة العلمية ، وأنا أعلم الآن جاهداً لإعادة النظر فيما سبق أن أخرجته عن تاريخ الإسكندرية من بحوث ، وإضافة ما وفقت للعثور عليه من جديد ، ليكون من هذا كله كتاب شامل عن تاريخ الإسكندرية فى العصور الإسلامية يعوض الكتاب الذى فقدناه الذى ألفه فى القرن السابع الهجرى أحد أبناء الإسكندرية وعلمائها منصور بن سليم .

وبعد مرة أخرى : فهذا جهد متواضع أردت به أن أخدم تاريخ مدينة من أكبر

مدن العالم العربي الإسلامي: كانت عاصمة مصر في العصور اليونانية والرومانية، وكانت عاصمة مصر الثانية طوال العصور الإسلامية، وكانت قبل هذا وبعد هذا ثغراً ورباطاً، ولعبت دوراً كبيراً في الدفاع عن مصر، كما كانت مصدراً لإشعاع فكري وثقافي له مكانته وأهميته.

أسأل الله مزيداً من التوفيق: فنه نستمد القوة، وبه نستعين لخدمة وطننا العربي وتاريخه.

جمال الدين الشيال

الإسكندرية } ١٠ رمضان ١٣٨٤
١٢ يناير ١٩٦٥

أبو الدرداء

عويمر بن عبد الله

الصحابي الجليل

« إن الله وعدني إسلام أبي الدرداء ،
قال : فأسلم »

محمد عليه السلام

« اطلبوا العلم ، فإن عجزتم فأحبوا أهله ،
فإن لم تحبهم فلا تبغضوهم »
أبو الدرداء

أبو الدرداء^(١)

عويمر بن عبد الله

الصحابي الجليل

١

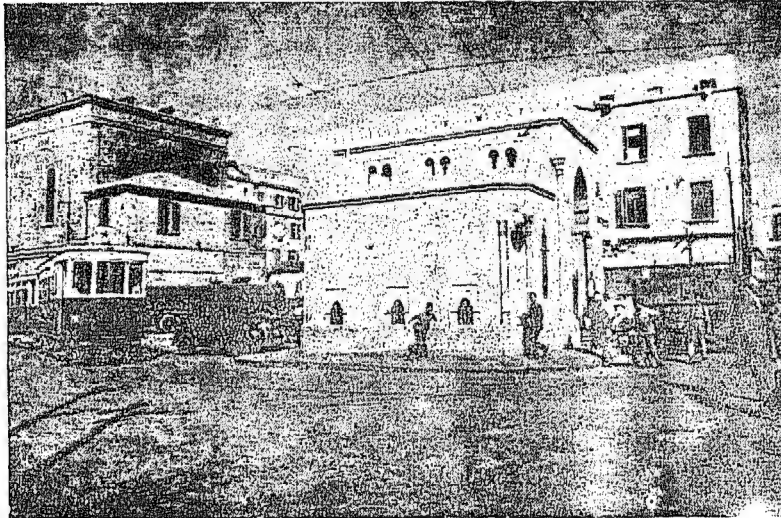
في الإسكندرية شارع يسمى « شارع أبي الدرداء » : يتوسطه ضريح لسيدى
أبي الدرداء ، غير أن العامة من أهل الإسكندرية يسمون الشارع « شارع
أبو الدرداء » ، ويسمون الضريح « ضريح أبي الدرداء » ، ولعلهم حرفوا الاسم
هذا التحريف لصعوبة النطق بالألف والهمزة اللتين ينتهى بهما .

وأهالى الإسكندرية - رغم هذا التحريف في نطق الاسم - يعتقدون في
سيدى أبي الدرداء اعتقاداً كبيراً ، ويروون عن كراماته الشيء الكثير ، وإنك
لتلاحظ إذا سرت في شارع أبي الدرداء أن الضريح يتوسط الشارع على غير العادة ،
والترام يسير على جانبيه عن يمين وعن شمال ، فإذا سألت عن السر في هذا الوضع
فإنك تسمع روايات كثيرة ، خلاصتها أن البلدية عندما فكرت في توسيع هذا
الشارع رأت أن تنقل الضريح إلى مكان آخر حتى لا يتوسط الشارع فيعوق
المروور ، وبدأت فعلاً في تنفيذ الفكرة ، ولكن واحداً من العمال الذين كانوا
يعملون في نقل الضريح توقفت يدها ، وأصيب بالشلل ، وأبى بقية العمال أن
يستمرؤا في عملهم ، وأيقنوا أن الولي الكبير والصحابي الجليل يأبى أن ينقل جثمانه
من مرقده هذا ، واضطرت البلدية أن ترضخ لاعتقاد العامة ، وأبقت الضريح
كما هو ، وتحالفت لتوسيع الشارع من جانبيه ليسهل تيسير الترام ، فخطت الترام
في هذا الشارع يسيران كالعادة متوازيين إلى أن يصلا قرب الضريح فينفرجان ،
ويدور كل منهما حول الضريح إلى أن يخلفاه وراءهما ، ثم يتقابلان ثانية ليسيرا
متوازيين كما كانا ، فهي تحية واجبة يؤديها الترام وراكبوه كلما مرّ بالضريح
في ذهابه وإيابه .

(١) نشر هذا البحث ملخصاً في : (المجلة ، العدد ٥ : مايو ١٩٤٧ ، ص ٩٥ - ١٠١) .

ولسیدی أی الدرداء کرامة أنجری کبیره ما زال السکندریون یرددونها بینهم حتی الیوم : فهو — کما یعتقدون — قد حی المدینة وسکائها أثناء الحرب الأخيرة من خطر داهم وشر کبیر .

فنی لیلة مظلمة حالکة الظلام من لیالی سنة ١٩٤١ عندما اشتدت غارات الطائرات الألمانية وتوالت علی المدینة ، کان مبنی محافظة الإسکندریة هدفاً من أهداف هذه الطائرات : وألقى علیه طوربید ضخیم کان یکنی لتخطیم المبنی والخی المحیط به جمیعہ ، وهو حی آهل بالسکان ، بل لعله من أكثر أحياء المدینة ازدهاماً بالعسران والسکان ، ولكن العناية الإلهیة حمت الحی وساکنیه من هذا الشر المستطیر . واستیقظ السکندریون لیروی کلّ منهم إلی أخیه کیف أن سیدی أبا الدرداء انتفض من قبره — وقبره مجاور لمبنی المحافظة علی بعد أمتار منه — فأبعد الطوربید بیدیه لیسقط فی أرض فضاء مجاورة ، ولیستقر فی تربتها الرخوة دون أن ینفجر . وتقاطر السکندریون من کل فجیح یشاهدون هذه المعجزة ، ولقد كانت معجزة إلهیة حقاً ، وكانت هذه الأرض الرخوة خیر مکان أعدّ لاستقبال الطوربید الضخم للاحیلولة بینہ وبين الانفجار : فلو أنه اصطدم عند نزوله بأی مبنی أو جسم صلب لانفجر ولأفنی الحی ومن فیہ إفتاءً تاماً .



ضریح أی الدرداء

هذه بعض الكرامات التي يرويها السكندريون عن ضيفهم وحارس مدينتهم
الصحابي الجليل أبي الدرداء .

فمن هو أبو الدرداء ، وما سيرته ؟؟

اتفقت المراجع التي أرخت له عند ذكر اسمه : فهو عويمر ؛ ثم اختلفت
عند ذكر اسم أبيه : فقيل : عويمر بن عبد الله ، وقيل : ابن زيد ، وقيل :
ابن قيس بن زيد : وقيل : ابن ثعلبة . ولكن هذه المراجع اتفقت جميعاً في كنيته
التي اشتهر بها : فسمته دائماً أبا الدرداء : وسمت زوجته دائماً : أم الدرداء ؛
فقد كانت لهما ابنة جميلة سميها « الدرداء » ، ثم رزقا بعد ذلك بابن أصغر
منها سميها « بلالا » .

وكان أبو الدرداء خزرجياً أنصاريّاً : أي أنه كان ينتمي إلى إحدى القبيلتين
الكبيرتين اللتين كانت لهما الزعامة والسيطرة في المدينة . وهما قبيلتا : الأوس
والخزرج ؛ كما أنه كان من الأنصار أهل المدينة الذين رحبوا بالرسول الكريم عند
هجرته إلى مدينتهم ، ونصروه على أعدائه من الكفار .

غير أن المراجع تذكر أن أبا الدرداء لم يكن مبكراً في إسلامه ، أي أنه لم يكن
من الأنصار الأوائل الذين دخلوا في الإسلام عند وصول الرسول -- عليه السلام --
إلى المدينة أو بعيد وصوله إليها ، بل تذكر المراجع أنه أسلم يوم بدر ، أي في
السنة الثانية للهجرة .

ولعل السبب الذي دفعه إلى التمهّل في اعتناق الإسلام أنه كان يدرس أصول
الدين الجديد ، ويفكر في تعاليمه ، ليسلم إذا أسلم عن إيمان واقتناع ؛ فقد كان
أبو الدرداء حكيماً بين قومه ، يُرجع إلى رأيه في الملمات ؛ مما جعل الرسول عليه
السلام يرقب دخوله الإسلام في حرص وشوق شديدتين ؛ فهو في عقله وحكمته
وشجاعته أمة في فرد ، روى عن الرسول -- عليه السلام -- أنه قال :

« إن الله وعدني إسلام أبي الدرداء : قال فأسلم »

والله سبحانه وتعالى لا يعد رسوله الأمين إسلام رجل إلا أن يكون هذا الرجل

قوة يُعتمد بها ، ويشد بها عضد الدين الجليل إذا انضم إليه ، وليس أدل على مكانة أبي الدرداء عند الله سبحانه وتعالى وإكرامه له من أن آية من آيات الكتاب الحكيم نزلت في شأنه :

روى أن رجلاً قال لأبي الدرداء :

« يا معشر القراء ، ما بالكم أجبن منا ، وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقمماً إذا أكلتم ؟ »

وكان الرجل - كما يبدو - متجنساً على أبي الدرداء ، سفيهاً في قوله ، ولكن أبا الدرداء - وقد تخلق بخلق الإسلام - كان حليماً كريماً ، فلم يرد عليه الإساءة بإساءة مماثلة ، بل أعرض عنه إعراضاً كريماً .

وبلغت هذه الحادثة عمر بن الخطاب - وهو من عرف عفاً في الحق وقسوة في عقاب المعتدى والبذء ، فسأل أبا الدرداء عن حقيقة ما حدث ، فقال أبو الدرداء :

« اللهم غفراً ، وكل ما سمعنا منهم تأخذهم به ؟ »

ولكن عمر لم يقتنع بهذا الرد ، وانطلق إلى الرجل الذي قال لأبي الدرداء ما قال فأخذ بثوبه وخنقه ، وقاده إلى النبي عليه السلام ، فحاول الرجل أن يعتذر عما سلف منه بأنه كان يمزح ولا يعني ما يقول ، وقال :

« إنا كنا نخوض ونلعب »

فأوحى الله تعالى إلى نبيه بعد ذلك الآية الكريمة :

« ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » .

وكان أبو الدرداء يشتغل قبل الإسلام بالتجارة - شأن سراة العرب - ، كما كان جندياً شجاعاً وفارساً مغواراً ، يجيد فن الحرب والقتال ، فلما دخل الإسلام دخله بروحه وكيانه كله ، فتتلمذ على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ، وأخذ من روحه ، وتلقى تعاليمه ، فانطلق في الحال من عالم المادة إلى عالم الروح ،

وترك التجارة - مهنته الأولى المحببة - وآثر التفرغ للعبادة، لأنه رأى أن الجمع بين الضدين صعب مستحيل، فالتجارة سعى وراء المادة وفناء فيها، والعبادة رياضة للروح وفناء في سبيل تصفيها والارتفاع بها، يقول هو عن نفسه:

« كنت تاجراً قبل البعث، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فتركت التجارة ولزمت العبادة » .

وقال أيضاً:

« والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتاً على باب المسجد، لا تخطئني فيه الصلاة، أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً، وأتصدق بها في سبيل الله »

فقليل له:

« يا أبا الدرداء: وما تكره من ذلك؟ »

قال:

« شدة الحساب » .

٤

وعندما آخى الرسول - عليه السلام - بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة آخى بين قطبين من أقطاب الإسلام: وكبيرين من كبار الصحابة: آخى بين أبي الدرداء وسليمان: ومنذ تمت هذه المؤاخاة والرجلان تربط بينهما روابط الود الوثيقة: وعلاقات الصداقة والأخوة المتينة، ينصح كل منهما لأخيه، ويتمنى كل منهما لأخيه خير ما يتمناه لنفسه، وما كان كل منهما يتمنى لنفسه غير السلامة في الدنيا والآخرة، وغير الصلاح والتقوى والتزام أوامر الله وآداب الإسلام، وما كان واحد منهما يضيق بنصح صاحبه، بل كان يرحب به ويعمل على تحقيقه.

روى أن سليمان ذهب يوماً ليعود أخاه أبا الدرداء، فوجد أم الدرداء متبذلة فقال:

« ما شأنك؟ »

قالت :

« إن أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، وليس له في شيء من الدنيا حاجة » .

ثم جاء أبو الدرداء ، ورحَّب بضيفه وأخيه سلمان ، وقرب إليه طعاماً ، وجلس فلم يشاركه الطعام ، فقال سلمان :

« كُلْ » .

قال :

« إني صائم » .

قال :

« أقسمت عليك لتفطرن » .

فأفطر .

ثم بات سلمان عنده ، فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقوم للصلاة والعبادة فنهض سلمان ، وقال :

« إن لربك - عزَّ وجلَّ - عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولجسدك عليك حقاً ، أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ، صُمْ وأفطر ، وقم ، ونم ، واثبْ أهلك » .

فلما كان عند وجه الصبح قال : « قم الآن » .

فقاما ، وتوضأ وصليا ، ثم خرجا إلى الصلاة ، فلما صلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قام إليه أبو الدرداء فأخبره بما قال سلمان ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : عليه وسلم :

« يا أبا الدرداء إن لجسدك عليك حقاً ، مثل ما قال لك سلمان » .

هذا هو الإسلام الحق ، وهذه هي تعاليمه وآدابه ، وهؤلاء هم رجاله يُكمل كلُّ منهما الآخر ، ولعل الرسول الكريم قد لاحظ هذه الفوارق عندما آخى بين الرجلين ، لعله لاحظ في أبي الدرداء هذه التزعة الصوفية ، والرغبة في الزهد والتشفي والتفرغ للعبادة ، كما لاحظ في سلمان نظرتَه الراسعة ، وفهمه الدقيق لآداب الإسلام التي تدعو العبد إلى رعاية كل الحقوق : رعاية حق الله ، وحق النفس

والجسد والأهل ، بحيث لا يطغى حقٌّ على حق ، ولهذا آخى بينهما ليكمل كل منهما الآخر ، لينصح الأخ لأخيه ، ليفهمه ما أغلق عليه فهمه .

ويؤكد هذا أن أبا الدرداء كان ينصح لسلمان دائماً ليبصره بمواضع الخير ، وليدعوه إلى أن يأخذ نصيبه من الآخرة ، كما أخذ نصيبه من الدنيا ، كتب أبو الدرداء إلى أخيه سلمان مرة يقول :

« يا أخى : ارحم اليتيم وأدِّنه منك ، وأطعمه من طعامك ، فإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ، وقد أتاه رجل يشتكى قساوة قلبه - فقال له رسول الله : " أتحب أن يلين قلبك ؟ " فقال : " نعم " ، قال : " أدن اليتيم منك ، وامسح رأسه ، وأطعمه فإن ذلك يلين قلبك ، وتقدر على حاجتك " .

ويا أخى : إني حدثت أنك اشتريت خادماً ، وإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول " لا يزال العبد من الله وهو ممتنه ما لم يُخدم ، فإذا خُدم وجب عليه الحساب " ، وإن أم الدرداء سألتني خادماً وأنا يومئذ موسر ، فكرهت ذلك لما سمعت من الحساب ، ويا أخى : من لى ولك بأن نوافى يوم القيامة ، ولا نخاف الحساب ، ويا أخى : لا تغترن بصحابة رسول الله ، فإننا قد عشنا بعده دهرًا طويلاً ، والله أعلم بالذى أصبناه بعده » .

٥

ولم يفرغ أبو الدرداء للعبادة وحدها ، بل كان يشارك دائماً في الأحداث الهامة ، وهو إذا شارك كان دائماً في الصفوف الأولى ، وكان يخلص في عمله الإخلاص كله ، فقد روى أنه شارك في وقعة أحد ، وأن الرسول عليه السلام أمره يوم أحد أن يردَّ مَنْ على الجبل ، فردَّهم وحده ، وكان يومئذ حسن البلاء ، فنظر الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الأعداء يفرون أمامه منهزمين ، وقال : « نِعِمَّ الفارسُ عويمرُ غيرُ أُمَّةٍ » .

— أى غير جبان ولا ثقيل : ولا يضجر من الشدة فيقول : أف ! أف ! —
وقد عرف عمر بن الخطاب — عندما ولى الخلافة — لأبى الدرداء فضله
ومكانته ، فلما أخذ فى تقسيم العطاء وتدوين العرب ألحق أبى الدرداء بأهل بدر
فى العطاء ، مع أنه لم يشارك فى الموقعة : بل أسلم يومها .

ولم تمض سنوات قليلة منذ تولى عمر الخلافة حتى اتسعت رقعة الدولة ،
وكثرت أعباء الحكم ، ورأى عمر أن شؤون الدولة العامة وسياساتها العليا ستشغله
عن أن يتفرغ للنظر فى أمور الشعب جميعها ، فرأى أن يفصل القضاء وحده :
وأن يعين لكل إقليم قاضياً خاصاً يفرغ للنظر فى خصومات الناس : وبدأ بالمدينة
— عاصمة الدولة — فعين لها قاضياً ، ولم يكن هذ القاضى غير أبى الدرداء .

ولم يكن هذا الاختيار اعتباطاً ، فقد كان عمر تقادة يعرف قيم الرجال ،
وقد عرف فى أبى الدرداء فضله وعلمه وتفقهه فى الدين : وإلمامه بدقائقه ، وخشيته
لله وإيثاره الحق والعدل ، وعرف هذه الخصال جميعها فى أبى الدرداء كل من
اتصل به ، عرفها فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فيروى أنه قال :

« عويمر حكيم أمتى » .

وعرفها فيه كبار الصحابة ، فكان ابن عمر يقول :

« حدثونا عن العاقلين » .

فيقال :

« من العاقلان ؟ » .

فيقولون :

« معاذ وأبو الدرداء » .

ولما حضرت معاذ الوفاة سأله أصحابه أن يوصيهم ، فقال :

« التمسوا العلم عند أربعة : أبى الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وعبدالله

ابن سلام » .

وقال ابن إسحاق :

« كان الصحابة يقولون : أتبعنا للعمل وأبو الدرداء » .

هذه الشهادة الإجماعية لأبى الدرداء بالعقل والعلم والحكمة تعطينا صورة واضحة

عن أبي الدرداء القاضى وعن أحكامه ، فالرجل دون شك كان يتلزم الحرص الشديد فى نظر قضاياه حتى لا يضيع حق من صاحبه ، وحتى لا يفر مذنب من القصاص ، وكان يفكر دائماً فى قضاياه فيعيد التفكير ، ويقدر فيعيد التقدير ، وإذا انتهى من سماع المتقاضيين ، وسمح لهما بالانصراف أخذ الشك فى أمرهما فاستدعاهما ثانية إليه واستمع إليهما مرة أخرى ليستوثق مما قالاه : قال مالك عن يحيى بن سعيد : « كان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليهما فقال : ارجعا إلىّ ، أعيدا علىّ قضيتكما » .

هذا هو ضمير القاضى : لا يطمئن اطمئناناً تاماً لحكم يصدره ، فهو يخشى الظلم ويخشى الخطأ ، وليس هذا بالغريب فى أمر أبي الدرداء ، فهو الذى يقول فيما روى عنه :

« ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك ، وأن تبارى الناس فى عبادة الله عز وجل ، فإن أحسنت حدث الله تعالى ، وإن أسأت استغفرت الله عز وجل » .

وأبو الدرداء القاضى لم يكن مع هذا بالرجل المتزمت الذى يتسقط أخطاء الناس ، بل كان يفهم النفس الإنسانية فهماً طيباً ، ولا يرى أن يتبع الفرد أخطاء غيره ، فلكل إنسان أخطاؤه : وليس هناك معصوم من الخطأ ، وللجميع — بعد — ربّ مطلع على خفاياهم يتولى هو حسابهم : وأبو الدرداء هو الذى قال فيما قال : « لا تكلفوا الناس ما لم يكلّفوا : ولا تحاسبوا الناس دون ربهم : ابن آدم عليك بنفسك ، فإن من تتبع ما يرى فى الناس يطلّ حزنه ، ولا يشفّ غيظه » .

وأبو الدرداء القاضى لم يكن يرى القسوة على الخطيئ ، بل كان يطلب من المسلم إذا رأى أخاً له قد أخطأ أن يقيّل عثرته ، وأن يحمّد الله أن وقاه هو شرّ الوقوع فى الخطأ ، روى عنه أنه مر على رجل أصاب ذنباً وحوله قوم يسبونّه ويعتفون عليه فقال :

« أرايتم لو وجدتموه فى قليب ألم تكونوا مستخرجينه ؟ »

قالوا :

« نعم » .

قال :

« فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم » .

قالوا :

« أفلا تبغضه ؟ ! »

قال :

« إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخى » .

وهذه هى المثل الإنسانية العليا فى أسبى صورها .

٦

ولأبى الدرداء فى عهد رسول الله مآثرة أخرى كبيرة . فقد كان واحداً من خمسة توفروا على جمع القرآن ، وكلهم من الأنصار ، قال ابن سعد فى طبقاته : « جمع القرآن فى زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء » .

وفى أوائل عهد عمر بن الخطاب فُتِح الشام ، وانتقل إليه عدد كبير من المسلمين ثم لم يلبث الإسلام أن انتشر بين الأهلىن ، وكان لابد من وجود جماعة من المتفقهىن فى الدين ليعلموا الناس القرآن : فأُرسل أبو الدرداء مع عبادة ومعاذ فى هذه البعثة التعليمية من الحجاز إلى الشام ، واستقرَّ فى دمشق يعلم الناس ويفقههم فى الدين والقرآن ، وكان سفر أبى الدرداء إلى الشام فى السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة للهجرة ، قال ابن سعد فى طبقاته تعقيباً على الخبر السابق : « أما معاذ فمات عام طاعون عمواس ، وأما عبادة فصار إلى فلسطين فمات بها » .

فهذه البعثة أرسلت قطعاً قبل عام طاعون عمواس ، وهو عام ١٧ للهجرة ،

وإذا عرفنا أن حمص وأنطاكية وبيت المقدس تم فتحها في سنة ١٥ للهجرة ، فإننا نكون على حق إذا استنتجنا أن البعثة أرسلت إلى الشام في أواخر السنة الخامسة عشرة أو أوائل السنة السادسة عشرة للهجرة .

٧

ولما خرجت جيوش الإسلام لفتح مصر كان أبو الدرداء واحداً من كبار القواد والصحابة الذين شاركوا في هذا الفتح ، ففي المراجع ثبت بأسماء هؤلاء الصحابة ، ومن بينهم أبو الدرداء ، وتذكر المراجع أيضاً أن أبا الدرداء شارك في فتح الإسكندرية ، وأنه دخلها وأقام بها وقتاً بعد الفتح مع رفقته من كبار الصحابة ، وتكاد هذه المراجع تحدد المكان الذي نزل فيه أبو الدرداء أثناء مقامه بالإسكندرية ، وهو مكان لا يبعد كثيراً عن الموضع الذي يقوم فيه الضريح المنسوب إليه الآن ، قال ابن عبد الحكم في كتابه « فتوح مصر » :

« إن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذي فيه مسجد عمرو بن العاص فقال معاوية بن حديج : نزل ، فنزل عمرو بن العاص القصر الذي صار لعبد الله بن سعد بن أبي سرح . . . ونزل أبو ذر الغفاري منزلاً كان غربي المصلى الذي عند مسجد عمرو مما يلي البحر - وقد أنهدم - ، ونزل معاوية بن حديج موضع داره التي فوق هذا التل ، وضرب عبادة بن الصامت بناء فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية ، ويقال إن أبا الدرداء كان معه ، والله أعلم » .

ولكن يبدو أن أبا الدرداء لم يبق بالإسكندرية طويلاً ، فقد ذكر أن جامع عمرو بن العاص الذي بنى في القسطنطينية أشرف على بناء قبلته ثمانون من الصحابة من بينهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري ، وغيرهم ، والمعروف أن جامع القسطنطينية بنى سنة ٢١ هـ بعد إتمام فتح الإسكندرية ، وبعد عودة عمرو وصحبه إلى الجنوب وتأسيس عاصمته الجديدة القسطنطينية .

من هذا يتضح أن أبا الدرداء لم يقيم بالإسكندرية إلا مدة يسيرة، ثم غادرها إلى القسطنطينية حيث شارك في الإشراف على بناء جامع عمرو بن العاص وتحديد موضع قبلته، ويبدو كذلك أنه لم يقيم بمصر بعد ذلك طويلاً، فإننا سرعان ما نسمع أن معاوية عينه قاضياً لدمشق بأمر عمر بن الخطاب، أو أمر عثمان في رواية أخرى، ويبدو أنه أحب دمشق وأحب الإقامة فيها منذ بعث إليها معلماً بأمر عمر منذ سنوات قليلة، فنحن لا نسمع عن أخباره في المدة الباقية من حياته إلا مقيماً في دمشق، وهو مع توليه قضاء دمشق لم يتخلف عن المشاركة في الأحداث والحروب الهامة التي كانت تدبر أموراً في دمشق.

في سنة ٢٨ هـ، وفي عهد عثمان أعد معاوية بن أبي سفيان حملة لفتح جزيرة قبرص، وخرج مع معاوية في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن الصامت، وانتصر المسلمون في هذه الموقعة، وأسروا عدداً من أهل قبرص، ولكن أبا الدرداء لم تأخذه نشوة النصر على الأعداء، بل بدا أبو الدرداء الإنسان كأروع ما يبدو الإنسان تهز كيانه آلام المهزم قبل أن تأخذه فرحة النصر، فانتحى جانباً يبكي وحده آلام هؤلاء الأسرى، ويستخلص لنفسه العبرة من مصيرهم. قال جبير بن نفير : « لما فتحت قبرص فرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيت أبا الدرداء يبكي : فقلت :

— يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟

فقال :

— ويحك يا جبير : ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى !! »

لقد كان أبو الدرداء يستطيع وقد أقبلت عليه الدنيا وولى المراكز الكبرى أن يبدل من حياته فيطلق حياة الزهد إلى غير رجعة ، ويحيا هو وأسرته حياة غنية مترفة ، ولكن ظل هو هو لم يتغير ولم يتبدل ؛ سعى يزيد بن معاوية إلى أن يرتبط معه برابطة النسب فخطب إليه ابنته الدرداء ، ولكنه رفض ، وخطبها إليه بعده رجل من عامة الناس فقبل خطبته ، وشاع هذا الخبر في الناس ، وصاروا يتناقلون الحديث فيما بينهم : أن يزيد خطب إلى أبي الدرداء فردّه ، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه ، فاضطر أبو الدرداء أن يتكلم ، وأن يفصح عن الأسباب التي دفعته إلى هذا الرفض وهذا القبول ، فقال :

« إني نظرت للدرداء ؛ ما ظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الحصيان ، ونظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها ؟ أين دينها منها يومئذ ؟؟ »

لقد خشى الرجل الزاهد المتعبد أن تفنّ حياة البذخ والترف ابنته عن دينها ، فهو رجل مبادئ ورجل مثل عليا ، يريد أن يأخذ كل من يتصل به بهذه المبادئ وبهذه المثل ، ولم يقصر دعوته على أهله الأقربين ، بل أرسلها رسالة للجميع ، وهؤلاء أهل دمشق الذين أحبهم وأحب مدينتهم ، وعاش بينهم السنين الطويلة منذ وفد عليهم معلماً ، لم يغادرهم إلا مرتين للمشاركة في الغزو والفتح ، حين خرج إلى مصر ، وحين خرج إلى قبرص ، لم يرضه من أهل دمشق هؤلاء تكالبتهم على الحياة وانصرافهم عن الدين والعلم ، فكان لهم دائماً المنذر والمذكر ، قال مرة - فيما روى عنه - :

« يا معشر أهل دمشق : ألا تستحون !! تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تبتغون ، فقد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ، ويبنون فيوثقون فأصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالاً وأولاداً ، فمن يشتري منى تركة أهل عاد بدرهمين ؟! »

ويبدو أن أهل دمشق لم يحسنوا الاستماع إلى دعوته أو الإقبال على تعاليمه ،
وضرفهم التجارة وطلب الرزق عن طلب العلم وذكر الله ، فتوجه إليهم أبو الدرداء
بالخطاب مرة أخرى معاتباً وناصحاً :

« يا أهل دمشق : أنتم الإخوان في الدين ، والبحيران في الدار ، والأنصار
على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتي ، وإنما مؤنتي على غيركم .
ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ؟ وأراكم قد أقبلتم على
ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به ؟
ألا إن قوماً بنوا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأملوا بعيداً فأصبح بنيانهم قبوراً ،
وأملهم غروراً ، وجمعهم بوراً ،
ألا فتعلموا وعلموا ، فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء ، ولا خير في الناس
بعدهما » .

١٠

فأبو الدرداء يعتقد أن رسالته في الحياة الدعوة إلى العلم ، وإلى ذكر الله
وخشيته ، لا ينفك يدعو الناس إليهما في غير ملل أو يأس ، فمن أقواله :
« اطلبوا العلم ، فإن عجزتم فأحبوا أهله ، فإن لم تحبوه فلا تبغضوهم » .
وهو يحضّس العالم على أن يطلب العلم دائماً ، ويحضه إذا علم أن يعمل بعلمه
فيقول :

« لا يكون عالماً حتى يكون متعلماً ، ولا يكون عالماً حتى يكون بالعلم
عاملاً » .

ويقول أيضاً :

« ويل للذي لا يعلم مرة ، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات » .
أما دعوته الثانية إلى ذكر الله وخشيته فالشواهد عليها كثيرة ، فقد روى
عنه أنه قال :

« اذكر الله في السراء يذكره في الضراء » .

وقال :

« تَسَدُّ كَثْرُ سَاعَةِ خَيْرٍ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ » .

وسئلت أم الدرداء :

« أَى عِبَادَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ كَانَتْ أَكْثَرَ ؟ »

قالت :

« التَّفَكُّرُ وَالْإِعْتِبَارُ » .

وقيل له مرة - وكان لا يفتر عن الذكر :

« كَمْ تَسْبَحُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ؟ »

قال :

« مِائَةُ أَلْفٍ إِلَّا أَنْ تَخْطِي الْأَصَابِعَ » .

ومن أقواله في هذا المعنى :

« اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ : وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يَغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى ، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يَنْسَى »

بل إنه كان يعتبر ذكر الله في المقام الأول ، ويراه خيراً من الإحسان ومن

الغزو والجهاد في سبيل الله ، يقول :

« أَلَا أَخْبَرَكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحَبِّهَا إِلَيَّ مَلِيكِكُمْ ، وَأَنْعَمَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَغْزُوا عَدُوَّكُمْ فَيَضْرِبُوا فِي رِقَابِكُمْ وَتَضْرِبُوا فِي رِقَابِهِمْ ، خَيْرٌ مِنْ إِعْطَاءِ الدَّرَاهِمِ وَالْدِّنانِيرِ ؟ »

قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟

قال : ذِكْرُ اللَّهِ ، ذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

وكان أبو الدرداء يأخذ نفسه أولاً بتعاليم هذه الدعوة ، فهو لا يبنى عن ذكر

الله ، وهو يتفانى في حبه لله ، وفي سبيل هذا الحب يحب ما يكره الناس ، يحب

الفقر والمرض والموت ، روى عنه أنه قال :

« ثَلَاثَةٌ أَحْبَبْنِي وَيَكْرَهُهُنَّ النَّاسُ : الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ وَالْمَوْتُ ، أَحَبُّ الْمَوْتِ »

اشتيافاً لربي ، وأحب الفقر تواضعاً لربي : وأحب المرض تكفيراً
لخطيئتي .

بل هو في سبيل الفناء في حب الله تهزه الدعوة الصالحة يسمعها من غيره ،
فلا يأنف أن يأخذها عنه ، وأن يتخذها دعوته ، وأن يعلمها للناس ، روى عنه
أنه أدلج ذات ليلة إلى المسجد ، فلما دخل مرَّ على رجل ساجد وهو يقول :
« اللهم إني خائف مستجير فأجرتني من عذابك ، وسائل فقير
فارزقي من فضلك ،

لامذنب فأعتذر

ولا ذو قوة فانتصر

ولكن مذنب فأستغفر »

فاستوقفه هذا الصوت الخاشع المبتهل إلى الله - سبحانه وتعالى - في ذلة
وانكسار ، واهتزَّ للدعاء وجدانه كله ، فبكى ، وأخذ يردد الدعاء مع الداعي
حتى حفظه ، ولما أصبح الصباح راح يعلمه للناس إعجاباً به .

هذا الذكر الدائم لله ، وهذا الفناء الدائم في حب الله لم يترك في نفس
أبي الدرداء موضعاً للضغن والحسد والكراهية ، بل صفت نفسه الإنسانية صفاء تاماً ،
وكان للود والحب والإخاء الاعتبار الأول عنده ، فهو يعتز بالأخ والصديق اعتزازه
بأعلى ما يملك ، ويحث الناس دائماً على الاعتزاز بإخوتهم وأصدقائهم ، ويعاتب
المقصر منهم ولا يقصيه ويلتمس للمخطئ العذر ، ويدعو له بالمغفرة ، فمن
أقواله :

« معاتبه الأخ خيرٌ لك من فقدته ، ومن لك بأخيك كله ؟ أعطِ أخاك
وكن له ، ولا تُنطع فيه حاسداً فتكون مثله ، غداً يأتيك الموت
فيكتفيك فقدته ، كيف تبكيه بعد الموت وفي حياته ما قد كنت تركت
وصله ؟ ! »

وقالت أم الدرداء :

« كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمائة خليل في الله ، يدعوا لهم في الصلاة . »

فقلت له في ذلك ، فقال :

« إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكلّ الله به ملكين يقولان :
 وَلَكَ بِمِثْلٍ ، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة ؟ ! »
 وهو أخيراً كان يدعو الناس إلى السعي وراء الحلال والطيبات من الرزق ،
 وإلى التسامح والعتو عند المقدرة ، فكل ذلك خيراً عند الله وأبقى : جاءه رجل فقال :
 « علمني كلمة ينفعني الله - عز وجل - بها »
 قال :

« وثنيتين وثلاثاً وأربعاً وخمساً ، مَنْ عمل بهن كان ثوابه على الله عز وجل
 الدرجات العلاء ، قال :
 - لا تأكل إلا طيباً ، ولا تكسب إلا طيباً ، ولا تدخل بيتك إلا طيباً ،
 وسل الله عز وجل برزقك يوماً بيوم ، وإذا أصبحت فاعدد نفسك من
 الأموات ، فكأنك قد لحقت بهم ، وهب عرضك لله عز وجل ، فمن
 سبّك أو شتمك أو قاتلك فدعه لله عز وجل ، وإذا أسأت فاستغفر
 الله عز وجل . »

١١

هذا هو أبو الدرداء الصحابي الجليل ، والقاضي والعالم الزاهد : ولم تكن زوجته
 أم الدرداء أقل منه شأنًا ، فقد تزوج الرجل مرتين ، وكانت زوجته الأولى صحابية
 اسمها « خيرة » ، وكانت الثانية تابعية واسمها « هجيمة » ، ولما توفيت الأولى تزوج
 الثانية ، وقد اتفقت المراجع على وصف الزوجة الثانية بالفقه والعقل والفهم والزهد
 والحسن والجمال ، وقد روت الحديث عن زوجها وعن أبي هريرة . وكانت وفيّة
 لزوجها في الحياة وبعد الممات : روى أنها قالت :

« اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني في الدنيا ، اللهم فأنا أخطبه إليك
 وأسألك أن تزوجنيه في الجنة » .
 فقال لها أبو الدرداء :

« فإن أردت ذلك فكنت أنا الأول ، فلا تتزوجي بعدى » .
 قال أبو نعيم في كتابه الحلية :

« فمات أبو الدرداء ، وكان لها جمال وحسن ، فخطبها معاوية بن أبي سفيان :
فقلت : لا والله ، لا أتزوج زوجاً في الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء
إن شاء الله في الجنة » .

١٢

بقيت نقطة أخيرة قد تغضب أهل الإسكندرية : ولكنها ترضى الحق والتاريخ
والبحث العلمي ، فأهل الإسكندرية يعتقدون أن أبا الدرداء توفي في الإسكندرية
ودُفن بها ولهم حكمة يتناقلونها فيقولون : « اتقوا شر البرد ، فقد قتل أخاكم أبا الدرد » ،
فهم يعتقدون أنه مات في مدينتهم متأثراً بشدة البرد ، وهم يتبركون بضريحه الموجود
الذى يزعمون أنه دفن فيه ، ولكن المراجع التي أرخت له تجمع كلها على أنه
توفي ودفن في دمشق وأن قبره وقبر زوجته الصغرى معروفان بباب الصغير من
مدينة دمشق .

والذى أرجحه أنا أن هذا الضريح بنى في وقت ما كبنى تذكاري بناه أهل
الإسكندرية اعتزازاً منهم بذكرى هذا الصحابي الجليل الذى شارك في فتح مدينتهم
وأقام بها مدة ما بعد الفتح ، ومع مضي الزمن اعتقد الناس أن هذا ضريحه ،
وسرت الشائعة أنه مات ودفن فيه ، ورجائى ألا يئس أهالى الإسكندرية بمعرفة
هذه الحقيقة ، وليحتفظوا بالضريح تذكراً لزيارة هذا العالم الجليل لمدينتهم ،
فقدماً أقاموا عمود السوارى تذكراً لزيارة الإمبراطور دقلديانوس لهذه المدينة .

وبعد ، فلعل استطعت أن أوفى هذا الصحابي الجليل والعالم الكبير حقه ،
فقد كان في الحقيقة واحداً من الرعيل الأول من رجال الإسلام الذين رسموا لنا
المثل العليا للإنسانية ، ولقد كان أبو الدرداء في كل أعماله وأقواله الرجل العالم
الزاهد ، فهو الذى يقول في البيتين الوحيدين اللذين أثرا عنه :

يريد المرء أن يَسْعَطَى مَنَاهُ وَيَأْبَى اللَّهَ إِلَّا مَا أَرَادَا

يقول المرء : فائدتى ومالى ، وتقوى الله أفضل ما استفادَا

رحم الله أبا الدرداء ورضى عنه ، وهدانا إلى ترسم خطاه ، والعمل بتعاليمه .

مراجع

- ١ - البلاذرى (أحمد بن يحيى) = فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ هـ
- ٢ - ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن) = النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٩
- ٣ - الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) = تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٩ هـ
- ٤ - الزركلى (خير الدين) = الأعلام ، القاهرة ، ١٩٥٤ - ١٩٥٩
- ٥ - ابن سعد (كاتب الواقدي) = الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، لندن ١٩٠٥-١٩٢١
- ٦ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) = حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ
- ٧ - ابن عبد الحكم = فتوح مصر
- ٨ - كرد على (محمد) = خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨
- ٩ - المقرئى (تقى الدين أحمد بن على) = إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والخفدة والمتاع ، الجزء الأول ، نشر محمود محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٤١
- ١٠ - أبو نعيم (أحمد بن عبد الله) = حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ
- ١١ - النعمى (عبد القادر بن محمد) = المدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، جزءان ، دمشق ١٩٤٨-١٩٥١ .
- ١٢ - النووى (أبو زكريا يحيى الدين بن شرف) = تهذيب الأسماء واللغات ، القاهرة (بدون تاريخ)
- ١٣ - هيكلى (الدكتور محمد حسين) = الفاروق عمر ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعي الجليل

(٠٠٠ - ١١٧ هـ / ٠٠٠ - ٧٣٥ م)

« خير سوا حلکم رباطاً الإسكندرية »

عبد الرحمن بن هرمز

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)^(١)

(٠٠٠ - ١١٧ هـ) ، (٠٠٠ - ٧٣٥ م)

التابعي الجليل

لأن كانت الإسكندرية تعتر بالصحابي الجليل أبي الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه^(٢) ، إنها تعتر أيضاً بتابعي من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتاً ما وتوفي بها^(٣).

هذا التابعي الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الإسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكر واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكر واحد من أولئك هو عبد الرحمن بن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابي هو كل مسلم رأى النبي — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون في الصحابي مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعي هو الذي رأى صحابياً ، وإن كان البعض يشترطون في التابعي أن يكون جالس صحابياً .

وقد وفد على الإسكندرية ، وعاش فيها عدد من التابعين الكرام رواة الحديث

منهم :

— ثمامة بن شفي الهمداني أبو علي المصري ، نزيل الإسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثقة النسائي ، ومات قبل العشرين ومائة .

(١) نشر هذا الفصل في (مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد السابع ، ١٩٥٨ ص ٥٣-٧١) .

(٢) أثبتنا في الفصل السابق أن أبا الدرداء لم يمت ولم يدفن بالإسكندرية ، وإنما مات ودُفن في دمشق .

(٣) تعتر الإسكندرية بضريح ينسب إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تحوم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المآل .

— ضميم بن مالك الكلاعى الحميرى — قاضى الإسكندرية — روى عن ابن عمر .

— ربيعة بن سيف المعافى الإسكندرانى ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطنى بأنه مصرى صالح ، وتوفى فى حدود عشرين ومائة .

— وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالإسكندرية سنة ١٣٥ هـ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدنى .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول — بعد جمعها ودراستها — أن نستوضحها ، وأن نستشف منها صورة لهذا العالم الجليل ، وطرفاً من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشى ، المدنى .

كان يرتبط بأسرة بنى هاشم — أسرة الرسول عليه السلام — برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفى رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئاً عن سنة ولادته ، ولكننا نعرف أنه من الطبقة الثانية من التابعين ، وأنه ولد فى المدينة النبوية ، وعاش فيها فى وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخُلص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وكان العلم الذى يشغل الناس فى ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعربية وأصولها .

وقد تتلمذ عبد الرحمن بن هرمز على جمٍّ غفير من الصحابة الذين أدركهم ، فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وعبد الله

ابن مالك بن بُسْجِيْنَةَ ، وأبي سَلَسَةَ بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمير مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية بن عبد الله ابن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثير بن غيرهم .
ويبدو من هذا الثبوت الخافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مُجِيداً ، وأنه كان يتحرى الصواب في دراسته للحديث : ولهذا لم يقنع بالأخذ عن صحابي واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبي هريرة ورواية عنه : فقد قال السيوطي في ترجمته له :
« هو صاحب أبي هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبي هريرة (١) » .

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثباتاً ، عالماً بأبي هريرة (٢) » .

وروى ابن سعد في طبقاته قال : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثني عبد الرحمن وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثني عبد الرحمن بن هرمز (٣) » .
وقال ابن قاضي شعبة في طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد الأعرج أبو داود المدني ، مولى محمد ابن ربيعة المقرئ المحدث ، صاحب أبي هريرة (٤) »

فإذا عرفنا أن أبا هريرة - رضى الله عنه - كان من أكثر الصحابة ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى ليقال إن الأحاديث التي تضاف إليه تقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف حديث) أدركنا أى علم حصل عبد الرحمن ابن هرمز بتتلمذه على أبي هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد بأنه كان ثقة

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .

(٤) ابن قاضي شعبة : الطبقات : مخطوطة دار الكتب : القاهرة .

كثير الحديث^(١)، وقال البخاري : « أصحُّ أسانيد أبي هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » ، ووصفه السيوطي بأنه كان وافر العلم ، مع الثقة والأمانة^(٢) .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذي تفرَّغ ابن هرمز لدراسته وروايته ، ولكنه كان من العلماء الثقات بأنساب العرب ، قال الذهبي في طبقات القراء : « وله خبرة بأنساب قريش » ، وقال السيرافي : « كان أعلم الناس بأنساب قريش » . وتوفَّر ابن هرمز أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات المتشبهين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرئ المحدث ، قال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف » .

وقال الذهبي في طبقات القراء :

« كان الأعرج أحد من برَّز في القرآن والسنة^(٣) » .

ووصفه في تذكرة الحفاظ بأنه « كاتب المصاحف » ، وبأنه « كان ثقة

ثبتاً عالماً مقرئاً » ، وقال في ترجمته له في تاريخ الإسلام :

« وكان يكتب المصاحف ويقرئ القرآن^(٤) » .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالماً مبتكراً ، فإن المراجع والروايات تكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبي الأسود الدؤلي ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الآخر ينسبه إليهما معاً ، فقد روى ابن لهيعة عن أبي النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية » .

وقال القفطى في إنباه الرواة :

(١) ابن سعد : المرجع السابق ، وانظر أيضاً : النووي : تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) السيوطي : المرجع السابق .

(٣) رواه عنه ابن تيمية في المرجع السابق .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

« قال أهل العلم : إنه (أى الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب فى هذا القول أنه أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة وكان من أعلم الناس بالنحو ^(١) » .
وقال ابن قاضى شهاب :

« وهو أول من وضع النحو فى قول » .

وقد فصل الزبيدى فى كتابه « طبقات النحويين » الأسباب التى دعت إلى ابتكار علم النحو فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبلبل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزبيدى فى حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل فى وضع علم النحو ، ومن بينهم : أبو الأسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، قال :

« ولم تزل العرب تنطق على سجيئتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففسد الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حذائرها والموضح لمعانيتها ، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغابته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه ، وثقيفها لمن زاغت عنه . فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ، وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل سبق وشرف التقدم ، ثم وصّل ما أصلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ومدّ من القياس ، وفتق من المعانى ، وأوضح من الدلائل وبين من العلل ^(٢) » .

(١) القفطى : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، نشر أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢ .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك - إمام دار الهجرة - عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلزمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع وإن اختلفت في تحديد العلم أو العلوم التي أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء في كتاب « إنباه الرواة » للقفطي :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة - رضى الله عنه - اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين في علم لم يبثه في الناس ، ففهم من قال : تردّد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك في علم أصول الدين وما يُردّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة . . . والله أعلم^(١) . »
 وُلد الإمام مالك - رضى الله عنه - في المدينة في أواخر القرن الأول للهجرة - في سنة ٩٣ هـ على أرجح الأقوال - ، وفي المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة في ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفي مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، ولاتصال مالك به وتلميذه عليه قصة طريفة ، روى مالك نفسه هذه القصة قال :

« كان لي أخ في سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لي أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمرّاً وأناوله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول . »

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكا بدأ يتلمذ على ابن هرمز في حدثه ، أى في نحو العاشرة من عمره ، بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فيخطئ أو يصيب ، ويأخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبي هذا المبلغ ويأخذ هذه المؤاخذة قبل العاشرة ، ونستطيع أن نعرف كذلك أن عتاب أبيه كان ذا أثر قوى في نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب العلم وملازمة أستاذ بعينه - هو ابن هرمز - سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ، ونستطيع

(١) القفطي : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

أن نعرف أن التلميذ الصغير مالكا كان حريصاً الحرص كله على الإفادة من علم أستاذه كله ، حتى ليتحایل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض التمر ليمنعوا أيّ وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ، ونستطيع أن نعرف أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل في ذلك الوقت إلى سن الشيخوخة ، بدليل قول مالك : « وكنت أقول لصبيانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول » .

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ، فكان أشد حرصاً على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ، ومذكراته في العلوم المختلفة ، فقد جاء في المدارك :

« قال ابن هرمز يوماً لجاربته : مَنْ بالباب ؟ فلم تَرَ إلا مالكا ، فرجعت فقالت : ما سَمَّ إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعبه فذلك عالم الناس ، وكان مالكٌ قد اتخذُ تَبَانًا - أي سروالا - محشواً للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى به برد صحن المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز » .

فابن هرمز يصف تلميذه مالكا بأنه عالم الناس ، والدرس يطول ساعات وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتخذ لهذه الجلسات الطويلة عدتها . فيلبس سروالا مبطناً يقيه برد الحجر على باب ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالكا كان يلزم ابن هرمز من بكرة النهار إلى الليل . جاء في المدارك نقلاً عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل » .
ومن هذا يتضح أن مالكا كان يتلقى دروسه على ابن هرمز في البيت تارة ، وفي المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات ، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرى الصواب في روايته للحديث ، ولهذا كان أثره في تلميذه مالك واضحاً ، فنشأ مالك دقيقاً مثبثاً ، يترسم خطى أستاذه ، ويأتمر أسلوبه في البحث والتحري ، ولهذا يروى أن مالكا كان يكثر من قوله : « لا أدرى » وأنه كان يقتدى في هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء في المدارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي أن يورث العالم جلساءه قبول "لا أدري" ، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال "لا أدري" . . . قال ابن وهب : كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه : « لا أدري » .

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدري إذا كان لا يدري ، ويأنف أن يفتي بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يحب أن يروى عنه ، ولهذا نهى مالكاً أن يذكر اسمه في سنده ، وأثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ فيجرح ويؤثم بالكذب . وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبي سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينهانه إلى الخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ؟ » ، فيقول : « دخل عليّ في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتوني عن الشيء فأجبكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صواباً قبلاه ، وإن كان غيره تركاه » .

أما ما هو العلم الذي أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد روينا من قبل عن القفطي وغيره أن مالكاً اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدّة سنين في علم لم يثبت في الناس ، « ففهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة » ، ولسنا نميل إلى الرأي الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يُبَسَّط بين الناس ، والرأي الثاني أقرب إلى الصواب ، ويؤكد أنه مالكاً قال عن أستاذه ابن هرمز إنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما اختلف فيه الناس » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس في الفتيا والفقه ، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء ، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس ، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة في كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكأنه بذلك يقسم العلم قسمين : علم يلقى على الملأ والجمهور ، ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به ، وقسم لا يصح أن يعرفه الناس فلا يلقى ، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه ، كالرد على أهل الأهواء ، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول ، وربما يفهمونه على غير وجهه . . . فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ، ولذلك لم يذع كل ما علمه عن ابن هرمز ، وإن كان تلقاه » .

* * *

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلمية ، عرفنا منه أى العلوم كان يتقن ، وعرفنا منه مكانته العلمية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين ، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك - رضى الله عنه - ، ولم يكن مالك - بطبيعة الحال - تلميذه الوحيد ، بل أخذت عن عبد الرحمن أمة من العلماء والمحدثين أشارت المراجع إلى نفر منهم ، ومجمل ما فيها أنه روى عنه : الزهرى ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وصالح بن كيسان ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وزيد بن أسلم ، وموسى بن عقبة ، وجعفر بن ربيعة ، وعلقمة بن أبى علقمة ، ومحمد بن عجلان ، وعبد الله بن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله فى المدينة ، لم يغادرها - قبل رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية - إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد انفرد ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال فى ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتي ١٠١ و ١٠٥ هـ ، فى السنة الأولى ولى يزيد الخلافة ، وفى السنة الثانية توفى .

وقال البلاذرى فى « فتوح البلدان » :

« وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارئ كان يقول : " خير سواحكم رباطاً بالإسكندرية " ، فخرج إليها من المدينة مرابطاً ، فمات بها فى سنة ١١٧ هـ^(١) .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال الذهبي (تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) فى ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل فى آخر أيامه إلى مصر ، وتوفى غربياً بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

وينبذ أن الرجل كان قد عمّر وقارب المائة حين خرج مرابطاً إلى الإسكندرية ، فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبي هريرة إليه . صحبه مدة ، وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ، وأبو هريرة توفي سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ، فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبي هريرة ما بين الثلاثين والأربعين صح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفاً من تسويغ ابن هرمز لإيثاره مالكاً وعبد العزيز دون بقية تلاميذه ، حين قال : « دخل على في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل على في عقلي مثل ذلك » ، وقد ذكرنا من قبل أيضاً أن مالكاً ولد في سنة ٩٣ هـ وأنه بدأ يتلمذ على ابن هرمز في العاشرة من عمره ، أي في سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أي إلى سنة ١١٠ ، ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهذا فهو لم يقيم بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفي إلى رحمة الله في سنة ١١٧ هـ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التي قضاها الشيخ ابن هرمز في الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات في التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية — خير السواحل رباطاً كما وصفها ابن هرمز — تجتذب إليها عدداً كبيراً من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز عدد كبير من هؤلاء التابعين ممن ذكرنا ، من أمثال ثمامة بن شفي الهمداني ، وربيع بن سيف المعافري الإسكندراني ، وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمي ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التي أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها في مدينة الإسكندرية .

* * *

في الإسكندرية اليوم ، في شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعي الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك في كتابه « الخطط

التوفيقية» ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبته إلى بانيه «الحاج درويش أبى سن» فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

«مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذي بناه المرحوم درويش أبو سن ، وهو مسجد تام المرافق حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف^(١) . فالمسجد حديث البناء ، بنى فى منتصف القرن الماضى ، وقد زرته أنا مراراً ، ورأيت فى أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بنى هذا صاحب الخيرات حاج درويش أبى سن ١٢٦٥» .

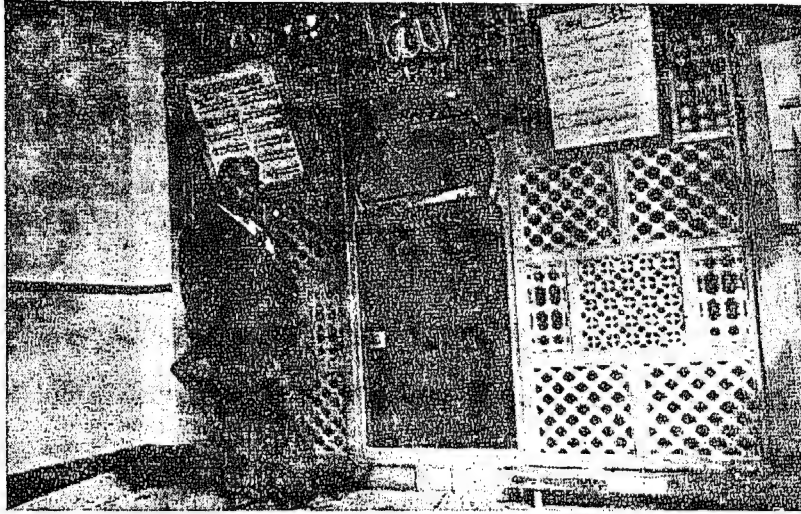
وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامى بسيط دفن به باني المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية أخرى تحمل نصاً شبيهاً بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون فى تاريخ الإسكندرية لا يطمئنون إلى صحة نسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن ، وقد أكد لى هذا الشك فضيلة الأستاذ الشيخ بشير الشندى — المدير السابق لمكتبة بلدية الإسكندرية — ، وروى لى أن الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية فى القرن الماضى — كان يجتاز شارع رأس التين الحالى دائماً فى طريقه إلى سراى رأس التين لزيارة الخديو إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح يعاتبه ويقول له : «كيف تمرّ بقبرى ولا تحيينى ؟» فسأله الشيخ : «ومن أنت ؟» قال : «أنا عبد الرحمن بن هرمز» ، وقصّ الشيخ البنا هذه الرؤيا على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أثرياء المدينة هو الشيخ درويش أبو سن ، ففتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن ثم نسب المسجد والضريح إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز : ثم أوصى أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠ .

فنسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى منتصف القرن الماضى ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفاً قبل هذه الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدينة لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح في أوائل القرن الثانى للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التى يقوم عليها حى الأنفوشى ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شىء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالى ، وفي نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى « شارع زاوية الأعرج » ، وتقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » وليس بها ضريح ، ويجزو البعض فينسبونها إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرج ، وشهر بهذه الصفة في كتب الحديث .



ضريح عبد الرحمن بن هرمز

وإنكن هذه النسبة خاطئة أيضاً ، والذي نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش في الإسكندرية في القرن الثامن للهجرة ،

وكان اسمه (الشيخ برهان الدين الأعرج) : ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته في الشرق الأقصى حتى يصل إلى الهند والصين ، ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام في ضيافته ثلاثة أيام ، قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العُبَّاد ، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية وأقيمت في ضيافته ثلاثاً .

دخلت عليه يوماً فقال لى : ” أراك تحب السياحة والجلولان في البلاد “ ، فقلت له : ” نعم ، إني أحب ذلك “ ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : ” لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريا بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام “ ، فعجبت من قوله ، وألقى في روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زودنى دراهم لم تنزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى في البحر (١) .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائماً أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج الإسكندري هي التي أوجت إلى ابن بطوطه فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين .

* * *

وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيراً من الشكوك التي تحيط بضريح سيدى عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسميته برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قمنا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعى الجليل الذى تعزز الإسكندرية به ، وحق لها أن تعزز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

مراجع

عن عبد الرحمن بن هرمز

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

= الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= الباب في تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧-١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامري وأحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٣

البلاذري (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)

= النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٢٩

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني)

= تهذيب التهذيب ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، حيدر آباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤

أبو زهرة (الشيخ محمد)

= الإمام مالك : القاهرة ، ١٩٥٢

ابن سعد (كاتب الرئيس)

= الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ - ١٩٢١

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)

= حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : جزآن ، القاهرة ١٣٢٧

= بغية الوعاة ، القاهرة ١٢٢٦

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن)

= تاريخ مدينة دمشق ، المجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥١

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)

= شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥٣

ابن قاضي شعبة (تقي الدين أحمد بن محمد)

= طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)

= إنباء الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، نشر محمد أبو الفضل

إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ - ١٩٥٥

مبارك (علي)

= الخطة التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً ، بولاق : ١٣٠٤ - ١٣٠٦

ابن النديم (محمد بن إسحق)

= الفهرست ، طبع القاهرة (بدون تاريخ)

أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)

= حاية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥١

أبو بكر الطرطوشي

محمد بن الوليد

٤٥٠ - ٥٥٢٠ هـ ، ١٠٥٨ - ١١٢٦ م

العالم الزاهد الناصر

« إذا عرض لك أمران - أمر دنيا وأخرى - فبادر
بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى »
أبو بكر الطرطوشي

« إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت أن
تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل »
أبو بكر الطرطوشي

أبو بكر الطرطوشي

١

كان لموقع مدينة الإسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس في العصور الوسطى ، فالإسكندرية كانت ثغراً من الثغور الإسلامية الهامة ، وكانت رباطاً كبيراً ترابط فيها - منذ دخلها المسلمون - حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر ، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الإسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها ، وكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح بعد نقض الروم :

« وقد علمت كيف كان همُّ أمير المؤمنين بالإسكندرية : وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الإسكندرية رباطها ، ثم أجبر عايهم أرزاقهم ، وأعقب منهم في كل ستة أشهر » .

وقد بلغت رابطة الإسكندرية في عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندي ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام ، وخمسة آلاف من أهل المدينة .

ومن الأقوال المأثورة :

« أربعة أبواب من الجنة مفتحة في الدنيا : الإسكندرية ، وعسقلان ،

وقزوين ، وجدة »

ومنها : أن الإسكندرية « كنانة الله يحمل فيها خير سهامه » .

وقال عبد الله بن مرزوق الصديقي :

« لما نُزِعَ إلى ابن عمي خالد بن زيد - وكان قد توفى بالإسكندرية - لقيني

موسى بن على بن رباح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات بالإسكندرية ؟ فأقول : بلى ، فيقولون : هو حي عند الله يُرزق ويُجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يُحشر على ذلك » .

فالمسلمون الأوّل كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد ، ولذا جذبت الإسكندرية إليها في العصور الإسلامية الأولى عدداً كبيراً من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمي المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو أرواحهم دائماً إلى المشرق منتب الدعوة الإسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، وموطن العلم الإسلامي ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ؛ فهم كانوا في شوق دائم إلى الرحلة إلى هذا المشرق ، وهدفهم الأول أداء الفريضة ، والحج إلى بيت الله ، وزيارة قبر الرسول ، والإمام بالمساجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الإسكندرية ، الرباط والثغر الإسلامي الكبير ، يصلون إليها بعد رحلة طويلة شاقة مضيئة عبر الصحراء حيناً ، وعلى ظهور السفن حيناً آخر ، وهم كانوا إذا وصلوا إليها أقاموا فيها فأطالوا الإقامة ، طلباً للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالمها التاريخية التي كانت تبهر أنظارهم وقتذاك ، مثل : المنارة — إحدى عجائب الدنيا — ، وعمود السواري ، والمسلات ، والقصور ، والكنائس القديمة ، والأسوار الشاهقة وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيراً المساجد التي بنيت في العصر الإسلامي الأول لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيراً ومدارس لنشر العلم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة وبها هجها ، فيتنقلون في مدن الشرق وأمصاره الكبرى ، مثل بغداد أو دمشق أو بيت المقدس ، وغيرها ، لزيارتها والإفادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة إلى الإسكندرية ليستأنفوا منها طريق العودة إلى

بلادهم ، ولكن كثيرين منهم — وخاصة العلماء وطلاب العلم — كانوا يؤثرون البقاء في الإسكندرية واتخاذها وطناً ودار إقامة ، لينالوا شرف المقام في هذا الشجر والرباط العظيم ، وليستزبدوا من علم يطلبونه ، أو لينشروا علماً حصّاه .

وقد زادت صلة الإسكندرية بالمغرب توثقاً منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقراً خلافة . فقد أصبح المغرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر وإلى الإسكندرية بوجه خاص .

وبرغم أن المذهب الرسمي للدولة في العصر الفاطمي كان هو المذهب الشيعي ، وبرغم أن الدولة بذلت جهوداً كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعاً ، فقد ظلت مدينة الإسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب مالك منذ انتشر هذا المذهب في المغرب بين المغاربة ، ولهذا نرى أن عدداً كبيراً من علماء الإسكندرية في العصر الإسلامي — المصريين منهم والمغاربة — كانوا مالكي المذهب .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس إلى الإسكندرية ، واستقروا بها في القرن الخامس الهجري — أي في العصر الفاطمي — واتخذوها وطناً ودار مقام لهم ، الفقيه العالم والصوفي الكبير أبو بكر الطرطوشي .

٢

ولد هذا العالم الجليل في سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ هـ في مدينة طرطُوشة ، وإليها ينسب ، وطرطُوشة — كما وصفها ياقوت الحموي — : مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقوم على سفح جبل إلى الشرق من بانسية وقربطبة ، بينها وبين البحر عشرون ميلاً ، وهي مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية ، وللسور أربعة أبواب ملبسة كلها بالحديد ، وبها دار لصناعة السفن ، في المدينة ، وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ، لا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب ، ومنه تتخذ صواري السفن .

وكانت طرطوشة إلى هذا مدينة تجارية عظيمة ، بها أسواق وعمارات وضياع وسوقها في الربض القبلي جامعة لكل صناعة ومتجر ، وكان بها جامع كبير من خمس بلاطات ، وله رحبة واسعة ، بنى سنة ٣٤٥ هـ ، كما كان بها أربعة حمامات . في هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ فقيها وعالمنا أبو بكر الطرطوشي ، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعي الملهم ، فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة ، وتغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة ، وتطل من بعيد على البحر المتوسط ، بأواجه الصاخبة حيناً ، الهادئة المتهادية حيناً آخر ، وفي مسجدتها الكبير تلقى علومه الأولى ، ولما شبَّ عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة يستزيد من العلم ، فذهب إلى مدينة سرقسطة ، واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت : القاضي أبي الريد الباجي ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجاز له .

وأبو الوليد الباجي هو شيخ الأندلس وعالمها في ذلك الوقت دون منازع ، وخاصة بعد وفاة نده ومنافسه ابن حزم ، فالإمام كانت تُشَدُّ الرحال ، وإلى حلقة كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومغاربها ، ويبدو أن الطرطوشي بدأ يتلمذ على الباجي وهو في سن العشرين أو نحوها ، أي حوالي سنة ٤٧٠ هـ ، لأن أبا الوليد الباجي توفي سنة ٤٧٤ هـ .

وتتجمع المراجع أيضاً على أن الطرطوشي قرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وإن كانت لا تذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم هذين العلمين ، وانفرد المقرئ في كتابه « نفح الطيب » بأن الطرطوشي قرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بمدينة أشبيلية ، ولسنا نميل إلى تضديق المقرئ في قوله هذا ، لأن ابن حزم توفي سنة ٤٥٦ هـ ولم يكن الطرطوشي في هذه السنة قد جاوز الخامسة أو السادسة من عمره ، ولا يعقل أن يرتحل الطرطوشي في هذه السن الصغيرة إلى أشبيلية ، وأن يتلمذ على ابن حزم ، ويأخذ عنه الأدب أو يفقهه ، وقد يكون قرأ كتبه في الأدب بعد ذلك بنفسه ، أو على واحد من تلاميذ ابن حزم ، ومن هنا ذكر هو أو ذكر عنه أنه تلميذ لابن حزم في الأدب .

ولسنا نعرف شيئاً عن أسرة فقيهما أبي بكر الطرطوشي ، فإن المراجع التي أرّخت له لم تذكر حرفاً واحداً عن هذه الأسرة :

هل كانت هذه الأسرة غنية فنقول : إنه نشأ في بحبوحة من العيش ؟

أو هل كانت فقيرة فنقول إنه ذاق مرارة العوز منذ طفولته الأولى ؟

هل كان أهلوه ذوي جاه وسلطان ؟

هل كانوا من المشتغلين بالتجارة ، وطُردُوشة كما رأينا مدينة تجارية ؟

هل كانوا من رجال العلم ولهذا نشأ فقيهما عالماً ؟

هل كانوا رجال حرب ، والأندلس كلها كانت تضطرم في ذلك الوقت

بالفتن وتنتهبها الانقسامات ؟

لا نستطيع في الحقيقة أن نجيب عن هذه الأسئلة إلا استنتاجاً ، فإن الطرطوشي يروي في كتابه « سراج الملوک » قصة واحدة عن فرد واحد من أسرته ، نفهم من هذه القصة أن أسرة والدته كانت من سرقسطة ، ولعل هذا يفسر لمّا أتجه في رحلته العلمية الأولى إلى هذه المدينة ، ونفهم منها أن بعض أفراد الأسرة كانوا من رجال الحرب الشجعان المبرزين ، فهذه القصة تتحدث عن الشجاعة الخارقة لرجل اسمه أبو الوليد بن فتحون ، كان خالا لوالدة الطرطوشي .

ولنستمع إلى الطرطوشي نفسه يروي هذه القصة :

« وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون ، وكان يناسبني فيقع خال والدتي ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين أبو المقتدر يرى ذلك له ويعظمه ، وكان يجري عليه في كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانته ، وهابت لقاءه ، فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له : اشرب ، هل ابن فتحون رأيت في الماء ؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ، ومترلته من السلطان ، فأوغروا به صدر المستعين ، ففنع أياماً ، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتوافقت المسلمون والمشركون صفوفاً ، ثم برز عالج إلى وسط الميدان ينادي : هل من مبارز ؟ فخرج إليه فارس من المسلمين ،

فتجاوزا ساعة ، فقتله الروى ، وصاح الكفار سروراً ، وانكسرت نفوس المسلمين .
وجعل الروى يكر بين الصنفين وينادى : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج
إليه فارس من المسلمين ، فقتله الروى ، فصاح الكفار سروراً ، وانكسرت نفوس
المسلمين .

وجعل يجول بين الصنفين وينادى ويقول : ثلاثة لواحد ؟ فلم يستجر أحد من
المسلمين أن يخرج إليه ، وبقي الناس في حيرة .
فقال للسلطان : ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون ، فدعاه ، وتلطف به ،
وقال له : أما ترى ما يصنع هذا العاج ؟ فقال : هو بعينى ، فقال : فما الحيلة فيه ؟
فقال أبو الوليد : فماذا تريد ؟ فقال اكف المسلمين شره ، فقال : الساعة يكون
ذلك إن شاء الله تعالى .

فلبس قميص كتان ، واستوى على سرجه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطاً طويلاً
الطرف وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه ، فعجب منه النصراني ، ثم حل كل
واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصراني سرج بن فتحون ، وإذا
ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج ، ثم طفر
على سرجه وحمل عليه ، وضربه بالسوط في عنقه ، فالتوى على عنقه فجذبه بيده
من السرج : فاقتلعه من سرجه ، وجاء به يحمله فألقاه بين يدي المستعين .
فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه معه ، فأكرمه ، وردّه إلى أحسن
أحواله » .

فوالدة الطرطوشى كانت إذن من أسرة ذات جاه في سرقسطة ، يمتن أحد
رجالها فن الحرب والقتال ، ويبرز في هذا الفن فيتفوق على أقرانه جميعاً ، حتى
يقربه السلطان إليه ويغدق عليه العطايا ، ويعتز بشجاعته ، فيالجأ إليه في الملمات .
أما والد الطرطوشى ، فاسمه الوليد ، وإن كانت المراجع تذكر أن أبا بكر
الابن كان يعرف بابن أبى رندقة .

فهل كانت « أبو رندقة » كنية لأبيه ؟ وما معناها ؟

الذى تذكره المراجع أيضاً أنها لفظة إفرنجية ، فإذا صح أنها كانت كنية
لأبيه فهل كان أبوه ينحدر إذن من أصل إسباني مسيحي ؟

أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، فإن نسبه فيما وصل إلينا واضح ، وينتهي إلى قريش ، فهو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري ، فهو من أصل عربي واضح ، ولعله كنى بهذه الكنية الفرعية لأمر لا نعرفه يتصل بمعنى هذا اللفظ .

أما مهنته فلسنا نعرف عنها شيئاً كذلك ، ولكني أرجح أنه لم يكن يمتن التجارة أو الصناعة وإلا لنشأ ابنه على إحدى هاتين الحرفتين ، كما كانت العادة الغالبة بين سكان المدن الكبرى في العصور الوسطى .

وأبو بكر الطرطوشي نفسه يصرح أنه لم يكن يفقه شيئاً في التجارة ، وأنه لم يحترف حرفة ما ، فإن هذه كانت كبرى مشاكله عندما فكر في الرحلة إلى المشرق ، يقول في كتابه « سراج الملوك » :

« وأما أنا ، فلما هممت بالرحيل من بلدي إلى المشرق في طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ، ولا لي حرفة أرجع إليها ، فجزعت من الخروج ، وكنت أقول :

إذا ذهبت نفقتي ماذا أفعل ؟ وكان أقوى الآمال في نفسي أن أحفظ البساتين بالأجرة وأدرس العلم بالليل ، ثم استخرت الله فرحلت . وكانت معي نفقة وافرة في هميان على وسطى » .

فالذي نرجحه أن والده كان عالماً أو من المشتغلين بالعلم ، وأنه لهذا وجّه ابنه هذه الوجهة التي يرضاها ، وأن أسرته كانت على شيء من الثراء ، ولهذا استطاع أن يعيش في وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره وهو عائلة على أهله ، يطلب العلم وهم يكفونه مؤونة السعي وراء الرزق ، ولهذا استطاع أيضاً أن يزود قبل خروجه للرحلة بنفقة وافرة — كما يقول — ، ولكن الذي كان يشغل باله أن تنفذ هذه النفقة أو تفقد ، وهو لا يعرف حرفة يرتزق منها ، فهدهاه تفكيره إن حدث له شيء من هذا أن يعمل حارساً للبساتين ، ليفرغ في الليل للدراسة العلم ، ثم استخار الله وتوكل عليه ، وبدأ رحلته .

وشاق الطرطوشي ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس ، شاقته الرحلة

إلى المشرق للحج ولطلب العلم ، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه أبي الوليد الباجي ، فأراد أن ينهج نهجه ، فقد رحل الباجي من قبل إلى المشرق ، وحج وكدت في مكة ثلاث سنوات ، ثم زار مدن الشرق الكبرى : بغداد ، الموصل ، ودمشق ، واتصل بأعلامها وعلمائها ، وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ورجع إلى وطنه بعد ثلاثة عشر عاماً حصّل في إبانها علماً كثيراً ، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة ، فأثار في محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى .

فلم لا يحتذى التلميذ حذو أستاذه ؟ فلعله يبلغ من المجد العلمي ما بلغ أستاذه .

٤

.. في سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشي وطنه - وهو غرض الشباب في الخامسة والعشرين من عمره - ليبدأ رحلته إلى الشرق .

ونحن لا نعرف شيئاً عن المرحلة الأولى من رحلته هذه .

فلا نعرف مثلاً هل سلك طريق البحر أو طريق البر ؟ ولا نعرف أىّ الأقطار أو البلدان زار في طريقه ؟

ولكننا نلقاه في مكة ، وقد استقرّ بها قليلاً بعد أداء الفريضة ، يلتقي بعض الدروس ، فقد روى مواطن من مواطنيه ، زامله في شبابه الأول ، وتلمذ معه في سرقسطة على أبي الوليد الباجي ، أنه رآه في مكة ، واستمع إلى بعض دروسه هناك . هذا المواطن هو القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن فرو الصديقي ، قال : « صحبته عند الباجي ولقيته بمكة ، وأخذت عنه أكثر السنن لأبي داود عن التُّسْتَرِي » .

ولم يكد أبو بكر الطرطوشي في مكة طويلاً ، بل استأنف رحلته ، واتجه إلى بغداد ، فإن موطنه وزميله أبا علي الحسين بن محمد الصديقي ، الذي قابله في مكة ، يستطرد في حديثه عنه فيقول : « ثم دخل بغداد وأنا بها » .

فقد كانت بغداد في ذلك الوقت مركزاً من أكبر مراكز العلم في العالم

الإسلامي، وكانت محط رجال العلماء ، يقدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب ، فكان لا بد لأبي بكر الطرطوشي - وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج - أن يرحل إليها ليستكمل دراسته ، ويتصل بعلمائها الأعلام ، ويتلمذ عليهم ويأخذ عنهم .

وكان يلي أمور المشرق في ذلك الوقت نظام المائت وزير المائتين السلجوقيين : ألب أرسلان ، ومليك شاه ، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء ، ويقربهم إليه ، ويغدق عليهم العطايا .

وقد شهد الطرطوشي أثناء مقامه في بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التي اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة ، وأشاد بذكورها في كتابه سراج الملوك قال :

« وذلك أتى لما كنت بالعراق ، وكان الوزير نظام الملك قد وزر لأبي الفتح - ملك الترك - ابن ألب أرسلان ، وكان قد وزر لأبيه من قبله : فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشدَّ أركانها ، وشيّد بنيانها ، واسمأل الأعداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكفاة ، وعمَّ إحسانه العدو والصديق ، والبغض والحبيب ، والبعيد والقريب حتى ألقى الملك بجرانه ، وذل الخلق لسلطانه .

وكان الذي مهّد له ذلك بإذن الله تعالى وتوفيقه أنه أقبل بكايته على مراعاة رجال الدين ، فبنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعبّاد والزهاد ، وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات وعم بذلك أفطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام - وهى بيت المقدس - إلى سائر الشام الأعلى ، وديار بكر ، والعراقيين ، وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون ، مسيرة زهاء مائة يوم ، حامل علم أو طالبه ، أو متعبد أو زاهد في زاويته ، إلا وكرامته شاملة له ، وسابغة عليه ، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله في هذه الأبواب ستمائة ألف دينار في كل سنة » .

وذكر الطرطوشي بعد أن تحدّث عن هذه النهضة العلمية وآثارها في تدعيم ملك السلاجقة أن بعض الوشاة وشوا بالوزير نظام الملك عند السلطان ملك شاه

ليوغروا صدره ضده : وقالوا : إن هذا المال الوفير الذى يصرف على الفقهاء والعلماء كله أولى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية ويضمها إلى ملكه ، وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشى ، واستدعى إليه نظام الملك ، ودار بين الرجلين حديث رائع يرويه الطرطوشى معجباً به فى كتابه سراج الملوكة :

قال ملك شاه لوزيره : « يا أبت : بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا ؟ »

فبكى نظام الملك وقال : « يا بنى أنا شيخ أعجمى ، لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى لو نودى عليك عماك تحفظ ثلاثين ديناراً ، وأنت مشغل بلداتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنواب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والندماء والطبوبر ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك وبلجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيدشون ، وبدعائهم تبيتون : وببركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع » .

قال الطرطوشى :

« فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديداً ثم قال : شاباش يا أبت شاباش !! أكثر لى من هذا الجيش » .

فنظام الملك كان يرى إذن أن جيش الليل ، جيش العلماء والصوفية ، الذى يكونه ويغدق عليه العطاء ، أجدى على الدولة من جيش الجنود والقواد ، وأن دعاء هذا الجيش أجدى فى تدعيم الدولة وتشبث أركانها من سلاح الجنود اللاهين العابثين وأقواسهم وسهامهم .

وأخص ما يذكر به نظام الملك فى التاريخ أنه منشئ المدارس فى العالم

الإسلامي . فقد كانت المساجد إلى عصره هي معاهد العلم ، فيها تُعقد حلقاته ودروسه ، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقاة للتعليم ، يتفرغ فيها الطلاب للتعليم والمدرسون للتدريس . وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها وعاليهم ، وأسمائها المدارس ، وحملت كل مدرسة منها اسمه : فكانت تسمى « النظامية » ، وكانت أكبرها وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التي بنيت قبيل وصول فقيرنا أبي بكر الطرطوشي إلى بغداد بسنوات قليلة ، وقد شهد الطرطوشي نظامية بغداد وهي في أوج عظمتها وتعلمد بها ووصفها ، وذكر قصة بنائها قال :

« ومن مناقب هذا الرجل وفضائله — يقصد نظام الملك — أن رجلاً قصده يقال له أبو سعيد الصوفي ، فقال له : يا خواجه أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون في معمور الأرض مثلها : يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة ، قال : افعل ، وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يكتفوه من الأموال ، فابتاع قطعة على شاطئ دجلة ، وخطط المدرسة النظامية وبنائها أحسن بنين ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عالياً : وابتاع ضياعاً وحمامات وأوقف عليها ، فكمملت لنظام الملك بذلك رئاسة وسؤدد . وذكر جميل طبع الأرض خبره ، وعم المشارق والمغارب أثره . وكان ذلك في سنة عشر الحسين وأربعمائة من الهجرة » .

وكان أول من عُيِّن للتدريس بها أبو نصر عبد السيد بن محمد بن الصباغ ، ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية ، من أمثال أبي إسحق الشيرازي ، وأبي سعد عبد الرحمن بن مائون المتولي . وأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي ، وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي .

ورغم أن أبا بكر الطرطوشي كان مالكي المذهب ، فقد تتلمذ على معظم هؤلاء الفقهاء الشافعية وعلى بعض فقهاء الحنابلة ، وقد نصت المراجع التي ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين أخذ عنهم الطرطوشي في بغداد ، قال الحميري في كتابه « صفة جزيرة الأندلس » : « وسكن بغداد وتفقه على أبي بكر الشاشي وسمع بها الحديث » . وقال ياقوت في معجم البلدان :

« ودخل بغداد والبصرة فتفقه على أبي بكر الشاشي . وأبي سعد بن المتولي

وأبي أحمد الجرجاني ، أئمة الشافعية ، ولقي القاضي أبا عبد الله الدامغانى . . . وسمع
بغداد عن أبي محمد التميمي الحنبلي وغيرهم » .

دخل أبو بكر الطرطوشى بغداد إذن وهى تنتعش بالعلماء الأعلام ، وتضج
بالنشاط العلمى المتشعب النواحي : والمدرسة النظامية هى واسطة العقد ومركز
هذا النشاط ، وكبار العلماء يتنافسون فى سبيل الوصول إلى كرسى الأستاذية بها ،
ولكل أستاذ تلاميذه الذين يتعصبون له : ويفخرون بالتلمذ عليه ، روى ابن خلكان
أن المدرسة النظامية بدئ فى بنائها سنة ٤٥٧ هـ ، وفتحت يوم السبت العاشر
من ذى القعدة من سنة ٤٥٩ هـ ، وكان نظام الملك قد أصدر أمره بتعيين كبير فقهائ
الشافعية فى بغداد أبي إسحق الشيرازى للتدريس بها ، واجتمع الناس يوم الافتتاح
للاستماع إلى درسه ، ولكنه لأمر ما اختفى فى ذلك اليوم ولم يحضر ، فعُيِّن مكانه
عالم آخر لا يقل عنه مكانة هو أبو نصر بن الصباغ ، وظهر الشيخ أبو إسحاق
بعد أيام فى مسجده ، وكان أصحابه وتلاميذه قد آلمهم موقفه وتولى منافسه
ابن الصباغ التدريس بالنظامية ، فأعلنوا غضبهم منه ، وانفضوا عن دروسه
احتجاجاً ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية
وهددوه أن ينفضوا من حوله وينضموا إلى ابن الصباغ إن هو أصرَّ على موقفه ،
فاضطر أن يذعن ، وقبل المنصب ، وبدأ التدريس بالنظامية ، وعزل ابن الصباغ
بعد أن درَّس عشرين يوماً .

٥

وكان رجال هذه المدرسة جميعاً الذين تعاقبوا على التدريس بها والذين أخذ
عندهم الطرطوشى من العلماء البارزين ، تجمع المصادر على وصفهم بالفضل والعلم
والتميز والتدرة على التأليف والإنتاج ، وأبو إسحاق الشيرازى عندهم إمام وقته
بغداد ، وروى الطرطوشى نفسه شعراً قاله غيره يصف الشيرازى بالدكاء المتوقد ،
قال ابن خلكان فى الوفيات :

قال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي : كان ببغداد شاعر مفلق يقال له عاصم ، فقال يمدح الشيخ أبا إسحاق قدّس الله سره :

تراد من الذكاء نحيفَ جسمٍ عليه من توقّده دليلُ
إذا كان الفتي ضخمَ المعالي فليس يضيره الجسمُ النحيلُ

أما أبو بكر الشاشي فتصفه المراجع بأنه كان فخر الإسلام ، فقيه بغداد ، تتلمذ على أبي إسحاق الشيرازي ، ثم انتهت إليه رئاسة الطائفة الشافعية ، وله تصانيف حسنة ، وتعيّن في الفقه بالعراق بعد أستاذه أبي إسحاق ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد سنة ٥٠٤ .

ووصف أبو نصر ابن الصباغ بأنه كان فقيه العراقيين في زمنه ، وكان يضاهي أبا إسحاق الشيرازي ، وكانت الرحلة إليه من البلاد ، وكان ثقة حجة صالحاً ، تولى التدريس بالنظامية ببغداد أول ما فتحت ، ولما توفى أبو إسحاق أعيد للتدريس بها .

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فيصفه ابن خاكان بقوله « لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله ، والراجح أن الطرطوشي لم يتصل به ولم يأخذ عنه ، فقد عُيّن الغزالي للتدريس في نظامية بغداد في سنة ٤٨٤ هـ بعد خروج الطرطوشي منها ، ولكننا سنعرف فيما بعد أن العالمين الكبيرين سيتقابلان معاً في الإسكندرية ، وستنشأ بينهما خصومة علمية سيكون لها شأنها .

اندمج أبو بكر الطرطوشي إذن في هذه الحياة العلمية النشطة ، واستمع إلى هذه النخبة الممتازة من العلماء الأجلاء ، ولا بد أنه شارك فيها : وأسهم في حلقاتها ، فإنه يروى في بعض كتبه التي ألفها بعد خروجه من العراق شعراً كثيراً سمعه أثناء مقامه في بغداد والبصرة من بعض هؤلاء الشيوخ ، من أمثال أبي العباس الجرجاني ، وأبي محمد التميمي .

وهذا الشعر الذى يرويه أبو بكر الطرطوشى يعطينا صورة أخرى لهؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم ، فهم كانوا فى جماتهم - مع تضلّعهم فى الفقه والعلوم الدينية - من المتصوفة الذين يعتقدون أن الحياة الدنيا نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكر لله . وسنرى فيما بعد أن هذا النوع من الحياة الذى شاهده الطرطوشى فى بغداد قد أثّر فيه تأثيراً كبيراً ، فبدأ منذ ذلك الحين يأخذ نفسه به ، حتى عدّه من كتبوا عنه واحداً من المتصوفة الزاهدين .

كان هذا الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه سراج الملوك ، يضرب كله المثل بالأهم الغابرة ، وما بنت من قصور ، وما زينّت من عماثر ، وكيف انتهى كل هذا الزخرف إلى زوال ، ويدعو إلى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول :

أنشدنى القاضى أبو العباس الجرجانى رحمه الله بالبصرة :

بالله ربّك كم قصّصٍ مررت به قد كان يعمر بالاذات والطرب
طارت عقاب المنايا فى جوانبه ، فصاح من بعده بالويل والحرب

وأنشدنى أيضاً :

أيها الرافع البناء رويداً لن تذودَ المنون عنك المباني
إن هذا البناء يبقَى ، وتبقى ، كل شيء أبقى من الإنسان

وأنشدنى بالبصرة :

إن كنت تسمو إلى الدنيا وزينتها ، فانظر إلى مملِكِ الأملاك قارون
زم الأمور فأعطته مقادتها وسخّر الناس بالتشديد واللين
حتى إذا ظن أن لا شيء غالبه ومكنت قدماه أى تمكين
راحت عليه المنايا راحة تركت ذا المملِكِ والعزّ تحت الماء والطين

وروى أن شيخه أبا محمد التميمي أنشده ببغداد :

لمن أبني ؟ لمن أسيمُ المطايا ؟ لمن أستأنف الشيء الجديد ؟
إذا ما صار إخواني رُفَاتًا وصرتُ لفقدهم فرداً وحيداً
أعابنُ معشراً لهم شكولٌ ، وأشكالي قد اعتنقوا اللحدوا

وقد روى الطرطوشي في كتابه سراج الملوك حديثاً آخر جرى بينه وبين أحد العراقيين يدل دلالة واضحة على أن هذه الموضوعات بالذات كانت مجال المناقشة دائماً بينه وبين أئداده من علماء العراق : موضوعات الحياة الدنيا وقيمتها وزوالها ، والإنسان وجهوده ومصيره ، والعبرة المأخوذة من هذا كله .

يروى الطرطوشي طرفاً من إحدى هذه المناقشات فيقول :

«وها أنا أحكي لك أمراً أصابني طيش عقلي وبلبل حرمي وقطع نياط قلبي ، فلا يزال يراه حتى يواريني التراب ، وذلك أني كنت يوماً بانعراق وأنا أشرب ماء ، فقال صاحب لي - وكان له عقل - : يا فلان : لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان إنساناً يوماً من الدهر فأت ، فصار تراباً ، فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر وضربه خزفاً وشواه بالذر فانتظم كوزاً كما ترى ، وصار آنية يمتن ويستخدم بعد أن كان بشراً سوياً يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويضطرب » .
هذه النظرة الفلسفية العميقة إلى الإنسان ومصيره :

كيف خلق ومم خلق ؟

وكيف ينتهي وإل أين يصير ؟

وكيف تنتهي الحياة إلى الموت ؟

ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء ؟

هذه النظرة الفلسفية هزت كيان الطرطوشي هزاً ، أو على حد قوله هو :

« طيش عقلي وقطعت نياط قلبي » .

وأدرك ما وراء هذه اللفتة من حقيقة : فاستطرد في حديثه يؤكدها ويحللها

تحيالاً يؤكد إيمانه بها ، قال :

« فإذا الذى قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحضر لحده ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية ، فتمتن فى البيوت ، أو لبنة فتبنى فى الجدار ، وقد يجوز أن يُغرس عند قبره شجرة ، فيستحيل تراب الإنسان شجرة وورقاً وثمره ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الإنسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقتات صار قوتاً ، وبينما كان يأكل صار مأكولاً ، ثم يعود فى بطن الإنسان رجيباً فيقذف فى بيت الرخاضة ، أو بعراً ينبذ بالعراء ، ويجوز إذا حفر قبره أن تسنى الرياح ترابه ، فتتفرق أجزأؤه فى بطون الأودية والتلول والوهاد » .

هذا الحديث الذى ألقى إلى الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد ، وهذا التعليق الذى راح يحلل به الحديث فى كتابه « سراج الملوك » يذكرنا بشاعر فارسى مجيد يدور كثير من شعره حول هذا المعنى بالذات : تجدد الحياة ، وخروج الميت من الحى ، وانبثاق الحى من الميت ، يذكرنا بالشاعر عمر الخيام فهو الذى يقول فى رباعياته :

قد كان هذا الدنُّ صَبَبًا أُسِيرَ مثلى ، سبته مسدلاتُ الشعور
وما يَدُ الإبريقِ إِلَّا يَدٌ قد طَوَّقَتْ جِيدَ حبيبٍ عزيز
وهو الذى يقول — ويكاد يحيل قول البغدادى للطرطوشى شعراً :

رَأَيْتُ خَزَافًا رَحَاهُ تَدُورُ ، يَجِدُّ فى صَوِّغِ دِنَانِ الخُمُورِ
كَأَنَّهُ يَخْلُطُ فى طِينِهَا جِجَمَةَ (الشاه) بِسَاقِ الْفَقِيرِ

ومن العجيب أن الخيام كان معاصراً للطرطوشى ، ترى هل سمع شعره هذا أو نُقل إليه أثناء مقامه فى بغداد ، فتأثر به وبأن هذا الأثر فيما كتبه فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » ؟ هذا سؤال افتراضى أوحى به التشابه الغريب بين كلام الطرطوشى وشعر الخيام ، ولا نستطيع الإجابة عنه الآن فإن المعروف عن حياة الخيام لا زال قليلاً غير واضح المعالم .

انطلق إذن أبو بكر الطرطوشي يفكر في هذه الائمة الفلسفية فيطيل التفكير ، ويحلل فيطيل التحليل ، وراح يعرض كل الاحتمالات الممكنة التي قد ينتهي إليها الإنسان بعد موته ، وراح يكوّن لنفسه فلسفة خاصة ، بدأ يعتنقها منذ ذلك الحين ، ويصوغ حياته صياغة خاصة تتفق وهذه الفلسفة ، وهي فلسفة الزهد ، والعزوف عن اللذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير في سبيل الحق ، وفي سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى ، فهو ينظر إلى كل كبير بهذه العين المحللة التي لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ، ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره ، وأنه لن يكون بعد الموت إلا كوزاً يشرب فيه الماء ، أو ما يشبه ذلك .

تبدو غسفته هذه واضحة في الفقرة التي ختم بها حديثه السالف حيث يقول : « أليس في هذا ما أذهل العقول وطيش الخلوم ومنع اللذات . وهان عنده مفارقة الأهل والمال واللبق بقلل الجبال ، والأنس بالوحوش حتى يأتي أمر الله ؟

أليس في هذا ما صغّر الدنيا وما فيها ؟

أليس في هذا ما حقّر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه ؟

أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات ؟ »

سيلتزم الطرطوشي إذن منذ يغادر العراق وفيما يقبل من أيامه حياة الزهد والبعد عن مباحج الدنيا ، سيلتزم الزهد لا عبادة وإنما تفلسفاً .

٧

وقد زار الطرطوشي أثناء مقامه في العراق مدينة البصرة ، وتعلم فيها على أبي علي محمد بن أحمد التستري ، ثم يتم وجهه شطر قطر آخر وهو الشام .

ولسنا نعلم على وجه التحديد كم سنة بقي الطرطوشي في العراق ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أنه لم يقم به طويلاً ، فنحن نعرف أن عدداً كبيراً من شيوخه في العراق توفوا في المدة بين سنتي ٤٧٨ و ٤٧٩ هـ ، فأبو سعد المتولي وأبو عبد الله الدامغانى توفيا سنة ٤٧٨ هـ ، وأبو علي التستري توفي سنة ٤٧٩ هـ ، والطرطوشي بدأ

رحلته من المغرب سنة ٤٧٦ . فلا بد إذن أنه وصل إلى العراق في أواخر سنة ٤٧٧ ، أو أوائل سنة ٤٧٨ ، وأنه غادرها سنة ٤٧٩ أو سنة ٤٨٠ وقد بلغ الثلاثين من عمره .

دخل أبو بكر الطرطوشي الشام بعد أن أتم دراسته . وبعد أن حصل من العلوم ما حصل ، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه ، وبعد أن كوّن لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالسمة الظاهرة التي تميز أبا بكر الطرطوشي منذ دخل الشام إلى آخر حياته أنه عالم زاهد : بل لعله أقرب إلى الحقيقة أن نقول زاهد عالم : فإن ابن فرحون يروي في كتابه « الديباج المذهب » أن بعض الجليّة من الصالحين كان يقول : « الذي عند أبي بكر الطرطوشي من العلم هو الذي عند الناس . والذي عنده مما ليس مثله عند غيره دينه » .

وقال الحميري في كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :
« زهده أكثر من علمه » .

والذي تجمع عليه المراجع التي ترجمت له أنه قضى الفترة التي عاشها في الشام يعلم الناس ، فأقبلوا عليه ، وأحبوه ، وأفادوا منه ، فعلا اسمه ، وبعد صيته ، وأنه عاش هناك متقشفاً عابداً زاهداً منقبضاً عن الناس ، إذا أكل أكل في شقف من الفخار : وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلى بره ، ولكنه كان ينصرف عنهم : ويشتد عليهم في القول وإسداء النصيحة .
قال ابن فرحون :

« وسكن الشام مدة ودرّس بها : ولازم الانقباض والجماعة وبعد صيته هناك . وأخذ عنه الناس هناك علماً كثيراً ، وكان إماماً عالمياً عاملاً زاهداً ، ورعاً ديناً متواضعاً : متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً باليسير منها ، وتقدّم في الفقه مذهباً وخلافاً . . . وكان له — رحمه الله تعالى — نفس أبيّة ، قيل إنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجاناً للسلطان معرضاً عنه وعن أصحابه شديداً عليهم مع مبالغتهم في بره » .
ووصفه القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري بالفضل والعلم والزهد

في الدنيا وروى عنه أنه كان يقول :

« إذا عرض لك أمران ، أمر دنيا وآخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى » .

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشائنين والحاسدين من أهالي بيت المقدس ، فسعوا به لدى حاكمها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، واستدعاه الحاكم إليه ، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب ، قال ياقوت في ترجمته له :

« كانت له نفس أبيّة ، وكان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجانباً للسلطان ، استدعاه فلم يجبه ، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر » .

والطرطوشي الذي كان يجانب السلطان وينأى عنه كان يقوم الليل متعبداً أثناء مقامه في بيت المقدس ، يشجيه الصوت يسمعه في هدوء الليل يناجي الله ويلوم النفس والقلب إن أغفيا أو توانيا عن ذكر الله ، ويروى الطرطوشي عن نفسه أنه كان نائماً في بيت المقدس فسمع صوتاً حزيناً ينشد :

أخوفٌ ونومٌ ؟ إن ذا لعجيبٌ ؟ ثكلتُك من قلبٍ . فأنت كذوبٌ
أما وجلالِ اللهِ ، لو كنتَ صادقاً لما كان للإغماض منك نصيبٌ

يقول رحمه الله :

« فأيقظ الصوتُ النّوامَ وأبكى العيون » .

ولسنا نعرف أيّ المدن الشامية زار الطرطوشي - غير بيت المقدس - ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها ، وأنه طوّف في معظم مدن الشام الأخرى ، وأنه ذهب في تطوافه إلى أقصى الشمال ، فزار حلب ثم انحدر منها إلى أنطاكية ، فهو يروى في « سراج الملوك » حادثة حدثت له يفهم منها أنه زار أنطاكية ، فيقول :

« كان معي نفقة وافرّة في هميان على وسطى ، وكنت أسمع المسافرين يقولون : من نام بالليل في الفيافي وله نفقة على وسطه فليحملها ، فإن اللصوص

إذا كابدت الخلق يتبدرون أوساطهم ، فخرجت من بلاد السويدية إلى أنطاكية — وهى إذ ذاك حرب للروم — فسرينا ليلتنا ، وأصبحنا فى باب أنطاكية : فأخذتني عيني وحللت الهميان ونمت ، ولم أستيقظ إلا ضحوة النهار ، فاستيقظت ومددت يدي إلى الهميان فلم أجده ، فجعلت أنظر إلى القافلة ، والتفت إلى الناس ، وقد أسقط فى يدي ولم يبق لى حيلة : فاسترجعت ورفعت أمرى إلى الله سبحانه وتعالى ، وإذا رجل من أهل القافلة ملتفتاً إلىّ ، فوقع وجهي فى وجهه ، فإذا هو يضحك لما رأى ما بى ، فقال : مالك أيها الفقيه ؟ قلت : خير ، فراجعني فقلت : خير ، فقام إلىّ وقال : خذ هميانك عافاك الله ، فسألته كيف ظفر به ؟ فقال : رأسك قد تدرج ذراعين أو ثلاثة ، والتفتُ فرأيت سواداً فى الموضع الذى كنت فيه نائماً ، فسرتُ إليه وأخذته فإذا هو الهميان .
رحمة الله ورضوانه عليه .

وقد نستنتج من هذا النص شيئاً آخر هاماً وهو أن الطرطوشى كان فى أنطاكية حوالى سنة ٤٩٠ هـ فهو يقول عند ذكره لها :

« وهى إذ ذاك حرب للروم » .

ولعله يقصد الصليبيين ، فإن الحملة الصليبية الأولى وفدت إلى الشرق فى سنة ٤٩٠ هـ ، ثم لم تلبث أن استولت على سواحل الشام كلها بما فيها أنطاكية ، وأغلب الظن أن هذا الحديث الخطير هو الذى دفع الطرطوشى دفعاً إلى ترك الشام وأنه غادرها منذ ذلك الحين ، واتجه إلى مصر ونزل بالإسكندرية حيث اتخذها مقراً له .

ومما بقوى استنتاجنا أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل إلى مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل ولى الوزارة بعد وفاة أبيه فى سنة ٤٨٧ هـ . فإذا صح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل إلى الشام حوالى سنة ٤٨٠ هـ وهو فى الثلاثين من عمره وغادرها حوالى سنة ٤٩٠ هـ وهو فى الأربعين من عمره بعد أن قضى فيها عشر سنوات يطوف فى مدنها الكبرى ، ويستزيد من

التحصيل ويشغل معظم وقته بالتدريس حتى أصبح له تلاميذ كثيرون يعجبون به
وبعلمه ، ويتسابقون إلى حلقات دروسه . فقد قال ياقوت في ترجمته له :
« وسكن الشام مدة ودرس بها وبعد صيته . وأخذ عنه الناس هناك
علماً كثيراً » .

٨

وكانت مصر - وكانت الإسكندرية بوجه خاص - عند وصول الطرطوشي
إليها وشيكة الخروج من أزمة خطيرة ، فقد كانت السلطة الفعلية كلها في الدولة في
يد الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ، فلما مات الخليفة المستنصر
الفاطمي سنة ٤٨٧ هـ أسرع الأفضل وبايع ابنه الأصغر أحمد . ولقبه المستعلي
بالله ، وأبعد الابن الأكبر نزار ، وفرّ نزار إلى الإسكندرية واتفق مع حاكمها
ابن مصال الذي أحضر له أهل الثغر وأعيانه فبايعوه بالخلافة : وخرج الوزير
الأفضل بجيش كبير وحاصر الإسكندرية مدة ، وهزم في أول الأمر ، ثم انتصر
بعد ذلك وقبض على نزار وقتله : وأصاب الإسكندرية من هذا النزاع ومن هذا
الحصار والقتال كثير من التخريب : وانتقم الأفضل من أهلها انتقاماً شديداً
لتأييدهم لنزار ومبايعتهم له ، ويبدو أن انتقامه كان شديداً حتى إنه قتل عدداً من
علمائها ، فتمطلت الشعائر الدينية ، ولم تقم الجمعة في مساجدها .

فإن ابن فرحون يقول في ترجمته للطرطوشي إن أبا الطاهر بن عوف قال :
« وكان نزوله بالإسكندرية بأثر قتل الأمير بها علماءها ، فوجد البلد
عاطلاً عن العلم ، فأقام بها وبثّ علماً جماً » .

كانت الإسكندرية تعيش عند نزول الطرطوشي بها في حالة من الرعب والفرع
شديدة ، والشعائر الدينية معطلة ، وعلمائها مضطهدون لا يستطيعون الجهر
بالعلم أو بالقول لأن الغالبية العظمى منهم يتبعون المذهب المالكي ، والمذهب
الشيعة هو المذهب الرسمي للدولة : ولكن الطرطوشي الرجل الجريء الذي لم يهب

السلطان فى بيت المقدس لم يهب السلطان فى مصر أو الإسكندرية فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه مذهب مالك وكان يقول .

« إن سألنى الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كنت عليه فى أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم أقول له : وجدت قوماً ضللاً فكنت سبب هدايتهم » .

ولم يلبث الطرطوشى فى الإسكندرية إلا قليلاً حتى عرف واشتهر وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه ، وتزوج بعد وصوله بقليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية ، فأطلقت يده فى أموالها وتحسنت أحواله ، ووهبته داراً من أملاكها جعل سكنه معها فى الدور الأعلى ، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلتقى فيها دروسه .

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشى فى الإسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة ، وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى الملك الأفضل شاهنشاه ، ذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ، لا ليسأله منحة أو عطية ، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره ، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعدة الحسنة ، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم ، ولم يكن هذا غريباً من الطرطوشى الرجل العالم الزاهد الجريء الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه ، فهو الذى وصفه ابن فرحون بأنه كان أبى النفس ، والذى وصفه المقرئ بأنه كان قوالاً للحق .

وقد أثبت الطرطوشى موعظته هذه للأفضل فى كتابه « سراج الملوك » ، قال : « فلما دخلت على ملك مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش ، فقلت : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً وأمرنى بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه . فقلت :

أيها الملك : إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملأك طائفة من ملكه . وأشركك فى حكمه ، ولم يرض

أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولى بالشكر منك .

وإن الله تعالى ألزم الوري طاعتك فلا يكونن أحدٌ أطوع لله منك .
وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر : وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعل والإحسان ، قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » .
واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن النقيير والقطمير والقتيل : قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ، وقال تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بخذا فيرها سليمان بن داود عليهما السلام ، فسخر له الإنس والجن والشیاطین والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » : فوالله ما عداها نعمة كما عددتوها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتوها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله تعالى ومكرّاً به فقال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر » .

فافتح الباب . وسهّل الحجاب . وانصر المظلوم : أعانك الله على ما قلّدتك ، وجعلك كهنةً للملهوف وأماناً للآخرين .

واستطرد الطرطوشى فى حديثه فقال للأفضل :
« قد دونتُ البلاد شرقاً وغرباً ، فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها غير هذه المملكة » .

مما يفهم منه أن زيارته هذه للأفضل كانت بعد إقامته فى الإسكندرية بمدة طويلة وبعد أن تزوج بها وأنجب .

ونختم حديثه أخيراً بهذا البيت من الشعر :
والناس أكيس من أن يحمدا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان

هكذا خاطب الطرطوشى العالم الزاهدُ الملكُ الأفضلُ ذا الحول والطول وهو
فى أوج سلطانه وعظمته ، والكل يأترون بأمره ، حتى خليفته الأمر نفسه ،
ولم يرر لنا الطرطوشى كيف تمبّل الأفضل هذا الحديث ، وأغلب الظن أنه هز
كيانه هزاً ، وأنه استنكره فيما بينه وبين نفسه ، وإن كان قد تظاهر بقبوله قبولاً
حسناً ، فإن الرجل المستبد يأنف عادة من النقد وتستهويه آيات المديح .

٩

وعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولى ، وليفرغ للعلم والتعليم
وتكاثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه ، واصطنع هو لهم طريقة هى أقرب شىء
إلى طرق التربية الحديثة : فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس ثم ينفضون
من حوله ، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج
المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية : وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه أو يذاكرهم
فيما حفظوه ودرسوه ، وشاقت هذه الطريقة لتلاميذه ، فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم
حتى كان إذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن
أربعمائة طالب .

وصف لنا هذه الطريقة خادم الطرطوشى الخاص وأحد تلاميذه أبو عبد الله
محمد بن عبد الرحمن التجيبى الإسكندرانى قال :

« كان — أى شيخه الطرطوشى — صاحب نزهة مع طلبته فى أكثر
الأوقات ، يخرج معهم إلى البستان فيقيمون الأيام المتوالية فى فرحة ومذاكرة
ومداعبة مما لا يقدح فى حق الطلبة بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ،
وخرجنا معه فى بعض النزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلاً لكثرة الآخذين عنه
المحبين فى صحبته وخدمته » .

ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشى الوبال ، فقد ضاق به قاضى الإسكندرية
ابن حديد ضيقاً شديداً ، ولا بن حديد مع الطرطوشى قصة طويلة :
كانت أسرة بنى حديد كبرى الأسرات السكندرية فى ذلك الوقت مكانة

وعلماً وثروة وجاهاً وسلطاناً . وقد ولى منصب القضاء فى المدينة أكثر من واحد من أفرادها ، وكان القاضى وقت وجود الطرطوشى بالإسكندرية هو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد .

ولكى نعرف أى الرجال كان ابن حديد هذا يكفى أن نعلم أن منصب القاضى كان يلى فى الترتيب والمكانة منصب حاكم المدينة . وكان يعزز هذه المكانة أن قاضى المدينة كانت له - إلى جانب اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة - اختصاصات مالية وإدارية وضرائبية كثيرة . فكان يشرف على الأحباس - أى الأوقاف - ، وعلى الجوائى - أى ضريبة الجزية التى تجمع من أهل الذمة من يهود ونصارى - ، وعلى دار الضرب ، وعلى المكوس - أى الضرائب المدنية غير الشرعية - ، وكان يعزز هذه المكانة أيضاً أن ابن حديد نفسه كان ذا ثروة طائلة ، وأنه كان يحيا حياة العلية من القوم ، فيفتح قصره لكل قاصد ، ويكرم الناس ، ويغدق العطايا ، مما دفع الكثيرين من شعراء العصر إلى مدحه والإشادة بذكركه ، وقد صدق المقرئى فى وصفه حين قال :

« وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة » .

وقد روى المقرئى فى كتابه الخطط أكثر من قصة لبيان هذه المروءة والهمة العالية ، ولوصف حياة البذخ والترف التى كان يحياها القاضى ابن حديد ، وأطرفها أن قصر ابن حديد فى الإسكندرية كان له بستان جميل ، وفى البستان نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ينحدر فيها الماء فتكون كالبركان فى اتساعها ؛ وكان صاحبها يباهى بها أهل العصر . إلى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الأمر الفاطمى ، فطلبتها منه ، وأجابها ابن حديد مضطراً إلى طلبها ، وحملت النافورة إلى القاهرة ، وركبت فى بستان الهودج ، وهو القصر الجميل الذى بناه الأمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة ، وتألم ابن حديد لفقده هذه النافورة ألماً بالغاً ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا إلى أن أمرت برد النافورة إليه .

كان رجل كابن حديد ينتظر من الطرطوشى عند نزوله بالمدينة أن يسعى إليه ، وأن يمدحه ، وأن يكون من حاشيته ، ولو أنه فعل هذا لأغدق عليه ابن حديد العطايا وليسر عليه شئون الحياة خيماً ، ولكن الطرطوشى كان من صنف

آخر من الرجال ، كان رجلاً يعتد برجولته ، وكان عالماً يعتر بعلمه ، وكان بعد هذا زاهداً لا ينجذب ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التي كان يحياها ابن حديد ، ولعله أخذ على ابن حديد أيضاً بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والإسلام . وأغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية ويعيد الحديث ويكرره في عنف وقسوة مما آلم ابن حديد وآذاه .

وكانت للطروطشى إلى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدولة ، فهو مثلاً قد أفتى في الإسكندرية بتحريم الجبن الذي يأتي به الروم إلى المدينة ، وألّف في تحريره رسالة صغيرة ، وهو ينتقد كثيراً من العادات السائدة في المجتمع والتي تنافي الدين الإسلامي وأصوله ، ويؤلف في نقدها كتاباً اسماه « بدع الأمور ومحدثاتها » .

ثم هو بعد هذا قد جذب إليه عدداً ضخماً من تلاميذ المدينة وعلمائها ، فصار إذا انتقل من مكان إلى مكان أو إذا خرج إلى رحلاته خرج في موكب حافل مهيب . يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، وفي هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضي المدينة ورجلها ابن حديد ، وفيه خطورة محققة على مركزه ومكانته ، لقد انفص السامر من حوله وأصبح الحديث بين الناس في الإسكندرية عن الطروطشى وعلم الطروطشى ورحلات الطروطشى وفتاوى الطروطشى ، بل لهج الناس بنقد الطروطشى لتصرفات ابن حديد كقاضي ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء إلى سمعة القاضي .

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ورفعها إلى الوزير الأفضل شاهنشاه وبين له خطورة هذا الرجل على الإسكندرية وأهلها . يؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون في ترجمته للطروطشى ، قال تعقيباً على حديثه عن رحلات الطروطشى العلمية مع طلابه :

« وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضي ابن حديد إلى العبيدي — يقصد النسيبة الفاطمي — وشى به إليه في أمور غيرها ، وكان الطروطشى يذكر بني حديد ذكراً قبيحاً : لما كانوا عليه من أخذ المكوسات والمعونة على المظالم ، وكان يفتي بتحريم الجبن الذي يأتي به النصارى ويفتى بقطع

محرمات كثيرة ، فخطب بذلك بنو حديد وذكره للسلطان .

والسلطان المقصود هنا هو الوزير الأفضل شاهنشاه ، والأفضل لم ينسَ بعد كيف ثارت الإسكندرية مع نزار منذ قليل ووقفت تقاومه مدة ، وهو لا يريد أن يثور شيء من الشعب في هذه المدينة ، ولو أن هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم ، وينتقد القاضى وأحكامه ، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة ، ويحرم الخبز الروى وغيره من المأكولات التى تأتى من أوروبا ، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ، وسينقص من مهامتها فى أعين الشعب ، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية ، فتتقص إيرادات الدولة بتقصان الضرائب التى تؤخذ على هذه التجارة الواردة : والأفضل يدرك خطورة هذا التقرير الذى رفعه القاضى ابن حديد إليه بشأن الطرطوشى ، فالطرطوشى ليس غريباً عليه ، فهو يعرفه معرفة أكيدة منذ مقابلته الأولى له ، وهو يذكر جيداً موعظته الجريئة، وما تضمنته من كلامٍ قاسٍ لاذعٍ ومن جرأة نادرة فى قول الحق ، لهذا أراد أن يحسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل إلى والى المدينة يأمره بإرسال الطرطوشى إليه .

وجاء الرسول إلى الطرطوشى وأراد أن يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر فقال له :
« يسّر حوائجك فإنك تمشى يوم كذا » .

فقال الطرطوشى :

« وأى حوائج معى ؟ ريشى رياشى . وطعائى فى حوصلتى » .

وفى القاهرة قابل الأفضل الطرطوشى مقابلة طيبة : ولكنه أمره بالبقاء فى القسطنطينية وحده إقامة فى مسجد الرصد جنوبى القسطنطينية ، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه . وعين له راتباً شهرياً بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود : وسمح لخادمه بالإقامة معه .

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهوراً : فضجر من التضييق على حريته ، واشتد كرهه للأفضل ؟ تقول المراجع :

« وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال مقامه به — أى بالمعتقل —

ضجر وقال لخادمه : إلى متى نصبر ؟ اجع لى المباح من الأرض :

فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه :
 ”رميته الساعة“ فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل .

ومعنى هذا أن الطرطوشى لما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شىء مما يأتيه به الأفضل ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً حلالاً من المباح من نبات الأرض ، وأكل هذا المباح ثلاثة أيام ، وقد اعتكف يصلى ويتعبد ويبتهل إلى الله ، فلما كان اليوم الثالث قتل الأفضل ، ومن الثابت أن الأفضل قتل فى اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ .

وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التى اعتقل فيها الطرطوشى ، فهو قد اعتقل فى أواخر سنة ٥١٤ هـ أو أوائل سنة ٥١٥ هـ وظل فى الاعتقال إلى شوال سنة ٥١٥ هـ . وانكشفت الغمة عن الطرطوشى ، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، وكان يعلم ما بين الرجلين ، فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراماً زائداً وقربه إليه .

١٠

وعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى ، ولكن هذه المحنة لم تنل منه ولم تفل من حدته ، فقد كانت تشغله دائماً الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل ، والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها فلم يستمع إليه ، بل أبعده عن داره وحدد إقامته ، وقد خشي الطرطوشى أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه .

لهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتاباً فى فن السياسة والحكم وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية ، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة ، وسماه «سراج الملوك» ، وفى شوال سنة ٥١٦ حمل الكتاب وسافر إلى القاهرة ليقدمه إلى الوزير الجديد المأمون البطائحي ، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة القائمة فى الدولة والتى لا يقرها الشرع .

ولم يكد المأمون يسمع بوصوله - وكان بين يديه الكتاب وكبار الموظفين

يعرضون شئون الحكم - حتى أمر في الحال برفع الدفاتر ، وفضّ المجلس ، وأمر بمد السماط ، واستدعى الفقيه لمقابته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته وجلس بين يدي الطرطوشى . وفي هذا الدليل أكبر الدليل على عظم مكانة الطرطوشى وما كان يحسه الوزير نحوه من تيجيل واحترام ، فلم تكن من عادة الوزير في العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدي الأستاذ . وبعد المقابلة أمر بإنزاله في مكان خاص أعد له ، وأمر أن يرتب له خمسة دنائير في اليوم . ولكن الطرطوشى رفضها ، وطلب أن يصرف له دينارين فقط ، وهو المبلغ الذى كان يصرف له أيام الأفضل . ثم كان المأمون يستدعيه لجلسه الخاص الذى يعقده يومى راحته من كل أسبوع فيستمع إلى شكاواه ويحجب شفاعاته . وصف هذه المقابلة وهذا الإكرام المقريزى فأحسن الوصف ، قال :

« في شوال سنة ٥١٦ وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهرى الطرطوشى من الإسكندرية بالكتاب الذى سماه سراج الملوك ، فأكرمه وأمر بإنزاله في المجلس المهيأ للإخوة : وتقدم برفع أدوية الكتاب وأوطية الحساب وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع إلى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة وجلس بين يديه ، ثم انصرف ومعه أخو المأمون إلى مكان أعد له ، وحمل إليه ما يحتاج إليه ، وأمر مشارف الجوالى أن يحمل إليه في كل يوم خمسة دنائير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه في يومى راحته ويبالغ في كرامته ويقضى شفاعاته » .

وحضر الطرطوشى لمقابلة المأمون ليقدم له كتاب « سراج الملوك » الذى ألفه باسمه وأهداه إليه ، ولعرض عليه تلك الأمور الظالمة المنافية للشرع التى سبق أن تحدث بشأنها في أيام الأفضل فلم يستمع إليه ، أما الكتاب فله حديث خاص سنعود إليه بعد قليل ، وأما تلك الأمور فكانت تتلخص في النظم المتبعة في

الميراث : فقد كان القضاة في مصر على العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي ، والمذهب الشيعي يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، ويحرم العصبة من المشاركة في الميراث ، وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضاً بأن يأخذ أمناء الحكم — أى الموظفون القضائيون المشرفون على شئون الميراث — ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة .

وكان الطرطوشي يرى في الأمر الأول مخالفة للشرع في نظره ، أى للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت أكثر من نصف التركة ، وكان يرى في الأمر الثاني ظلماً فاحشاً واغتصاباً لحق الأيتام ، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءاً منها لموظفيها .

وتناقش الطرطوشي طويلاً مع المأمون في هذه الموضوعات : واعتذر المأمون عن الأمر الأول بأنه مما جرت العادة السابقة به ، وأنه لم يحدث في أيامه ، وأنه يتفق ومذهب الخليفة ، فليس من اليسير أن يوافق على تغييره ، لأنه يتصل بصميم المذهب الشيعي ، وبعد نقاش طويل وافق على حل وسط يرضى المذهب الرسمي للدولة ويرضى الطرطوشي ، وافق على إصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميث ، فإن كان سنيّاً اتبع المذهب السني ، وإن كان شيعيّاً اتبع المذهب الشيعي . أما الأمر الثاني فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى لأنه رأى فيه إجحافاً حقيقياً بأموال اليتامى وحقوقهم ، وأمر بأن يصرف للموظفين — أمناء الحكم — راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التي كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى .

وصدر سجل رسمي موقع عليه من الخليفة الأمر والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل إلى القضاة في كل أنحاء الدولة للعمل به .

ولما اطمأنت نفس الطرطوشي بهذا الاتفاق أخذ — كما يقول المقرئ — في ذكر بقية حوائج أصحابه ، فحقق له الوزير ما أراد . وأجاب شفاعاته فيهم .

وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة أزمع العودة إلى الإسكندرية ، فذهب إلى الوزير يشكره ويودعه ، وتقدم إليه في هذه المقابلة بمطلب أخير : طلب

الموافقة على إنشاء مسجد جديد بالإسكندرية بظاهر الثغر على البحر ، فرحب الوزير بطلبه ، وكتب في الحال إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية يأمره بالإشراف على بناء المسجد في المكان الذي يتخيره الطرطوشي ، وأن :

« يبلغ في إتقانه وسرعة إنجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » .

ويقول المقرئ :

« وتوجه - أي الطرطوشي - فبنى المسجد المذكور على باب البحر » .

وباب البحر كان قريباً من ميدان المنشية الحديث ، وهذا المسجد للأسف من المساجد التي هدمت وتلاشت معالمها فلا وجود له الآن في المدينة .

١١

قلنا من قبل إن الطرطوشي قدم إلى الإسكندرية حوالى سنة ٤٩٥ هـ وقد بلغ الأربعين من عمره ، وأنه قضى هذه السنوات الأربعين متنقلاً مرتحلاً في بلدان المغرب والمشرق يطلب العلم أولاً ، وينشر العلم ويشغل بالتدريس ثانياً ، وخاصة في المرحلة التي قضاها في الشام ، فلما وصل إلى الإسكندرية استقر بها ، ولم يكن يغادرها إلا لزيارة القاهرة ، ثم يعود ثانية إلى مدرسته وتلاميذه وحياته العلمية الغنية في الإسكندرية .

وهذه الحياة القلقة الثائرة غير المستقرة لم تمنع الطرطوشي من التأليف ، فقد ذكرت المراجع المختلفة أن له تأليف كثيرة ، وأغلب الظن أنه وضع معظم هذه المؤلفات أثناء مقامه في الإسكندرية ، فإن حياة الارتحال والطلب الأولى في الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف ، كما أن سن الأربعين التي بلغها عند نزوله الإسكندرية هي سن النضوج الفكري ، وهذه الحياة المستقرة نسبياً التي حيينها في الإسكندرية وخاصة بعد أن تزوج بها وأنجب واطمأن إلى معيشة هادئة في كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة ، كل هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشي وضع الغالية العظمى من مؤلفاته إبان الحقبة

التي عاشها في الإسكندرية : ومداها نحو الثلاثين عاماً ، فهو قد نزل بها حوالي سن الأربعين - كما سبق أن ذكرنا - وتوفي بها في سنة ٥٢٠ هـ وهو في سن السبعين ، ويؤكد ترجيحنا السابق الملابس والظروف التي ألفت فيها وبسببها معظم كتب الطرطوشي ، فسرى عند استعراضنا لها أن الأسباب التي دفعته لتأليفها كانت ظرفاً أو أحداثاً تتصل بالمدة التي قضاها في مصر بوجه عام وفي الإسكندرية بوجه خاص .

ويبدو واضحاً من قائمة المؤلفات التي ذكرتها المراجع ونسبها إلى الطرطوشي أن الرجل كان نشطاً منتجاً خصب الإنتاج : وقد أحصيت له اثنين وعشرين مؤلفاً ، الموجود منها تسعة ، والباقي مفقود ، ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط ، والسبعة الأخرى ما زالت مخطوطة ؟ وبعض هذه المؤلفات تتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه - وفقه مالك بوجه خاص - ، والبعض الآخر يتناول بالبحث علم السياسة وفن الحكم والمجتمع وأدوائه وأحواله ، وفيما يلي عرض تحليلي تفصيلي لهذه الكتب :

١ - أولها مختصر لتفسير الثعالبي :

والثعالبي أو الثعلبي هو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، قال عنه ابن خلكان : كان أواخر زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء .

وهذا التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير هو الذي أسماه صاحبه « الكشف والبيان في تفسير القرآن » ، وهو الذي اختصره الطرطوشي في كتاب خاص ، وقد قام بتأليفه أثناء مقامه في الشام ، وكان يدرسه في المسجد الأقصى ، ذكر ذلك العالم الأندلسي أبو بكر محمد بن خير في « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » .

وتوجد في دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة مخطوطة من الجزء الثاني من هذا المختصر .

٢ - والكتاب الثاني تسميه المراجع « الكتاب الكبير في مسائل الخلاف » أو « التعليقة في الخلافات » . وذكر مرجع من المراجع أن هذا الكتاب كان كبيراً يقع في خمسة أجزاء .

والخلاف كما نعلم أحد العلوم الأولى التي بدأ الطرطوشي يتلقى أصولها منذ صباه المبكر في وطنه الأول الأندلس على أستاذه أبي الوليد الباجي : والتي استزاد منها حتى أتقنها أثناء تحصيله في بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق . وبعد أن تم نضجه الفكري في الإسكندرية وأصبح أستاذاً ومرجعاً في هذا العلم وضع هذا المؤلف الكبير في مسائل الخلاف في خمسة أجزاء .

٣ - أما الكتاب الثالث فهو « شرح لرسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني » . وأبو بكر محمد عبد الله بن أبي زيد عالم من أكبر أعلام الفقه المالكي الأوائل الذين وضعوا أسسه وقواعده . وقد عاش في القرن الرابع . وسكن القيروان مدة . وكان إمام المالكية في وقته . وهو جامع مذهب مالك وشارح أقواله . حتى لقد عرف باسم مالك الصغير . وقد توفي سنة ٣٨٩ هـ . وله تأليف كثيرة أهمها : الرسالة في الفقه المالكي ، وقد شرح الرسالة كثيرون من علماء المالكية ، والطرطوشي كما نعلم نشأ مالكي المذهب . وظل طوال حياته مالكي المذهب . وعاش الفترة الأخيرة من حياته في مدينة الإسكندرية حيث كان يسود المذهب المالكي . ومن المرجح إذن أن يكون هذا الشرح بعض دروسه في المذهب المالكي التي كان يلقاها في مدرسته بالإسكندرية .

٤ - والكتاب الرابع لم تذكره المراجع التي أرخت لطرطوشي . ولكن الطرطوشي نفسه أشار إليه في أكثر من موضع من كتابه « سراج الملوك » وسماه هناك « كتاب الأسرار » .

قال مرة أثناء حديثه عن العقل :

« قد ذكرت في كتاب الأسرار حقيقة العقل وأقسامه ومجمله وأحكامه .

بما لا مزيد عليه . ونذكر هاهنا منافع ومداركه ولباب ما تحرر من

القول فيه . . . إلخ »

وقال مرة عند كلامه عن القضاء والقدر :

« وقد كنت جمعتُ فيه كتاباً من جملة كتابي في الأسرار : هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه إلخ » .
 فللطرطوشي إذن كتاب اسمه « كتاب الأسرار » ويبدو من هذه الشواهد أن الكتاب يتناول موضوعات تتصل بالإنسان وبالعقل ، وبالقضاء والقدر ، وما يشبهها من موضوعات .

٥ - والكتاب الخامس كتاب « نقد إحياء علوم الدين للغزالي » ولم يذكر هذا الكتاب بهذا العنوان أحد من المؤرخين القدامى الذين ترجموا للطرطوشي ، والذي ذكره بهذا العنوان هو الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام » .
 وهناك مؤرخ قديم واحد أشار إلى رأى الطرطوشي في الغزالي وفي كتابه إحياء علوم الدين . وهو الحميري . فقد قال في كتابه « صفة جزيرة الأندلس » عند ترجمته للطرطوشي :

« وعاصر الغزالي : وله في إحيائه كلام ، وكان منحرفاً عنه ، سيئ الاعتقاد فيه » .

فهو لم يذكر صراحة أن الطرطوشي كتب كتاباً لنقد الإحياء للغزالي ، ولكنه قال :

« وله في إحيائه كلام »

ولعل الأستاذ الزركلي استنتج من هذا النص أن الطرطوشي ألف كتاباً في نقد الإحياء ومعارضته ، وقد بحث كثيراً عن هذا الكتاب فلم أعثر له على أثر . وإنما عثرت على ما يفيد أن الطرطوشي كتب رسالة لصديق له يذكر فيها أنه اجتمع بالغزالي وتحدث إليه وناقشه في موضوعات كثيرة ، ويشير إلى رأيه في الإحياء وينقده . وقد ذكرنا من قبل أن الغزالي تولى وظيفة التدريس في المدرسة النظامية ببغداد ، ولكننا قلنا إن الطرطوشي لم يقابل الغزالي في بغداد ، لأن الغزالي وصل إلى بغداد ودرس في النظامية بعد مغادرة الطرطوشي للعراق ، ولكننا نرجح أن العنبرين تقابلا في الإسكندرية بعد ذلك ، فإن المراجع التي ترجمت للغزالي تذكر أنه زار الإسكندرية في السنوات الأخيرة من حياته ، وأنه كان يزعم السفر إلى بلاد المغرب لزيارة الأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراکش ، ولكنه تلقى

أثناء مقامه في الإسكندرية خيراً بموت يوسف بن تاشفين ، فعدل عن عزمه ، وعاد إلى وطنه طوس . ونحن نعرف أن يوسف بن تاشفين مات سنة ٥٠٠ هـ ، وفي هذه السنة كان الطرطوشي يقيم في الإسكندرية ، فلا بد إذن أن يكون العالمان قد تقابلا في الإسكندرية في هذه السنة .

وللسيد محمد المرتضى الزبيدي — وهو واحد من كبار علماء مصر في القرن الماضي — شرح كبير لكتاب إحياء علوم الدين يقع في عشرة أجزاء سماه « تحاف السادة المقيمين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » : وقد عرض في مقدمته للعلماء السابقين الذين تناولوا إحياء الغزالي بالدراسة أو بالمدح والتعريض ، أو بالنقد والتجريح ، وذكر من بين الناقدين العالمين المالكيين : المازري والطرطوشي ، وعرض أولاً كلام المازري في الإحياء ثم ناقشه ورد عليه ، واستطرد فعرض لكلام الطرطوشي وقال :

« هذا ملخص كلام المازري ، وسبقه إلى قريب منه من المالكية الإمام أبو الوليد الطرطوشي نزيل الإسكندرية . فذكر في رسالته إلى أبي مظفر : « فأما ما ذكرت من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيت من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، وكان على ذلك طول زمانه . ثم بدا له البعد عن طريق العلماء فدخل في غمار العمال ثم تصوَّف فتهجر العلوم وأهلها ، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب وسوايس الشيطان . ثم شابهها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج : وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، فلقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الإحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، أو خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ، وشحن كتابه بالمعلومات » .

هذه هي الفقرة التي نقلها المرتضى الزبيدي لعرض رأي الطرطوشي في الغزالي وإحيائه : ومنها نفهم أن الطرطوشي لم يؤلف كتاباً في نقد الإحياء ، وإنما كتب رسالة إلى صديق له هو أبو مظفر أبدى فيها رأيه في الغزالي وكتابه ، ومنها يتأكد استنتاجنا السابق أن العالمين تقابلا ودارت بينهما مناقشات ومساجلات علمية .

ولم يستطع الطرطوشى فى أول الرسالة أن يخفى إعجابه بالغزالى فصرح بأن الرجل من أهل العلم ، وقد اجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، ولكنه لم يلبث أن استدرك فقال ما قال يجرّح الرجل وكتابه .

والذى نراه أن الطرطوشى كان متحاملا ومتجنباً على الغزالى ، وتفسير هذا التحامل بسيط ، فهو نوع من الغيرة التى تنشأ عادة بين العلماء المتعاصرين ، فالرجلان ولدا فى سنة واحدة ، وإن كان الغزالى ولد فى طوس فى أقصى الشرق ، والطرطوشى ولد فى طرطوشة فى أقصى الغرب ، والغزالى شافعى والطرطوشى مالكى ، والرجلان اشتغلا بالعلم وتحصيله ودراسته وتدريسه فى الحقبة الأولى من حياتهما ، ثم ركنا إلى حياة الزهد والتصوف حتى عدّاً من المتصوفة الزاهدين فى أخريات حياتهما ، والطرطوشى أدرك شهرة وذاع صيته فى الشام أولاً ثم فى الإسكندرية ثانياً ، والغزالى طبق ذكره الآفاة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وخاصة بعد تأليفه « المنقذ من الضلال » « وإحياء علوم الدين » وقد سبقته شهرته إلى الإسكندرية قبل وصوله إليها ، ولم يكن للطرطوشى وقتذاك مؤلف يستطيع أن يطاول به « الإحياء » .

ولهذا جاء نقد الطرطوشى للغزالى وكتابه ضعيفاً متهافتاً ، لا يزيد على أن يضم بعض الاتهامات التى لا تقوم على دليل ، ولهذا لم يعن المرتضى الزبيدى بالرد على كلام الطرطوشى كثيراً ؛ بل نقل ردّاً لعالم آخر عليه ، نقل رد السبكى ، قال السبكى :

« وأما كلام الطرطوشى فن الدعاوى العارية عن الدلالة: ولا أدرى كيف استجاز أن ينسب هذا الخبر إلى أنه دخل فى وساوس الشيطان ، ولا من أين اطلع على ذلك ، وأما قوله : شابهها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج فلا أدرى أى رموز فى هذا الكتاب غير إشارات القوم التى لا ينكرها عارف ، وليس للحلاج رموز يعرف بها ، وأما قوله : كاد ينسلخ من الدين ، فيا لها كلمة وقاه الله شرها . وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالى كان ذا قدم راسخ فى التصوف . وليت شعرى إن لم يكن الغزالى يدرى

التصوف فن يدريه ؟ وأما دعواه أنه سقط على أم رأسه فوقة في العلماء بغير دليل . فإنه لم يذكر لنا بماذا سقط . كفاه الله وإيانا غائلة التعصب ، وأما الموضوعات في كتابه . فليت شعري أهو واضعها حتى ينكر عليه ؟ ! إن هذا إلا تعصب بارد وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد .

والحقيقة أن الغزالي إذا قورن بالطرطوشي يبرز ويتفوق عليه في جميع النواحي ، فالغزالي إمام مدرسة فكرية كبيرة ، وكان لآرائه وكتبه وفلسفته آثار جد واضحة على الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي قروناً طويلة ، ولا يصح أن نأخذ نقد الطرطوشي هنا إلا على أنه نوع من الغيرة التي تثيرها الخصومة بين العلماء المتعاصرين المتنافسين .

٦- والكتاب السادس « رسالة في تحريم جبن الروم » : وهذا الكتاب ألفه قطعاً أثناء مقامه في الإسكندرية : وكان من بين الأسباب التي أثارت عليه القاضي ابن حديد والوزير الأفضل .
٧- والكتاب السابع هو كتاب « الحوادث والبدع » أو كتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » :

وأغلب الظن أنه ألفه في الإسكندرية كذلك . ينتقد فيه المجتمع الإسلامي والبدع التي انتشرت فيه ، ليثبت أن هذه البدع والمحدثات مما يتنافى مع أصول الدين والشريعة ، وهذا هو ثاني كتاب طبع من مؤلفات الطرطوشي ، نشره أخيراً في سنة ١٩٥٩ الأستاذ محمد الطالبي من علماء تونس نشرة علمية محققة اعتمد فيها على مخطوطتين للكتاب ، توجد إحداها في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة ، وتوجد الثانية في مكتبة مدريد .

٨- والكتاب الثامن اسمه « كتاب الفتن » . ولعله تناول فيه الفتن التي سادت العالم الإسلامي في ذلك الوقت شرقه وغربه ، فقد كان العالم الإسلامي يحتاج حينذاك مرحلة تسودها الانقسامات والفتن في كل جزء من أجزائه .

٩- والكتاب التاسع اسمه كتاب « بر الوالدين » . ولسنا نعرف شيئاً عن موضوعه أو عن الدافع إلى تأليفه ، إلا أن يكون

الطرطوشى - وقد تزوج فى الإسكندرية وأنجب - قد أحس عاطفة الأبوة تطفئ عليه وتملك عليه نفسه ، فألف هذا الكتاب ، وخاصة أن الرجل تزوج وأنجب بعد أن تقدمت به السن أى بعد سن الأربعين ، وهى السن التى بلغها عند وصوله إلى الإسكندرية . والرجل إذا أنجب فى سن متأخرة تكون عاطفة الأبوة عنده عارمة قوية ، ومما يرجح استنتاجنا أن ياقوت أورد فى ترجمته للطرطوشى بعض الشعر الذى قاله فى هذا المعنى ، قال :

« فمن شعره فى بر الوالدين :

لو كان يدرى الابنُ أَيْتَهُ غُصَّةٌ بتجرَّعُ الأبوانُ عنده فِراقه
أمَّ تَهيجُ بوجده حَيْرَانَةٌ وأبٌ يسحح الدمع من آماقه
يتجرَّعان لبَيْتِهِ غُصَصَ الرَّدَى ويبوح ما كسماه من أشواقه
لرئى لأمٍّ سَلٍّ من أحشائها وبكى لشيخٍ هامٍ فى آفاقه
ولبدَّلَ الخُلُقَ الأبْيى بعطفه وجزاهما بالعذب من أخلاقه

وأغلب الظن أن هذا الشعر لم يكن إلا تعبيراً عن عاطفته وشعوره هو ، فالشيخ الذى عناه فى قوله :

« وبكى لشيخ هام فى آفاقه »

لم يكن إلا الطرطوشى نفسه .

١٠ - والكتاب العاشر هو كتاب « سراج الملوك » :

وهو أهم كتبه جميعاً وأقيمها ، وهو واحد من كتب الطرطوشى القليلة التى وصلتنا ، فإن معظم كتبه قد فقدت للأسف ، وهو الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذى طبع أكثر من مرة .

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشى ألف هذا الكتاب بُعَيْدَ إطلاق سراحه من المعتقل الذى حددت إقامته فيه فى القسطنطينية ، وأنه ألفه فى الإسكندرية خلال سنة كاملة ، من شوال سنة ٥١٥ إلى شوال ٥١٦ . وأنه قدمه هدية إلى الوزير الذى أتمنى سراحه المأمون البطائحي ، وقال فى الإهداء مشيداً بذكر الوزير وعذله :

« ولا رأيت الأجل المأمون . تاج الخلافة ، عز الإسلام ، فخر الأنام ،

نظام الدين ، خاتمة أمير المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الآمدى أدام الله

لإعزاز الدين نصره : وأنفذ في العالمين بالحق أمره : وأوزع كافة الخلق شكره : وكفاهم فيه محذوره وضره . فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين : فبسط فيهم يده ، ونشر في مصالح أحوالهم كلمته ، وعرف الخاص والعام بمنه وبركته : وتقلد أمور الرعية : وسار فيهم على أحسن قضية : متحريراً للصواب : راغباً في الثواب : طالباً سبل العدل ومناهج الإنصاف والفضل : رغبت أن أخصه بهذا الكتاب ، رجاء لطف الله تعالى "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً" : ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقي الدهر كما قيل :

الناس يهدون على قدرهم لكنني أهدي على قدرى
يهدون ما يقنى : وأهدي الذى يبقى على الأيام والدَّهر

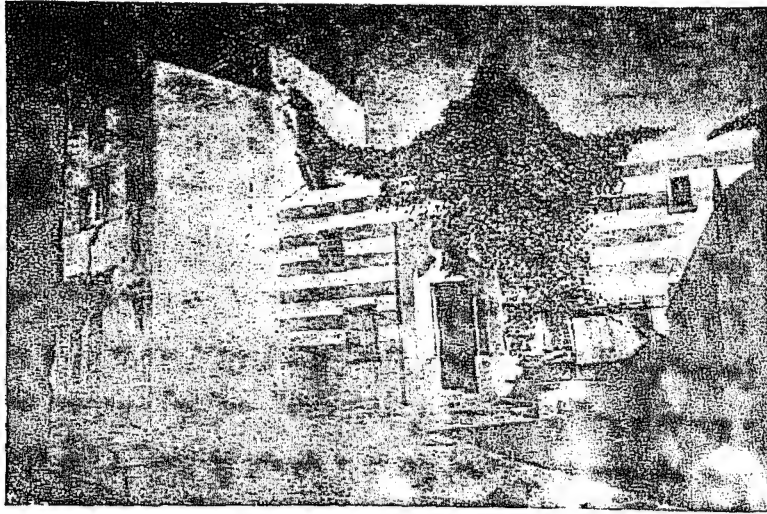
ثم يعلل الطرطوشى السبب في إهدائه الكتاب إلى المأمون : ويلجج إلى موقف الأفضل منه ومن العلماء : ويدعو الوزير الجديد إلى أن يقف موقفاً آخر من العلماء : فهم السياج الذى يمنع الحكام من الظلم ومن أن يسدروا في غيرهم : فيقول : « إن العلم عصمة الملوك والأمراء : ومعقل السلاطين والوزراء : لأنه بمنعهم من الظلم : ويردهم إلى الحلم : ويصدهم عن الأذية : ويعطفهم على الرعية . فمن حقهم أن يعرفوا حقه : ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله » .

والطرطوشى في هذا الكتاب من الطلائع ومن رواد الفكر الإسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف في علم السياسة وفن الحكم . فالتعساء المسلمون الذين ألفوا في هذا الفن قليلون . ومنهم الغزالي في كتابه « الذهب المسبوك في نصيحة الملوك » : والطرطوشى في كتابه « سراج الملوك » . والشيزرى في كتابه « المنهج السلوك في سياسة الملوك » . وابن طباطبا في كتابه « الفخرى في الآداب السلطانية » : وخيرهم جميعاً ابن خلدون في مقدمته . وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف في علم الاجتماع أو العمران . ولكنه قال إن الطرطوشى أحسن في تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته ، ولكنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها أو عرضها ،

أو هو — على حد قول ابن خلدون — « حوِّم على الغرض ولم يصادفه : ولا تحقق قصده ولا استوفى مسأله » .

والطرطوشي قسم كتابه « سراج الملوك » إلى أربعة وستين فصلاً ، جعل الفصل الأول في مواعظ الملوك ، والفصل الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين : ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره ، وفصل آخر لمعرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ، وفصل للوزراء ، وعقد فصلاً للحديث عن علاقة السلطان بالهند وبيت المال ، وفصلاً للحديث عما يصلح الرعاية من الخصال وما إلى هذا من موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعاية .

ومنهج الطرطوشي في تأليف هذا الكتاب أن يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان ملكاً أم وزيراً أم والياً أم قاضياً ، وقد يشرح هذا المبدأ شرحاً يسيراً ولكنه لا يطيل ، بل يسرع بإيراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التي تؤيد صحة هذا المبدأ ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين : ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور ، فالطرطوشي في كتابه هذا واحد من المفكرين



مسجد أبي بكر الطرطوشي

الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، بل هو يراها شيئاً واحداً متفقاً ، وهو يشبه في هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكرهم . ويختلف اختلافاً كبيراً عن فلاسفة أوروبا في عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال هوبز ولوك وروسو وهيغل وماركس ، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون في مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيراً مستقلاً عن تفكيرهم الخلقى ، وهو يشبه في هذا أنداده من المفكرين الإسلاميين ، فهم جميعاً لم يفرقوا في مؤلفاتهم بين السياسة والأخلاق .

وابن خلدون يعترف للطروشى بفضل الأسبقية في ارتياد هذا الموضوع ولكنه أراد في نفس الوقت أن يتعالى عليه ، وأن يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق في مقدمته ، فقال :

« وكذلك حوّم أبو بكر الطروشى في كتابه سراج الملوك ، وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة . وإنما ييؤب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار . وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليفة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حججاً ، وإنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاماً » .

وإنصافاً للطروشى نقول إن هدفه من تأليف سراج الملوك لم يكن كههدف ابن خلدون من تأليف المقدمة هدفاً علمياً خالصاً ، وإنما كان هدفه فنياً يريد أن يؤثر في النفوس بالقصة يرويها أو بالمثل والحكمة والموعظة الحسنة ، يلمح ولا يصرح ، حقيقة إن الطروشى لم يكن ندّاً لابن خلدون ، ولكن من العدل أن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه في تحقيق أهدافه التي كان يتطلع إليها عند وضع مؤلفه ، والحقيقة أن « سراج الملوك » كتاب حافل بالقصص الممتعة والأخبار الطريفة والنودار الشائقة ، كما ضمنه الطروشى كثيراً من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وآرائه القيمة مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة لمسائل الفقه والتشريع والتاريخ والأدب .

ومن الفصول القيمة في هذا الكتاب الفصل الذى عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا ، فهو يقول في أوله :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة : كما أن خيره يعم : كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لأن شره يعم ، وكما أنه بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصي والآثام ، وذلك أن السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق فيما بينهم ، وإذا جار السلطان انتشر الجور وعمّ العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروءاتهم ، ففشت فيهم المعاصي وزهبت أمانتهم فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل ، وبخسوا المكيال والميزان . . . فرفعت منهم البركة ، ، وأمسكت السماء غيثها . »

ويروى الطرطوشى حادثة من مشاهداته بالإسكندرية للدلالة على أن السلطان إذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد فرفعت البركة وقل الرزق . يقول :

« وشهدت أنا بالإسكندرية والصيد في الخليج مطلق للرعية : والسماك فيه يغلى الماء به كثرة ، ويصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجزه الولى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى إلا الواحدة إلى يومنا هذا . »

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله :

« وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية . إن خيراً فخبر وإن شراً فشر . »

ومن كلماته القيمة في وصف خطورة منصب السلطان والمهام الملقاة على عاتقه :

« . . . الخلق في شغل عنه وهو مشغول بهم : والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقاً من حوائش مملكته انتفخ آخر ، وكلما لم منها شعناً رث آخر . . . »

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالإشراف على شئون الرعية وإلزام كل فرد حقوقه وحدوده والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله :

« جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف ، ومثلهم بلا سلطان كمثل الخوت في البحر يزدرد الكبير الصغير ، فقي لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ومن عجب أن الطرطوشي الذي غمز الغزالي غمزته التي أشرنا إليها ونقد موسوعته الضخمة « إحياء علوم الدين » قد تأثر به وحاكاه عندما أراد أن يؤلف « سراج الملوك » فقد بدا لي أن أقارن بين كتاب الغزالي « الذهب المسبوك في نصيحة الملوك » وكتاب الطرطوشي « سراج الملوك » فتبين لي أن منهج الرجلين واحد ، فكلاهما يمزج تفكيره الأخلاقي بتفكيره السياسي مزجاً تاماً ، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقي تقريراً موجزاً ، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم ما يبرهن به على صحة هذا المبدأ ، والغزالي أهدى كتابه للملك سلجوق هو السلطان محمد بن ملك شاه ، والطرطوشي أهدى كتابه لوزير فاطمي كان يتمتع بسلطان الملك المطلق هو المأمون البطائحي .

وقد يتردد الدارس الناقد طويلاً قبل أن يحكم على بعض الفقرات المتشابهة في الكتابين بأنهما من باب توارد الخواطر .

وسنورد فيما يلي مثالين يثريان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين في بعض الأفكار بل في التعبير عنها .

يقول الغزالي عند حديثه عن مكانة العلماء وما يجب على الملوك والولاة من تقييهم إليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم :

« أيها السلطان: خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم : ولا يسلم الوالي إلا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طريق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر » .
ويقول الطرطوشي في نفس المعنى :

« إن العلم عصمة الملوك والأمراء : ومعدل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم : ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية : ويعطفهم على الرعية : فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حمة آلتته ويستبطنوا أهله » .
ويقول الغزالي عند حديثه عن أثر السلطان العادل أو السلطان الجائر في الرعية وعمران البلدان :

« ينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فإذا كان السلطان عادلاً
عمرت الدنيا وأمنت الرعايا . . . وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا » .
ويقول الطرطوشي في نفس المعنى :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم . وكما أنه بالسلطان
العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد » .
ولكن من الإنصاف أن نذكر أن كتاب « الذهب المسبوك » للغزالي موجز .
فقد قسمه إلى سبعة أبواب تناول فيها أمهات المسائل ، أما كتاب « سراج الملوك »
للطرطوشي فكتاب ضخم مفصل قسمه إلى أربعة وستين باباً ، وقد تناول فيه كثيراً
من الموضوعات التي لم يعرض لها الغزالي في كتابه . وحصيلة الطرطوشي في سراج
الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية أغنى وأوفر
من حصيلة الغزالي في كتابه « الذهب المسبوك » .

١١ - والكتاب الحادي عشر هو « رسالة في تحريم الغناء واللهو على الصوفية
في رقصهم وسماعهم » .

وتوجد منه نسخة خطية وحيدة ضمن المجموعة التي تضم كتاب البدع
والحوادث في مكتبة مدريد تحت رقم ٥٣٤١ . وتشتمل على الصفحات من
١٠٤ إلى ١٢١ .

١٢ - والكتاب الثاني عشر هو كتاب « تحريم الاستمراء » .

وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة برلين تحت رقم ٤٩٨١ .

١٣ - والكتاب الثالث عشر هو كتاب « نزهة الإخوان المتحابين في الله » .

وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة جوتا تحت رقم ٩٠٩ .

١٤ و ١٥ - وهذان الكتابان هما :

رسالة العدة عند الكروب والشدة .

وحاشية على إثبات الواجب .

ر - ذكرنا في فهرس مكتبة استنبول ، الجزء الأول ، منسوبين للطرطوشي .

١٦ - كتاب الدعاء .

١٧ - كتاب النهاية في فروع المالكية .

١٨ - كتاب نفائس الفنون .

وهذه الكتب الثلاثة انفرد بذكرها حاجي خليفة في « كشف الظنون »
منسوبة إلى الطرطوشي .

١٩ - اختصار كتاب أخلاق رسول الله : والأصل لأبي محمد عبد الله

ابن جعفر بن حيان . ذكره ابن خير في فهرسه قال :

« كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن حيان ، اختصار

الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي - رحمه الله .

« حدثني به القاضي أبو بكر بن العربي - رحمه الله - قال : أخبرني به

شيخنا الإمام أبو بكر الطرطوشي - رحمه الله - به وبالأصل عن

أبي بكر المنيد الحافظ المعروف بابن الخاصبة . ولم يزد ابن العربي

- رحمه الله - على هذا في سند الأصل . وحدثني بالأصل المذكور الشيخ

أبو الحسين عبد الملك بن محمد الصدفي : قال : قرأت جميعه على الشيخ

الإمام أبي القاسم عبد الله بن طاهر التميمي ، حدثنا به عن أبي بكر

أحمد بن الحارث المقرئ عن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن حيان

- رحمه الله - ستة أجزاء .

٢٠ - جزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد .

ذكره ابن خير في فهرسه .

٢١ - ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الغنى والفقر .

ذكره ابن خير في فهرسه قال :

« ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الغنى والفقر . تولى جمعها الفقيه أبو بكر

الطرطوشي - رحمه الله - حدثني بها القاضي أبو بكر بن العربي

- رحمه الله - .

٢٢ - رسالة أبي بكر الطرطوشي إلى ابن تاشفين .

ذكرها ابن خير في فهرسه ، قال :

« رسالة الفقيه أبي بكر محمد الطرطوشي - رحمه الله - إلى ابن تاشفين ،

حدثني بها القاضي أبو بكر محمد بن العربي - رحمه الله - قراءة عليه

وأنا أسمع غير مرة ، قال : أخبرني بها أبو بكر الطرطوشي - رحمه الله - .
وهي رسالة طويلة في نحو عشر صفحات كتبها الطرطوشي إلى أبي يعقوب
ابن تاشفين يوصيه بتقوى الله وطاعته وإشاعة العدل بين رعاياه ، وحشد فيها الشواهد
الكثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأحداث التاريخية التي تتضمن
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والرسالة لحسن الحظ موجودة كلها في الجزء الذي لم ينشر من مخطوطة
« مفاخر البربر »^(١) وهي لمؤلف مجهول ، وفي ختام هذه الرسالة أوصى الطرطوشي
السلطان المرابطي أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بصديقه وتلميذه أبي بكر محمد
ابن العربي خيراً ، قال :

« والفقير أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواماً يدارس
العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به
ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراءه ، ثم رحل إلى العراق
فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء . وجمع من مذاهب العلم عيونها . وكتب
من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وروى صحيحه وثابته ،
والله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد
عليه يدك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ،
قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : " وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل
سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة " .

والحمد لله رب العالمين . والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ،
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين . وآله الطيبين الطاهرين
وسلم وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم^(٢) » .

والشبه كبير بين النصائح التي أوجهاها الطرطوشي للوزير الفاطمي الأفضل
شاهنشاه والتي ضمنها كتابه « سراج الملوك » والنصائح التي أوجهاها للسلطان

(١) أشكر الصديق الدكتور أحمد مختار العبادي فقد تفضل وأطلعني على صور شمسية من هذه
المخطوطة ، وعنها نقلت نص هذه الرسالة .

(٢) وقد عقب مؤلف « مفاخر البربر » على هذه الرسالة بقوله : " هكذا كانت سيرة العلماء مع
الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم " .

المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين فى رسالته إليه ، والطرطوشى فى نصائحه هذه وتلك هو هو لم يتغير: يمثل عالم الدين الجرىء الذى يرى من واجبه أن يتقدم لولى الأمر - مهما علت مكانته أو قوى سلطانه - بالنصح أن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وهذا طراز من العلماء نادر الوجود .

١٢

والطرطوشى بعد هذا كله أديب ممتاز ، وأسلوبه النثرى فى كتابه « سراج الملوك » أسلوب سهل ممتع جميل ، تزينه أحياناً بعض المحسنات البديعية كالسجع والجناس والتضمين وغيرها ، ولكنه لا يبالغ فى استعمال هذه المحسنات كما كان يفعل معاصروه من كتاب مصر بوجه عام ، ومن كتاب الإنشاء بها بوجه خاص ، فقد كانت المدرسة الأدبية فى مصر والشام فى العصر الفاطمى تغنى كلها بزركتة الأسلوب وتجميله وتطريزه بهذه المحسنات حتى أصبحت هذه الزركتة هى هدفهم الأول من الكتابة ، فطغى الأسلوب على المعنى . وأصبح للأسلوب المقام الأول وللمعنى المقام الثانى ، هذه المدرسة التى كان يقود زمامها كتاب الإنشاء فى العصر الفاطمى والتى بلغت ذروتها من الإتقان على أيدى العماد الأصفهاني والقاضى الفاضل لم يتأثر بها الطرطوشى كثيراً فى مؤلفاته النثرية . بل سايرها بقدر ، وجارها بحذر ، فجمّل أسلوبه بالمحسنات ، ولكنه لم يبالغ . فأتى أسلوبه كما قلنا سهلاً ممتعاً ..

وكان الطرطوشى إلى هذا شاعراً ولكن يبدو أنه كان مقلاً ، وقد روى هو فى كتابه سراج الملوك بعض هذا الشعر وروى عنه مؤرخوه بعضاً آخر ، وقد نقلنا فيما سلف أبياتاً من هذا وذاك ، والأبيات القليلة المتفرقة التى وصلتنا من شعر الطرطوشى تدل على أنه شعر وسط فلا هو بالجيد ولا هو بالردئ ، وهو يدور فيه حول موضوعات تتصل بالسماوات التى اتسم بها فى حياته ، فبعض هذا الشعر فى الزهد وقد عرفنا الطرطوشى عابداً زاهداً ؛ وبعضه صدى لانفعالاته وتجاربه فى الحياة ، وقد لاحظنا كيف يروى الكثير من تجاربه فى كتابه « سراج الملوك » ،

وبعضه في الغزل ولسنا نعرف شيئاً عن حياة الطرطوشي العاطفية نستطيع أن نحكم به إن كان هذا الشعر صادقاً أو كاذباً ، ولكن القطعتين اللتين بقيتا من شعره الغزلي تدلان في وضوح على أن الرجل كان ذا عاطفة مشبوبة ، وأنه أحسن لوعة الحب وألم بعد الحبيب ، وهما لهذا من أجمل ما قال من الشعر .

ومن شعره في الزهد قوله :

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
فَكُفُّوا فِيهَا ، فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً ، وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُبُقَنَا
وقوله :

اعْمَلْ لِمَعَادِكَ يَا رَجُلٌ ، فَالْنَّاسُ لَدُنْيَاهُمْ عَمَلُوا
وَادْخِرْ لِمَسِيرِكَ زَادَ تَقَى ، فَالْقَوْمُ بِلَا زَادٍ رَحَلُوا

وقال أيضاً في سكان الثرى ورهائن الترب والبلد :

مَقِيمٌ بِالْحِجُونَ رَهِينُ رَمْسٍ ، وَأَهْلِي رَائِحُونَ بِكُلِّ وَادٍ
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ لَمْ حَبِيبًا ، وَلَا كَانُوا الْأَحْبَةَ فِي السَّوَادِ
فَعُوجُوا لِلْسَّلَامِ ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأُوبُوا بِالْسَّلَامِ عَلَى بَعَادِ
فَإِنْ طَالَ الْمَدَى وَصَفَا خَلِيلٌ سَوَانًا ، فَادْكُرُوا صَفْوَةَ الْوَدَادِ
وَذَاكَ أَقْلٌ مَا لَكَ مِنْ حَبِيبٍ وَآخِرُهُ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ
فَلَوْ أَنَا بِمَوْقِفِكُمْ وَقَفْنَا سَقِينَا التَّرْبَ مِنْ مُهْجِ الْفَوَادِ

ومن الأمثلة على النوع الثاني من شعره الذي هو صدى لانفعالاته وتجاريبه

في الحياة قوله :

إِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مَرْسَلًا ، وَأَنْتَ بِإِنجَازِهَا مَغْرَمٌ
فَأَرْسَلُ بِأَكْمِهِ خَلَابَةً بِهِ صَمٌّ أَغْطِشُ أَبْصَرَ
وَدَعِ عَنْكَ كُلَّ رَسُولٍ سِوَى رَسُولٍ يُقَالُ لَهُ الدَّرْهَمُ

ومن شعره العاطفي هذه الأبيات ، وهي أجمل ما وصلنا من شعره :

أَقْلَبُ طَرَفِي فِي السَّمَاءِ تَسْرُدَا لَعَلِّي أَرَى النُّجْمَ الَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ
وَأَسْتَعْرِضُ الرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ ، لَعَلِّي بِمَنْ قَدْ شَمَّ عَمْرُفَكَ أَظْفُرُ

وأستقبل الأرواح عند هبوبها
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب ،
والمح من ألقاه من غير حاجة ،
لعل نسيم الريح عنك يخبر
عسى نغمة باسم الحبيب تذكر
عسى لمحة من نور وجهك تسفير

والمقطوعة الثانية من شعره العاطفى قالها يعارض بها شاعراً آخر ، فقد روى
المقرئ أن الطرطوشى سمع مرة منشداً ينشد قول الواو :
قمر أتى من غير وعد فى ليلة طرقت بسعد
بات الصباح إلى الصبا ح معانق خدداً يخذ
يمتسار فى ، وناظرى ما شئت من خمير وشهد

فقال الطرطوشى : أوطن هذا الدمشقى أن أحداً لا يحسن نظم الكذب
غيره ، لو شئنا لكذبنا مثل هذا ، ثم أنشد لنفسه يعارض :

قمر أتى من غير وعد حفت شمائله بسعد
قبلته ورشفت مآ فى فيه من خمير وشهد
فزجت صون السلسيل ل بزنجيل مستعد
ولثمت فاه من الغرو ب إلى الصباح المستجد
وسكرت من رشفى العقية ق على أناح تحت زبد
فزعت عن فاه فى ، ووضعت خدداً فوق خد
وشمت عرفت نسيمه ال جارى على مسك ونبد
وصحوت من ربا القرنف ل بين ريجان وورد
والذى من صلى به شكواه جداً مثل وجدى

١٣

أشاع الطرطوشى فى الإسكندرية نشاطاً علمياً وافراً ، وتلمذ عليه عدد كبير
من فقهاء الثغر وطلابه ، ونبغ من هؤلاء التلاميذ نفر من العلماء سيكونون عمدة
الحركة العلمية وشيوخها فى الإسكندرية فيما بعد ، برز من هؤلاء العلماء اثنان
سيكون لهما الشأن الخطير بعد وفاة الطرطوشى ، أما أولهما فهو سند بن عنبان ،

وقد خلف أستاذه الطرطوشى فى مدرسته ، وأما ثانيهما فهو أبو الطاهر بن عوف ، وقد اتخذ له مدرسة مستقلة ، وانتقلت إليهما معاً قيادة الحركة العلمية فى الإسكندرية بعد وفاة الطرطوشى ، وظلا يحملان لواءها سنين طويلة ، لهذا كان من الواجب أن نشير إليهما وإلى جهودهما العلمية بشئ من التفصيل وقد أفردنا لكل واحد منهما فصلاً خاصاً به فيما يلى .

١٤

وبعد ، فهذا فقيهما العالم الزاهد الثائر أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى ، وهذه هى سيرته العطرة ، وهذا هو نشاطه العلمى الوافر ، وهؤلاء هم بعض تلامذته النوايع ، والإسكندرية فى تاريخها العلمى تدين له ولهم بالشئ الكثير ، فقد أجمع الذين ترجموا له على وصفه بالعلم والزهد والفضل والجرأة ، وصفه ياقوت - نقلاً عن أبى الحسن المقدسى فى كتاب الرقيات - بقوله :

« هذا الذى نشر العلم بالإسكندرية وعليه تفقه أهلها » .

وكتب إليه القاضى عياض يطلب إجازته بجميع رواياته ومصنفاته فأجازه ، واعتبر لهذا من تلاميذه وإن لم يقابله ، ولهذا وصفه بأنه « الإمام الورع » .

وعبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى « بالأستاذ » .

وقال ابن فرحون فى ترجمته : « وانجلب إليه أكثر من مائتى فقيه مفت » .

ونعته السيوطى بأنه « أحد الأئمة الكبار » .

وقد توفى الطرطوشى فى التاسعة والستين من عمره فى ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠ هـ . وصلى عليه ولده محمد ودُفن فى مقبرة وعَلَّة .

وقد ظل قبره طوال القرون التالية حتى اليوم معلماً من أهم المعالم التى تعين الباحث على دراسة طبوغرافية المدينة ، فقد قال ابن خلكان :

« إن مقبرة وعلة كانت قريبة من البرج الحديد قبل الباب الأخضر ،

والباب الأخضر كان أحد أبواب الإسكندرية القديمة الهامة وكان يقع فى

الناحية الغربية من أسوارها» .

وقد زار قبر الطرطوشى كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا الإسكندرية بعد ذلك ، وكان آخر من نصّ على وجود القبر وزيارته له المقرئ صاحب كتاب « نفح الطيب » الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) فقد قال :

« ودفن قبلى الباب الأخضر بالإسكندرية وزرت قبره مراراً » .

ويبدو أنه كان قد بنى فوق ضريحه مسجد صغير ، وقد أشار إلى هذا المسجد على مبارك فى الجزء الخاص بمدينة الإسكندرية من كتابه « الخطط التوفيقية » ، فقال :

« مسجد الطرطوشى — صاحب سراج الملوك — كان متخرباً فأصلحه المرحوم السيد إبراهيم مورو سنة ١٢٧٠ ، وقد تمت إصلاحه وتنظيمه المرحومة والدة الجناب الخديو ، وهو الآن مقام الشعائر من الأوقاف » .

ومسجد الطرطوشى هذا لا يزال موجوداً حتى اليوم ، فإنك إذا سرت فى شارع الباب الأخضر — ويعرف عند السكندريين اليوم بشارع السكة الحديدية — إلى قريب من نهايته وجدت زاوية أو مسجداً صغيراً هو مسجد سيدى سند بن عنان تلميذ الطرطوشى ، وقبل هذا المسجد يوجد زقاق أو حارة صغيرة إذا دخلتها واتجهت إلى اليمين وجدت مسجداً آخر صغيراً هو مسجد سيدى أبى بكر الطرطوشى .

إذا دخلت هذا المسجد وجدت إلى اليسار مباشرة ضريحاً لسيدى على العقباوى وبجانب القبلة يوجد باب يفضى إلى غرفة مهمة إهمالاً عجيباً للأسف بها ضريحان ، الأول منهما لسيدى محمد الأسعد ، والثانى هو ضريح عالمنا الكبير سيدى أبى بكر الطرطوشى ، ومن المؤسف حقيقة أن يترك ضريح هذا العالم الكبير مهملاً هذا الإهمال ، تعلوه وتعلو المكان كله الأتربة ، وليس به أى شاهد أو لوحة رخامية تثبت اسمه وتاريخ وفاته ونبذة قصيرة عن سيرته ، فإلى إدارة الأوقاف بمدينة الإسكندرية وإلى محافظة الإسكندرية وأهلها الكرام نتوجه بالرجاء أن يعنوا بهذا المسجد وبنظافته وتجديده وبإثبات هذه اللوحة إحياء لذكرى هذا العالم الزاهد الثائر ، فهم بهذا يعنون بناحية مجيدة من تاريخ الإسكندرية ، رحم الله الطرطوشى وأسكنه فسيح جناته .

سند بن عنان

(١١٤٦ - ٠٠٠٠) - (٥٤١ - ٠٠٠٠)

« وجلس سند بن عنان لإلقاء الدرس
بعد الشيخ أبي بكر الطرطوشي ، وانتفع
الناس به »
ابن فرحون في « الديباج المذهب »

سند بن عنان

(٥٤١ - ٠٠) = (١١٤٦ - ٠٠٠)

انفرد بترجمته ابن فرحون في كتابه «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب» .
اسمه بالكامل : سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسين بن خلف
الأزدى ، ويكنى بأبي علي .

كان سند أنبغ تلاميذ الطرطوشي وأقربهم إليه ، وكان كأستاذه مالكي المذهب
وقد سمع منه ، ولازم حلقة سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده بل
قبس من أخلاقه وفضله ، ومن فلسفة الزهد التي أخذ الطرطوشي بها نفسه ، ولهذا
وصفه ابن فرحون بقوله :

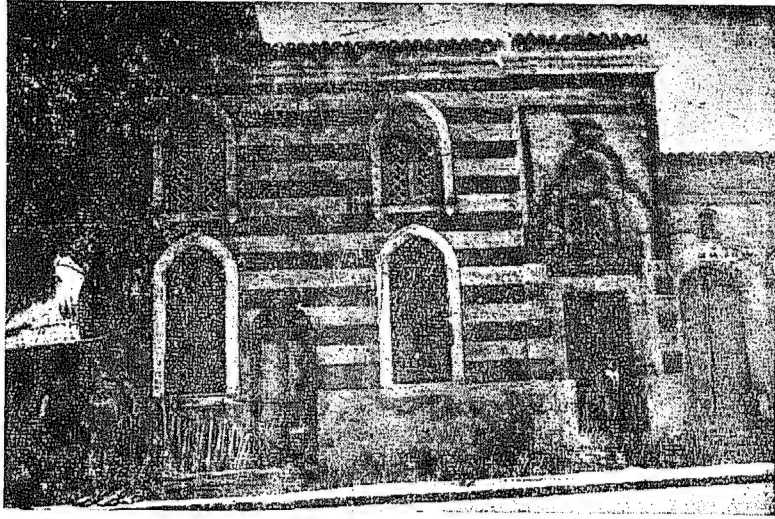
كان من زهاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه بالشيخ أبي بكر
الطرطوشي .

وقال تميم بن معين البادسي - وكان من الفقهاء - :
« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله : " اكتب
لي براءة من النار " فقال لي : " امض إلى الفقيه سند يكتب لك براءة " .
فقلت : " ما يفعل " ، فقال : " قل له بأمانة كذا وكذا " . فانتبهت ،
فمضيت إلى الفقيه سند ، فقلت له : " اكتب لي براءة من النار " ،
فبكي وقال : " ومن يكتب لي براءة من النار " ؟ ، فقلت له بالإمارة .
قال : فكتب لي رقعة » .

وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة :
« ولما أدركت تيمماً الوفاة أوصى أن تجعل الرقعة في حلقة وتدفن معه » .
وروى فقيه آخر هو أبو القاسم بن مخلوف بن عبد الله بن عبد الحق بن
جاره قال :

« أخبرني من أثق به أنه رأى الفقيه أبا علي سند بن عنان في النوم ، قال
فقلت له : " ما فعل الله بك ؟ " .

فقال : عُرِضْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي : أَهْلًا بِالنَّفْسِ الطَّاهِرَةِ الزَّكِيَّةِ الْعَالِمَةِ «
 ووصفه عالم مصر في القرن السابع الهجري هو تقي الدين بن دقيق العيد بقوله :
 « كان — أى سند بن عنان — فاضلاً من أهل النظر » .
 وكان سند بن عنان كأستاذه الطرطوشي يقول الشعر أحياناً ، وقد روى ابن فرحون
 بيتين من شعره ، قال : ومن نظم سند رحمه الله :
 وزائرةٍ للشيب حَلَّتْ بِمَفْرِقٍ فبادرَتْهَا بالتَّفْخِيمِ خَوْفًا مِنَ الْخُتْفِ
 فقالت : على ضِعْفِي اسْتَطَلَّتْ وَوَحْدَتِي؟ رويدك للجيش الذي جاء من خلفي
 واشتغل سند بن عنان بالتأليف ، ذكرت المراجع أنه ألف كتاباً ضخماً في
 شرح « المدونة » — وهي من أمهات الكتب في فقه مالك — وسمى سند شرحه هذا
 « الطراز » ، وكان في ثلاثين مجلداً ، غير أنه توفي قبل إتمامه .



مسجد سند بن عنان من الخارج

رشحت هذه المؤهلات جميعاً سند بن عنان لأن يخلف أستاذه الطرطوشي
 فجلس في حلقاته ومدرسته بعده يلقي الدروس في العلوم المختلفة ، وخاصة في فقه
 مالك ، قال ابن فرحون :

« وجلس - سند بن عنان - لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبي بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به » .

وظل سند بن عنان يدرس إحدى وعشرين سنة بعد وفاة أستاذه الطرطوشي إلى أن توفي سنة ٥٤١ هـ ، ودفن بالقرب من قبر الطرطوشي ، ولا زال مسجد سيدي سند بن عنان موجوداً حتى اليوم في شارع الباب الأخضر (أو شارع السكة الجديدة) بالإسكندرية .

أبو الطاهر بن عوف

إسماعيل بن مكي

(٤٨٥ - ٥٨١ هـ) = (١٠٩٢ - ١١٨٥ م)

أول أستاذ

لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية

محاضرة الأستاذية

ألقاها

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية

مارس سنة ١٩٥٧

أول أستاذ

لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية

مقدمة

السيد عميد كلية الآداب

حضرات الزملاء الأعزاء

أيها السادة والسيدات :

كلمتي الأولى في هذا المجال تحية طيبة مباركة أرفعها إلى روح أستاذنا الجليل
المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ الإسلامي السابق بهذه الكلية .
شغل الأستاذ رحمه الله هذا الكرسي عشر سنوات منذ افتتحت جامعة
الإسكندرية في سنة ١٩٤٢ إلى أن أحيل إلى المعاش في سنة ١٩٥٢ ، وقد بدأت
صلي به منذ أن كنت أتلمذ عليه في جامعة القاهرة ، ثم توثقت هذه الصلة بعد
تخرجي ، فكانت دائم التردد عليه ، والاتصال به والانتفاع بعلمه ، إلى أن رشخني -
رحمه الله - للنقل إلى جامعة الإسكندرية في سنة ١٩٤٣ والعمل معه ، وتحت
إرشاده أعددت رسالتي الماجستير والدكتوراه .

وأشهد أن الخطب كان فادحاً وأن الخسارة كانت كبيرة بفقد الأستاذ العبادي ،
أحس بها تلاميذه وأصدقائه ، وأحست بها الجامعات المصرية ، بل أحس بها العالم
العربي كله ، فقد فقدنا بفقدته مؤرخاً ثباتاً جليلاً كان له أثر خطير في تطوير
التاريخ الإسلامي ودراساته ، فقد كان التاريخ الإسلامي قبله حكاية تروى أو بيتاً من
الشعر ينشد ، أو نكتة طريفة يستشهد بها ، فكان هو أول من أخضع هذا الفرع
من فروع التاريخ لمنهج البحث العلمي الصحيح ، من رجوع إلى
المصادر الأصلية ، وفهم صحيح لنصوصها ، مع دراسة منهجية قائمة على النقد
والتحليل والمقارنة والاستقراء ، تشهد بذلك كتبه وأبحاثه ومقالاته ، وتشهد بهذا

دروسه ومحاضراته التي أفاد منها تلاميذه في مختلف الجامعات والمعاهد التي درس بها^(١). وإنى مع ألى وحزنى لفقد هذا الأستاذ الجليل لأشعر بالزهو أن قد رلى أن أشغل كرسيًا كان يشغله العالم الفذ المرحوم الأستاذ العبادى ، والله أسأل أن يوفقنى إلى ترسم خطاه ، واتباع منهجه وملء بعض الفراغ الذى تركه .

أما محاضرة اليوم فهي محاولة لإحياء تقليد قديم ، تقليد عرفته المدارس الإسلامية فى العصور الوسطى ، ثم عرفته الجامعات الأوروبية الحديثة ، وها نحن أولاء نحاول الأخذ به فى جامعاتنا المصرية الحديثة .

كان المتبع فى المدارس الإسلامية فى العصور الوسطى — وهى بمثابة الكليات الجامعية الحديثة — أن المدرس — وهو الأستاذ فى مصطلحنا الحديث — يحتفل بعد تعيينه بدرسه الأول احتفالاً خاصاً ، فيحسن اختيار موضوعه ، ويبدل الجهد فى إعدادده ، ويسارع الطلبة والعلماء إلى حضوره ، ويحرص على الاستماع إليه الصفوة من رجال الدولة ، بل قد يحضره السلطان نفسه أحياناً .

والجامعات الأوروبية الحديثة تفعل اليوم شيئاً شبيهاً بهذا ، فإن كل أستاذ يرقى إلى كرسي من الكراسى يلقى محاضرة خاصة تسمى محاضرة الأستاذية .

أما نحن فى جامعاتنا المصرية الحديثة فقد نسينا هذا التقليد القديم الحميد إلى أن فكر الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب فى إحيائه فى جامعة الإسكندرية ، وبدأ بكلية الآداب ، وشاء القدر أن أكون أول من رقى للأستاذية^(٢) فدعيت لإلقاء هذه المحاضرة ، محاضرة الأستاذية .

أيها السادة :

عندما دعيت لإلقاء هذه المحاضرة أخذتني الهيبة وتملكتني الرهبة ، فإن الهالة التي أحيطت بها المحاضرة جعلتني أفكر وأفكر طويلاً ، إنها محاضرة الأستاذية ، وسألت زملائي وإخواني عن التقاليد المتبعة فى الجامعات الأوروبية المختلفة ، وأى الموضوعات يختارها الأستاذ عادة عند إلقاء مثل هذه المحاضرة ؟

(١) درس رحمه الله فى الجامعات والمعاهد الآتية : كليات الآداب بجامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس ، الجامعة الأزهرية ، مدرسة المعلمين العالية ببغداد ، معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية .

(٢) رقيت إلى كرسي التاريخ الإسلامى فى ٤ يونيو سنة ١٩٥٦ .

وعلمت أن التقليد في بعض الجامعات أن يستعرض الأستاذ في محاضراته جهوده العلمية السابقة، ثم يشير إلى أبحاثه التي لا يزال يعمل لاستكمالها ، وعلمت أن التقليد في بعض الجامعات الأخرى أن يختار الأستاذ موضوعاً من الموضوعات التي يبحثها ويعرض في محاضراته النتائج التي وصل إليها .

ورأيت أخيراً أن أختار موضوعاً أجمع - أثناء عرضه - بين التقليدين ، واخترت أن أتحدث إلى حضراتكم عن :
أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية .

فهذا موضوع جديد لم يتعرض له أحد من قبل ، وقد وصلت فيه إلى نتائج أعتقد أنها تلقى أضواء جديدة على تاريخ التعليم في الإسكندرية بل في مصر كلها في العصر الإسلامي الوسيط .

والموضوع إلى هذا له صلات وثيقة بالجهود العلمية والأبحاث التاريخية المتواضعة التي قمتُ بها حتى الآن، فأنا عنيت في وقت ما بالتاريخ للترجمة والحركة الثقافية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) ومحاضرة اليوم وثيقة الصلة بالتاريخ الثقافي لمصر. ثم عنيت بعد ذلك بالتاريخ لبعض المدن المصرية في العصر الإسلامي ، فكتب تاريخاً مختصراً لمدينة دمياط^(٢) وتاريخاً موجزاً لمدينة الإسكندرية^(٣) وموضوع اليوم يبحث في لون من ألوان الحياة في مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي ، ويعرف بأول مدرسة إسلامية أقيمت فيها .

ومنذ سنوات طويلة أخذت نفسي بجمع الوثائق الرسمية لمصر الإسلامية ونشرها مع دراستها دراسة تحليلية مقارنة لبيان أهميتها كمصدر جديد من مصادر التاريخ الإسلامي^(٤) ومحاضرة اليوم ذات صلة وثيقة بهذا الميدان من ميادين البحث ، لأنني

(١) انظر : جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٥٠ ، نفس المؤلف : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٥١ .

(٢) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، الإسكندرية ١٩٤٩ .

(٣) جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم المصور إلى الوقت الحاضر ، القاهرة ١٩٥١ .

(٤) انظر : Shayyal (Gamal El-Din) : The Fatimid Documents as a Source for the History of the Fatimids and their Institutions, (Bulletin of the Faculty of arts, Alexandria University, vol. VIII, 1954, p. 1-12).==

اعتمدت فيها اعتماداً كبيراً على دراسة وثيقة رسمية من العصر الفاطمي هي سجل بتعيين هذا الأستاذ الأول لهذه المدرسة الأولى .

ومنذ عنيت بتاريخ الإسكندرية عنيت كذلك بالتاريخ لأعلام الفكر الإسلامي الذين عاشوا فيها ، وأنا الآن في سبيل إعداد كتاب^(١) يؤرخ لهؤلاء الأعلام ، وللحياة الفكرية في الإسكندرية في العصر الإسلامي بوجه عام ، ومحاضرة اليوم فيها تعريف مفصل بعلم من هؤلاء الأعلام ، وهو العالم المحدث أبو الطاهر بن عوف . وميدان آخر من الميادين العلمية التي بذلت فيها بعض الجهد هو ميدان نشر الأصول التاريخية القديمة التي تؤرخ لمصر الإسلامية في عصورها المختلفة وخاصة العصرين الفاطمي والأيوبي المملوكي ، فنشرت أربع كتب^(٢) لعميد مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقرئ ، ونشرت الجزئين الأول والثاني من كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب^(٣) لجمال الدين بن واصل ، ومحاضرة اليوم تلقى بعض الأضواء على تاريخ الإسكندرية في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي .

هذه هي الجهود العلمية التي بذلتها وما زلت أعمل فيها ، وهذه هي محاضرة

جمال الدين الشيال : الوثائق الفاطمية مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ص ١٩١ ، ٢٠٣ .
- نفس المؤلف : مجموعة الوثائق الفاطمية : الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .

(١) وهذا هو الكتاب بين أيدي القراء الكرام .

(٢) هذه الكتب الأربعة التي نشرتها تحت عنوان " مكتبة المقرئ الصغيرة " هي :

تقي الدين أحمد بن علي المقرئ :

١ - نخل عبر النخل ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢ - اتعاظ اخنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣ - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤ - إغاثة الأمة بكشف الغمة (بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٠ ، الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٥٧ .

(٣) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل :

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ ، والجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات وزارة التربية والتعليم المصرية ، إدارة الثقافة العامة ، إدارة إحياء التراث القديم) ، وأستطيع أن أضيف هنا أن الجزء الثالث وُلجِعَ في سنة ١٩٦١ .

اليوم ترون حضراتكم - كما سبق أن أشرت - أنها تتصل من أطرافها المختلفة بكل جهد من هذه الجهود .

أيها السادة :

بقى أن أذكر كلمة سريعة عن المصطلحين المذكورين في عنوان المحاضرة وهما : كلمة « أستاذ » وكلمة « مدرسة » ، فأستاذ كلمة فارسية الأصل معناها الماهر في كل صنعة ، وقد حُرِّفَتْ في اللغة العامية فأصبحت « أسطى » ، وذلك لأن اللغة العربية لا تعرف في ألفاظها الجمع بين السين والذال لصعوبة النطق بهما معاً ، وكل كلمة جمع فيها بين هذين الحرفين إنما ترجع في أصلها إلى اللغة الفارسية ، مثل كلمة « ساذج » التي خرفناها في اللهجة العامية كذلك إلى « سادة » . وقد أطلق لقب أستاذ^(١) في الأغلب الأعم على الجهابذة الأعلام من رجال الفكر والتعليم في العصر الإسلامي الوسيط ، ثم جُدد استعماله بهذا المعنى في جامعات مصر الحديثة .

أما المدرسة فهي مصطلح لم يعرفه العالم الإسلامي إلا في القرن الخامس الهجري (١١ م) ، فقد كان المسجد هو المعهد العلمي في العصر الإسلامي الأول ، في صحنه وفي أركانه تعقد حلقات العلم ويدرس الطلاب .

أما « المدرسة » باعتبار كونها مبنى مخصصاً للدرس يضم عدداً من الطلاب المتفرغين للدراسة ، وعدداً من المدرسين المتفرغين للتدريس ، على أن تكفل هؤلاء وأولئك الدولة أو مؤسس المدرسة ، فتصرف لهم الرواتب أو الجامكيات من إيراد أو وقف ثابت مخصص للمدرسة ، أقول إن مصطلح « المدرسة » بهذا المفهوم وبهذا المعنى لم يعرفه العالم الإسلامي إلا في القرن الخامس الهجري ، وخاصة عندما أنشأ نظام الملك - وزير السلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وملك شاه - مدارس النظامية ، وكانت أكبرها وأهمها نظامية بغداد .

(١) وقد استعمل هذا المصطلح في مصر في العصر الفاطمي بمعنى آخر ، فكان يطلق على كبار أمراء الجيش الذين يلون الوظائف الخاصة بالخليفة ، وكان الأساتذة على مراتب ، وأجلهم الأساتذة المحنكون ، وهم الذين يدورون عما همهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة ، وكان من عادتهم أنه إذا احتفل بتحنيك واحد منهم حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وسيقاً وفرياً ، فيصيح لاحقاً بهم ، وفي يده مثل ما في أيديهم . انظر : (صبح الأعشى ؛ ٣ ص ٤٧٧) .

ثم انتشرت حركة إنشاء المدارس في الشام على أيدي الأتابكة - وخاصة نور الدين محمود بن زنكي - ، وفي مصر وما يتصل بها من بلدان على أيدي الأيوبيين والمماليك .

والذي نحب أن ننبه إليه الأذهان أن المدارس إنما أنشئت أول ما أنشئت لدوافع سياسية مذهبية ، لمحاربة المذهب الشيعي أولاً ، وللدعوة للمذهب السني ثانياً ، ويكفي لنستبين صدق هذه النظرية أن نعرف أن السلاجقة مؤسسي هذه الحركة كانوا سنة مغالين في سنيهم ، وأن الدول التي أكملت الحركة ورعها وأنشأت العشرات من المدارس في كل ركن من أركان الشرق الأوسط الإسلامي كانت دولاً سنية كذلك .

بقي الآن بعد هذه المقدمة السريعة أن ننقل إلى موضوع المحاضرة .

أبو الطاهر بن عوف

أول أستاذ

لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية

المعروف المتواتر أن حركة إنشاء المدارس في مصر الإسلامية بدأت مع قيام الدولة الأيوبية فيها، وذلك حينما أسس صلاح الدين يوسف بن أيوب وأفراد أسرته وكبار رجال دولته المدارس المختلفة في القسطنطينية والقاهرة وغيرهما من مدن مصر . وكان صلاح الدين بإنشائه هذه المدارس يتبع سياسة موضوعة، وينفذ خطة مرسومة للقضاء على المذهب الشيعي، ونشر المذهب السني، مقتفياً في ذلك سياسة أستاذه نور الدين محمود بن زنكي، ففي سنة ٥٦٦ هـ أنشأ صلاح الدين - وهو بعد لا يزال وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد - مدرسته الناصرية^(١) الأولى في القسطنطينية لتدريس المذهب الشافعي، يقول المقرئ في حديثه عن هذه المدرسة : « وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة » ، ثم يعقب على هذا بقوله : « وهي أول مدرسة عملت بديار مصر » .

وهذه الحملة الأخيرة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح ، ذلك أن ابن خلكان يقول في ترجمته للعادل أبي الحسن علي بن السلار - وزير الظاهر الفاطمي - : (وكان ظاهر التسنن ، شافعي المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ، ثم صار العادل المذكور والياً به (أي بالثغر) ، احتفل به وزاد في إكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهي معروفة به إلى الآن ، ولم أرَ بالإسكندرية

(١) في نفس السنة التي أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة الناصرية ، بل في نفس الشهر (المحرم ٥٦٦) أنشأ مدرسة أخرى في القسطنطينية - وهي المدرسة القمحية - لتدريس المذهب المالكي ، ثم بنى بعد ذلك المدرسة السيوفية بالقاهرة في سنة ٥٧٢ هـ ، ثم حذا حذوه أمراء أسرته ورجال دولته ، فأنشأ ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه مدرسته التقوية - أو منازل العز - في القسطنطينية لدراسة المذهب الشافعي ، كما أنشأ مدرستين أخريين في الفيوم ، وبنى العادل أبو بكر - أخو صلاح الدين - مدرسته العادلية بالقسطنطينية وخصصها لدراسة المذهب المالكي ، وهكذا ، راجع (المقرئ : الخطوط ، ص ١٩٣ - ١٩٥) و (ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣ - ٩٤) و (ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٢) . و

مدرسة للشافعيين سواها^(١) .

ومن الممكن أن يقال - اعتماداً على نص ابن خلكان هذا - أن ابن السلار - لا صلاح الدين - هو أول من أوجد المدارس بديار مصر : وأن الإسكندرية هي أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، وذلك لأن ابن السلار كان - كما يذكر ابن خلكان - سنياً شافعيّاً ، كما كانت له اتصالات سياسية بنور الدين محمود ابن زنكي في الشام^(٢) .

ونحن نستطيع أن نقول إن قول ابن خلكان لا يزال يحتاج - كما احتاج قول المقرئى - إلى تحقيق وتصحيح .

حقيقة إن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، ولكن مدرسة السلفى لم تكن أول مدرسة أنشئت في الإسكندرية ، وإنما سبقها مدرسة أخرى هي المدرسة الحافظية التي أنشأها رضوان بن ولحشى - وزير الخليفة الحافظ الفاطمى - للفقهاء المالكي أبي الطاهر بن عوف ، وقد بنيت هذه المدرسة الحافظية قبل المدرسة السلفية باثنتي عشرة سنة ، فقد بنيت الأولى في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ - ١١٣٨ م) ، وبنيت الثانية في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

ورغم ما لهذه المدرسة الحافظية من أهمية بالغة ، لكونها أول مدرسة أنشئت في الإسكندرية ، بل في مصر كلها ، فإن أحداً من المؤرخين القدامى أو المحدثين لم يشر إليها أو يعنى بالتأريخ لها .

وأبو طاهر بن عوف هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتمى نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان

(١) (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ - ترجمة ابن السلار) وانظر أيضاً : عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي والملوكي الأول ، ص ٨٢ ، ١٥٨ و (المقرئى : مخطوطات أعطاء أخفنا : ص ١٤٣ ب) ، و لترجمة السلفى انظر : (السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطى : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ص ٣٩) و (السيوطى : طبقات المفسرين ، ص ٥٦) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ٤) و (ابن العماد : شذرات الذهب) .

(٢) انظر : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٧) ، ويقول (حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص ٢٩٦) إن النزاع بين ابن السلار وابن مصلح في سبيل الوزارة إنما كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعة ، وكان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السنى المنتصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة في مصر بدل مذهب الشيعة .

شيخ المالكية في مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجري (١٢ م) دون منازع ، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وتوفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطي بأنه (صدر الإسلام) ، وقال إنه تفقه على أبي بكر الطرطوشي^(٢) وسمع منه ، وتخرج به الأصحاب^(٣) .
وقال أبو الحسن علي بن الحميري .

(كان ابن عوف - رحمه الله تعالى - إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب مالك رحمه الله ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع إلى ذلك الورع والزهد ، وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس)^(٤) .
وقال عالم الإسكندرية ومؤرخها منصور بن سليم^(٥) :

(١) (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٠) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) .
(٢) راجع ترجمة الطرطوشي في : (ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٨) و (ابن بشكوال : كتاب الصلة ، مجريط ، ١٨٨٣ ، ج ٢ ، ص ٥١٧ - ٥١٨) و (المقرئ : نفح الطيب) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٥) و (ياقوت : معجم البلدان ، مادة : طرطوشة) و (الحميري : صفة جزيرة الاندلس - عن كتاب الروض المغطى في خبر الأقطار - ، نشر بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٢٤ - ١٢٥) و (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢) و (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) و (الزركلي : الأعلام) و (المقرئ : اتعاظ الخفا ، مخطوطة طوب قبو سراي ، ص ١٢٤ - ١٢٥) و (المرتضى الزبيدي : تحف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، المطبعة الميمنية ، ١٣١١ ، المقدمة) و (ابن عذاري : البيان المغرب ، ص ٧٤ - ٧٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٠) و (الضبي : بغية الملتبس ، رقم ٢٩٥) و (الطرطوشي : سراج الملوك) و (علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠) و (جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٧) ، والفصل الخاص بالطرطوشي فيما سلف هنا ، و
(M. Ben Chaneb : Etudes sur Les Personnages Mentionnés, dans l'Idjaza du Cheikh Abd Al-Qadir el Fasy, Paris 1907, p. 169-170).

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ .

(٥) هو أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمداني الإسكندري ، محتسب الإسكندرية ، ولد في ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ ، وأخذ عن الكثيرين ، ورحل إلى الشام والعراق ، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ ، وجمع لنفسه معجماً ، وكتب تاريخاً كبيراً لمدينة الإسكندرية ، ذكر السبكي والذهبي أنه كان في مجلدتين ، وذكر السخاوي أنه كان في أربع مجلدات ، توفي في الحادي والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ ، وتاريخه لمدينة الإسكندرية مفقود - للأسف الشديد - ، وقد كنت عثرت منذ سنوات في (قهaries المخطوطات العربية بمكتبة أيا صوفيا باستانبول ، ١٣٠٤ هـ) على ما يفيد وجود نسخة خطية من هذا الكتاب بهذه المكتبة في جزئين تحت رقمي ٣٠٠٣ و ٣٠٠٤ ، ويادرت في ذلك الحين بالكتابة إلى =

« كان (ابن عوف) من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السلفي ، وروى عنه شرف الدين ابن المقدسي ^(١) .
وبيت ابن عوف بيت مصرى سكندري أصيل ، نبغ فيه أكثر من عالم ملأوا المدينة علماً ، قال منصور بن سليم :

« وبیت ابن عوف بثغر الإسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال : سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة في وقت واحد ، وكانوا إذا دخلوا على الإمام أبي علي سند بن عنان ^(١) — مؤلف كتاب الطراز — يقول : « أهلاً بالفقهاء السبعة » ، تشبيهاً لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية ^(٢) .
وتذكر المراجع أن واحداً من أبناء أبي الطاهر بن عوف اشتغل بالتأليف ، واسم هذا الابن نفيس الدين أبو الحرم مكى ، وقد ألف شرحاً عظيماً على التهذيب لأبي سعيد البرادعي ، ويعرف هذا الشرح بالعوفية ، ويقع في ستة وثلاثين مجلداً ، قال ابن فرحون رواية عن شهاب الدين بن هلال :

« وكان يقيده على دروسه التي كان يلقيها في المدرسة العوفية .
وفهم من هذا أن الابن كان يدرس في مدرسة أبيه .

وقد ذكر ابن هلال أنه اطلع على مجلدة من مجلدات هذا الكتاب ، وأن نسخة كاملة منه كانت محفوظة في خزانة سلطان فاس بالمغرب ، قال :
« ولما قدم من المغرب ابنا الإمام أبي زيد وأخوه نسخاه ، وأنفقا على

= المستشرق الألماني ريتير Ritter وكان يقم حينذاك في استانبول — استوضحه حقيقة هذه المخطوطة ، ولكنه كتب إلى يقول إن الكتاب مفقود ، وإن الكتاب الموجود مكانه ، والذي يحمل رقمه ، هو « قصة الإسكندر الروماني وسياحاته ودخوله في الظلمة باحثاً عن ماء الحياة » ، وللتعريف بمنصور بن سليم راجع : (الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية وفيات سنة ٦٧٣ ، ص ٣٩٦) و (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٤ ، ص ٢٤٩) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤١) و (السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧) و (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٧) و (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٩) و (السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢) و (حاجي خليفة : كشف الظنون) و (الشيال : الإسكندرية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧) و (السلاوي : منتخب المختار ، نشر العزاوي ، بغداد ، ١٩٣٨ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١) و (Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. vol I, p. 573-574) .

(١) انظر الفصل السابق .

(٢) ابن فرحون : الندياج المذهب ، ص ٩٥ .

نسخه مالا عظيماً ، وهو الآن في خزانة سلطان فاس بالمغرب ، وبه نسخة وقف ، وهي التي بخط المؤلف ، أخذت في تركة ييبرس الحمدار نائب السلطنة بالثغر المحروس لما عُرِّل ، وبيعت بالقاهرة المحروسة ، فاشتراها قاضي القضاة الأنخائي المالكي ، وهو كتاب نفيس إلى الغاية ، ووقفت على مجلدة قد نسخت منها ، قبل إنها من تجزئة خمسين مجلداً في أسفار كبار ، فعددت خمسة كراريس ونصفاً في مسطرة سبعة وعشرين سطراً في الكلام على سجود التلاوة فقط (١) .

وأشارت المراجع إلى حفيد من أحفاد أبي الطاهر بن عوف ووصفته بالزهد والورع ، فقد ذكر المؤرخ الدمشقي أبو شامة في كتابه « الذيل على الروضتين » أن الشيخ الإمام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر المعروف بابن عوف « من ذرية عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن فقهاء الإسكندرية ومفتيها في مذهب مالك بن أنس — رحمه الله » ، وقال إنه وفد على دمشق — لشغل عرض له — وأنه وصلها يوم الثلاثاء تاسع شعبان سنة ٦٢٦ هـ ، واستطرد فقال إنه اجتمع به ، قال :

« واجتمعت به الغد من مجيئه بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبي عمر ، وحكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً — كصيام داود عليه السلام — ، وأتى معه بدقيق من الإسكندرية ، فلم يزل يأكل منه حتى رجع لا يتناول غيره (٢) » .

وقد أخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالإسكندرية ، وخاصة عن أبي بكر الطرطوشي ، ولا عجب في هذا ، فقد كان ابن عوف ربيب الطرطوشي ، وكان الطرطوشي تزوج خالة ابن عوف (٣) .

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين في مصر في سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين الإسكندرية في سنة

(١) ابن فرحون : الديباج ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين : القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٥٦ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .

٥٧٧ هـ ، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبي الطاهر بن عوف ، وسمعوا عليه جميعاً « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشي .

روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهاني ، فقد كان مصاحباً لصلاح الدين فيهما ، قال :

« وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة وخيَّم عند السواري ، وشاهد الأسوار التي جددتها والعمارات التي مهندما ، وأمر بالإتمام والاهتمام ، وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده ، وسمعنا عليه موطأ مالك - رضى الله عنه - بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخيرة من شوال ، وتمَّ له ولأولاده ولنا به السماع ^(١) .

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصل خيراً كثيراً بتلميذه على ابن عوف وسماعه منه ، فقد أرسل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يبينه فيها بهذا السماع ، ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ، ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك ، وفيما يلي نص الرسالة :

« أدام الله دولة المولى الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه ، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه ، ولله في الله رحلتاه ، وفي سبيل الله يوماه : وما منهما إلا أغر محجل .

والحمد لله الذي جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت عكاه ، وفي الأول يطلب حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فيجعل أثره عيناً لا تستر ، وفي الثاني يحفل

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

لنصرة شريعة هداة على الضلال فيجعل عينه أثراً لا يظهر .
وقد استغرق الناس هم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه ، والموالة
في طلب ثقته وانتجاعه ، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض
للهم والتنبية ، والرفع من أقدار أهله والتنويه ، فقالوا : رحل فلان لسماع
مسند فلان ، وسار زيد إلى عمرو على بُعد المكان ، هذا وصاحب الرحلة
قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ، فلا يتجاذب
عنان همته الكبائر فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة ، وأمور خلق
الله كأمر دينه به معذوقة ، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته ،
وترك للعلم أشد ضروراته ، وهب له أياماً مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه
على لحظاته وساعاته .

وما يحسب الملوك أن كاتب اليمين كتب للملك رحلة في طلب العلم
إلا للرشد هارون — رحمة الله عليه — ، على أنه خلط زيارة نبوية^(١)
بطلب ، ورحل بولديه إلى مالك — رحمة الله عليه — لسماع هذا الموطأ ،
الذي اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه ، والرحلة
لانتجاعه ، وقد كان الرشيد سام مالكاً — رحمه الله — أن يجعل له ولولديه :
الأمين والمأمون مجلساً خاصاً لإسماع مصنفه ، فقال له ما معناه : إنها سنة
ابن عمك — صلى الله عليه وسلم — ، وغيرك من سترها ، ومثلها من
نشرها ، فهذه رحلة ثانية في الزمان ، وأولى في الإيمان ، يكتبها الله للمولى
بقلم كاتب اليمين ، ويقوم فيها مقام الرشيد ، ويقوم عليه وعثمانه^(٢) مقام
ولديه المأمون والأمين . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله
عليه — في خزانة الكتب المصرية^(٣) فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية

(١) الأصل : زيادة نبوته ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) يقصد ولدى صلاح الدين : الأفضل على ، والعزير عثمان ، فهما اللذان كانا معه في هذه الرحلة
وسمعا معه الموطأ على ابن عوف ، وكان عمر الأول وقتذاك اثني عشرة سنة ، فقد ولد سنة ٥٦٥ هـ ، وكان
عمر الثاني عشر سنوات ، فقد ولد سنة ٥٦٧ هـ انظر (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦)
(ابن تغري بردى : النجوم ، ج ٦ ، ١٢٧) و (المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ و ١٩١) .

(٣) يقصد خزائن الكتب الفاطمية التي كانت ملحقة بالقصر الشرق الكبير ، وقد استولى عليها
صلاح الدين فيما استولى عليه من ذخائر الفاطميين ومخلفاتهم ، وقد منح بعض هذه الكتب لخاصته ، وأمر =

فهو بركة عظيمة ، ومنقبة كريمة ، وذخيرة قديمة وإلا فليلتبس .
وكذلك خط موسى بن جعفر في فتيا المأمون - رحمهما الله - كان
أيضاً فيها ، وكلاهما يتبرك بمثله ، ويعلم به فضل العلم ، لا خلا المولى
- أبقاه الله - من فضله .

وقف المملوك على ما بشر من صنع المولى وتوفيقه ، وصحة مزاجه في طريقه ،
وانقطاع ما كان من دم ، واسترواح القلب من كل هم ، وقد استفتحت
هذا الطريق بكل قال ، مباركة البكر والقال ، مأثورة عن سيد البشر ،
فمن ذلك صحة جسمه ، فلهذه الصحة ، وفسحة قلبه ، دامت له الفسحة ،
وانقطاع الدم ، وطريقه إلى الشام ينقطع بها الدم ، ويتصل النصر له
ويتنظم السلم ، وأخرى أنه رحل إلى الموطن رحم الله مالكة ، ويرحل فيما يطلب
من الشام إلى الموطن أسعد الله به ممالكه ، والله تعالى يحقق الخير ، ويصرف
الضير ، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله »^(١) .

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة ، يحله
ويحترمه ، ويقدره ويوقره ، وإذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل
إليه يسأله الرأي والفتوى ، يؤكد هذا قول ابن فرحون :

« وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله
ويستفتيه » .

وقد روى الصفدى في كتابه « نكت الهميان » قصة مراسلة من هذه المراسلات
عند ترجمته للقاضي شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون ، فقد أضر هذا القاضي
آخر عمره أثناء توليه القضاء ، وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته
بالعمى ، وكان ابن أبي عصرون نفسه حريصاً على أن يظل قاضياً ، فألف رسالة
أيد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى ، وهو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه

== يبيع الباقي ، والنص هنا يفيد حقيقة جديدة لم يشر إليها أحد من كتب عن هذه الخزانة ، وهي أن صلاح
الدين ضم بعض هذه الكتب إلى خزانة الكتب الخاصة به ، ويسمى النص هنا « الخزانة الناصرية » ،
وعن خزانة الكتب الفاطمية انظر : (المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥) و (ابن واصل :
مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

الكثرة : ويبدو أن صلاح الدين كان حريصاً على إرضاء ابن أبي عصرون وعدم المساس بشعوره في شيخونته ، فأرسل يستنقئ ابن عوف في الأمر ، قال الصفدي : « وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه : إن القاضي قال : إن قضاء الأعمى جائز ، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر ابن عوف الإسكندري ، وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى »^(١) . وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته ، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر : وهي ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية ، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر ، قال ابن فرحون :

« وقيل إنه (أى ابن عوف) كان السبب في تجديد الصادر^(٢) بثغر الإسكندرية : وهو شيء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صعدوا من الإسكندرية ، زائداً على العشر ، رتبته لفقهاء الثغر دنائير تصرف في كل شهر ، وجعل له ناظراً وشهوداً : أوقفه عليهم وعلى ذريتهم »^(٣) . وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف ، فقد قال السيوطي : « وله مؤلفات » ، وقال ابن فرحون : « وله مصنفات » ، ثم أشار إلى اثنين من هذه المصنفات ، قال :

« قال ابن هلال : رأيت له مجلداً في الرد على المتنصر ، وهو رجل

(١) الصفدي : نكت الهميان ، ص ١٨٥ ، وراجع أيضاً مقدمة الكتاب ص ٦٠ فقد ناقش فيها هذا الموضوع من الناحية الفقهية ، انظر كذلك : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩) و (ابن واصل : مفرج الكروب : نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ١١٢) .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٦ ، هذا وقد كان في الإسكندرية في تلك العصور ساحة أو مخازن كبيرة لتجارة الفرنج الصادرة مقابل الميناء الشرقية ، وتسمى هذه الساحة بالصادر وقد أشار إلى الصادر المؤلف السكندري محمد بن القاسم بن محمد النويري في كتابه الذي لا يزال مخطوطاً : « الإلمام بالأعلام بما جرت به الأحكام المقضية » عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شيبان عند زيارته للإسكندرية في سنة ٧٧٠ هـ فهو يقول إن السلطان بعد دخوله من باب رشيد سار فيما كان يسمى وقتذاك بالحجة العظمى ، وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالي أو الطريق الكافوي القديم - ، ثم مر بمسجد أبي الأشهب وعطفت عطفته فر على دار ابن الجباب ومنها إلى جفار التصارين إلى الصادر إلى أن خرج من باب البحر ، فالصادر تبعاً لهذا كان قريباً من باب البحر : أى قريباً من منطقة المنشية الحالية ومن الميناء الشرقية . راجع : (الشيال الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٣٧) .

يدعى العلم وليس من أهله ، صنّف كتاباً أسماه : « الفاضح » وأعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيها تناقضاً في الأحكام ، وكان جاهلاً مصحفاً ، فما صحّف قوله - صلى الله عليه وسلم - « ثمرة طيبة وماء طهور » بقوله « ثمرة طيبة » ، وقال : انظر كيف يقول « ثمرة طيبة » وهو يحرم شرب الخمر .

وللشيخ أبي الطاهر تذكرة التذكرة في أصول الدين ، وغير ذلك من التأليف^(١) .

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فلم أجد إشارة لها إلا عند المقرئى ، فقد قال في كتابه « اتعاط الحنفا » في حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة في ثغر الإسكندرية ، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف^(٢) .

فتكون بذلك أول مدرسة أنشئت في مدينة الإسكندرية ، بل في مصر كلها ، فقد سبقت المدرسة السلفية بأثنى عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ في « صبح الأعشى » على السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى بتعيين ابن عوف مدرساً لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى لأنه السجل الوحيد الذى وصلنا من العصر الفاطمى كله بتعيين مدرس ، وهو إلى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً .

— فهو يسميها « بالمدرسة الحافظية » نسبة إلى الخليفة الحافظ الذى أنشئت المدرسة في عهده ، وإن كانت المدرسة بعد ذلك قد غلبت عليها شهرة مدرستها فعرفت في المراجع المتأخرة باسم « المدرسة العوفية^(٣) » .

وهو يحدد اسم الشارع الذى أنشئت فيه المدرسة وهو « شارع المحجة » فقد قال : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر الخروس بشارع المحجة » .

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : اتعاط الحنفا ، مخطوطة سراى ، ص ١٣٨ ب .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .

وقد حثتتنا فيما سلف هنا موقع هذا الشارع اعتماداً على نص للزويرى ذكر فيه شارع المحجة ، ورجحنا أنه شارع فؤاد الأول الحالى^(١) .

— وهو يذكر أن الوزير السيد الأجل (ولم يذكر اسمه) هو الذى أشار بإنشاء المدرسة ، ويشير إلى الأسباب التى دعت إلى إنشائها فيقول :

« ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور . . وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه أو الطائرين عليه ، منتشر الشمل ، ومتفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلذذين ، ولم يرض أن يبقوا مذبحيين متبذيين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس منّا عليهم وإنعاماً ، ومستقراً لهم ومقاماً ، ومشوى لجميعهم ووطناً ، ومحلاً لكافهم وسكناً » .

ويشير السجل أيضاً إلى أن المدرسة بنيت بحيث تتخذ — إلى جانب التدريس — مأوى للطلاب وسكناهم ، فهى قد جعلت كما يقول النص : « مئوى لجميعهم ووطناً ، ومحلاً لكافهم وسكناً » .

ونص فى السجل أيضاً على أن يصرف للطلبة مئنتهم وكل ما يقوم بأودهم ويعينهم على التفرغ للدراسة « من عيش وغلة » ، وأن يطلق هذا كله من ديوان الخليفة .

... وأشير فى السجل إلى إسناد التقدمة إلى المدرسة . أى الإشراف عليها للفقير الرشيد جمال الفقهاء أبى الطاهر (ولم ينص على اسمه) ، وعلى هذا الاختيار مخاطباً الفقيه بقوله :

« لنفاذك وإطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدر فى علوم الشريعة ، والحال منها فى المتزلة الرفيعة ، والمشعل الذى اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقوى » .

(١) انظر مافات هنا ص ١٢٠ ، هامش ٢ .

وحدّد السجلّ الموادّ التي تدرس بهذه المدرسة ، فقال إنّها « علوم الشريعة » .
وعهد السجل إلى الفقيه ابن عوف - إلى جانب التدريس - بالإشراف
النّام على شئون الطلاب ، وتوزيع المطلق عليهم ، وترك له الحرية التامة أن يقرب
منهم من ارتضى طريقته ، وأن يبعد من ينكر قضيته .

ثمّ هو يوصى كبار الموظفين بالثغر من « الأمير المظفر » والقاضى
المكين ، وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين برعاية هذه المدرسة ،
ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ،
والتوخى على منافعهم » .

وفى ختام السجل نصّ طريف يشير إلى أن الأمر بتعيين المدرسين كان
يُتلى أولاً على الكافة بالمسجد الجامع ، فهذه هى طريقة الإعلان والنشر الممكنة
فى تلك العصور ، ثمّ يخلّد هذا السجل - أى يُحفظ - بالمدرسة ، ليكون « حجة
بما تضمنه » .

فهذه كلها أمور هامة خطيرة تقدم مادة جديدة قيمة للباحثين الذين يريدون
تأريخاً جديداً نافعاً للمدارس الإسلامية ، أو لنظام التربية والتعليم بوجه خاص فى
مصر الإسلامية .

والسجل كما أورده القلقشندى فى « صبح الأعشى » ذكر على أنه « سجل
بتدريس » ولم ينصّ على اسم الخليفة ، أو الوزير ، أو المدرس الذى صدر
الأمر بتعيينه ، وكاتب الإنشاء الذى كتبه ، أو التاريخ الذى كتب فيه .
وقد استطعنا نحن - عن طريق الدراسة التاريخية التحليلية المقارنة - أن نملأ
هذه الثغرات ، وأن نقول مطمئنين إنه صدر عن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين
الله ، بإشارة من الوزير رضوان بن ولخشى ، بتعيين الفقيه أبى الطاهر بن عوف
مدرساً للمدرسة الحافظية بثغر الإسكندرية .

ففى السجل إشارة غامضة تشير إلى أنه صدر فى عهد الحافظ ، فقد جاء فى
صدر السجل : « أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التى جعلته لدينه
حافظاً » وجاء فى السياق : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية » .

أما الوزير الذى أشار ببناء المدرسة فإن اسمه لم يذكر صراحة فى السجل ،

وإنما ذكر بألقابه ، فتبيل : « السيد الأجل الأفضل » : وقد تحققنا أن هذه ألقاب رضوان بن وحشى ، فقد قال المقرئى فى حوادث سنة ٥٣١ هـ عند حديثه عن تولى رضوان الوزارة للحافظ : « وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل (١) » .

أما الدافع الذى دفع الوزير رضوان إلى إنشاء هذه المدرسة الأولى لابن عوف الفقيه السنى المالكى فواضح غاية الوضوح ، وذلك أن رضوان نفسه كان - رغم وزارته لخليفة فاطمى شيعى - سنياً ، قال المقرئى فى ترجمته له : « وكان رضوان سنياً حسن الاعتقاد (٢) » . وقال فى موضع آخر : « وأخذ (رضوان) يبين حواشى الخليفة إذا حضروا إليه ، ويقدم فى مذهبه ، لأنه كان سنياً ، وكان أخوه الأوحى إبراهيم إمامياً (٣) » .

وجاء فى السجل إشارة إلى أن المدرس المقصود هو أبو الطاهر بن عوف ، وإن كانت قد ذكرت كنيته دون اسمه ، قال : « واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة

(١) المقرئى : مخطوطة اتعاظ الخنفا ، ص ١٣٧ ب ، هذا وقد أشار (أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٤) إلى السجل موضوع الدراسة هنا ، ونفى أن يكون صدر لتعيين السلى ثم قال : "والسجل يدل على أن الحافظية أنشئت فى عهد الوزير أحمد بن الأفضل ، وهذا خطأ واضح أدى إليه عدم التحقيق أو التثبت " .
(٢) المقرئى : المرجع السابق .

(٣) المقرئى : المرجع السابق ص ١٣٨ ، هذا ويبدو أن رضوان كان عظيم الثقة بأبى الطاهر ابن عوف ، يلجأ إليه فى المهمات ، ويستشره فى المشكلات الكبرى ، فقد استطرد المقرئى يروى أخبار النزاع القائم بين الخليفة الحافظ ووزيره رضوان قال : « فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة فتناظر كل منهما من الآخر ، وكان رضوان تخفيفاً طائشاً لا يثبت ، فهم بخلع الحافظ وقال : " ما هو بخليفة ولا إمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح " ، وأحضر الفقيه أبى الطاهر بن عوف وابن أبى كامل فقيه الإمامية ، وابن سلامة داعى الدعاة ، وفأوضحهم فى الخلع واستخلاف شخص عينه لهم ، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده ، فقال ابن عوف : " الخلع لا يكون إلا بشروط تثبت شرعاً " . وقال ابن أبى كامل " السلطان - أبقاه الله - يحملنى على أن أتكلم على غير مذهبي فى الإمامة ؟ " قال : " لا ، بل على مذهبك " .

فقال : " مذهبي معلوم " يعنى أن الإمامية لا يعتقدون فى صحة الخلافة فى بنى إسرائيل بن جعفر ، لموته فى حياة أبيه ، وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته ، ولأنه لا ينبغى لمن لم تكن له إمامة أن يتخلع ، فخلص من هذا .

وقال الداعى : " أنا داعى القوم ومولى لهم ، وما يصح لى خلعه ، فإنى أصير فيما مضى كأنى أدعو لغير مستحق ، فأكون قد كذبت نفسى ، فلا أقبل الآن ، واستخصم بذلك ، ولا يؤثر قولى فيما تريدون ، ولم تجر العادة على الفاطميين بالخلع حتى تتأسى به " .
فقابله على هذا القول بالسب ، وأقامه أتبج قيام . . . إلخ » .

لث أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر^(١) .
وقد كانت الحملة التي ذكرها المقرئ عن إنشاء المدرسة هي المفتاح الذي
هدانا إلى هذا التحقيق كله ، فقد قال في حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة في ثغر الإسكندرية ، وجعل
في تدريسها الفقيه أبا الطاهر بن عوف^(٢) » .

أما كاتب الإنشاء الذي كتب هذا السجل فإننا نرجح أن يكون أبو القاسم
ابن الصيرفي ، فقد كان كاتب الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ ، وكتب عدداً
كثيراً من السجلات التي وصلتنا عن عهد هذا الخليفة ، وظل يتولى هذا المنصب
إلى أن توفي سنة ٦٤٢ هـ .

وفي سنة ٥٨١ هـ توفي ابن عوف ودفن في الإسكندرية ، ولكننا نبحت اليوم
عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لهما أثراً ، وهكذا فعل النسيان والإهمال بعالم
ملأ المدينة علماً وقضى حياته الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس ،
فهل لي أن أطمع في أن يسمى مدرج من مدرجات المبنى الجديد لكلية الآداب
باسم هذا العالم « ابن عوف » .

ولأهمية السجل الصادر بتعيين أبي الطاهر بن عوف مدرساً لأول مدرسة
أنشئت في مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي آثرنا نشر نصه كاملاً فيما يلي
نقلاً عن : (القلقشندي صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩) .

(١) يشترك الحافظ أحمد بن محمد السلي مع ابن عوف في الكنية ، فكل منهما يكنى بأبي طاهر
ولهذا ظن البعض أن هذا السجل صدر باسم أبي الطاهر السلي ولتعيينه بالمدرسة التي أنشئت له بثغر
الإسكندرية أيضاً في أواخر العصر الفاطمي ، ولكن المدرسة السلفية أمر بإنشائها الوزير العادل ابن
السلار في سنة ٥٤٤ هـ في عهد الخليفة الظافر ، وسميت أول أمرها بالمدرسة العادلية ، ثم عرفت فيما بعد
باسم المدرسة السلفية ، راجع : (المقرئ : مخطوطة اتماظ الحنفا ص ١٤٣ ب) .

(٢) المقرئ : مخطوطة اتماظ الحنفا ، ص ١٣٨ ب .

سجل بتدريس

« . . . أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التي جعلته لدينه حافظاً ، ولصالح أمور المسلمين ملاحظاً ، ولما عاد بشمول المنافع لهم موافقاً ، وبما أحظاهم عنده تبارك وتعالى معيناً وعليه مثابراً ، لا يزال يوليهم إحساناً وفضلاً ومنناً ، ويسبغ عليهم إنعاماً لم تزل تسم (٢) همهم إلى أن تتمنى ، وقد يسر الله تعالى لخلافته ودولته ، ووهب لإمامته ومملكته ، من السيد الأجل الأفضل ، أكرم ولياً ضاعف تقواه وإيمانه ، وأكمل صنيءً وقف اهتمامه واعتزاه ، على ما يرضيه سبحانه ، وأعدل وزير لم يرض فى تدبير الكافة بدون الرتبة العليا ، وأفضل ظهير ابتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا ، فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عم صلاحه وعموم الهوى ، ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضمائر بما يرفع فيه من صالح الدعاء .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور ، فإنه خليق بعناية تامة لا تزال تنجد عنده وتغور : لأنه من أرقى الحصون والمعقل ، والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ، وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وإن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطائرين عليه ، متشتمو الشمل متفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلذذين ، ولم يرض لهم أن يبقوا مذنبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منّا عليهم وإنعاماً ، ومستقرّاً لهم ومقاماً ، ومثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلاً لكافهم وسكناً .

فجدد السيد الأجل الأفضل — أدام الله قدرته — الرغبة إلى أمير المؤمنين فى أن يكون ما ينصرف إلى مؤونة كل منهم والقيام بأوده ، وإعانتة على ما هو بسيله وبصدده ، من عيّن وغلة مطلقاً من ديوانه ،

واستفد أمير المؤمنين المثوبة في ذلك ، فأجابه جرياً على عادة إحسانه .
واستقرت التقدمة في هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء

أبو الطاهر : لنفاذك وإطلاعتك ، وقوتك في الفقه واستضلائك ، ولأنك
الصدر في علوم الشريعة ، والحال منها في المنزلة الرفيعة ، والمشتغل الذي
اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف في المسائل والنوازل كان
إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقوى ، وأن مجاريك
لا يكون إلا ناكصاً على عقبه مخففاً ، وأمر أمير المؤمنين أن تدرّس علوم
الشريعة للراغبين : وتعلّم ما علّمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين
والطالبين ، وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شداً لأزرك ، وتقوية
لأمرك ، ورفعاً لذكرك .

فأخلص في طاعة الله سرّاً وجهراً ، فإنه تعالى يقول في كتابه : « ومن
يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .

واعتمد توزيع المطلق عليهم وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدي اجتهادك
إليه ، ويوقفك نظرك عليه ، وقرب من ارتضيت طريقته ، وأبعد من
أنكرت قضيته ، فقد وكل ذلك إليك ، وعدق بك من غير اعتراض فيه
عليك .

فمن قرأه وقرئ عليه من : الأمير المظفر ، والقاضي المكين — أدام الله
تأييدهما — ، وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين ، فليعتمد
رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال
عليهم ، والاهتمام بتصلحهم : والتوخى على منافعهم .
وليُتَمَلَّ هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع ، وليُخَلَّد بهذه المدرسة
حُجَّة بما تضمنه ، إن شاء الله عز وجل .

الحافظ السلفي

صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد

ابن محمد بن إبراهيم سلفي

(٤٧٥ - ٥٧٦ هـ) = (١٠٨٢ - ١١٨٠ م)

« كان - السلفي - حافظاً جليلاً ، وإماماً كبيراً ،
واسع الرحلة ، ديناً ورعاً ، حُجَّةً ثبَتاً ، فقيهاً
لغويّاً ، انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان » .
السبكي

الحافظ السلفي ومدرسته في الإسكندرية

١

الحافظ السلفي علمٌ من أعلام الفكر الإسلامي : لا تُذكر الإسكندرية في العصر الإسلامي إلا ذكر معها ، فقد كسب هذا العلمُ مجداً علمياً طبق ذكره الآفاق ، ونالت الإسكندرية النصيب الأكبر من هذا المجد ، فقد كان العلماء يشدون الرحال إليه من كل حذب وصوب ، من المشرق ومن المغرب ، يأخذون عنه ويستمعون إليه ، ويتلمذون عليه ، وبذلك أصبحت الإسكندرية طول مدة إقامته بها كعبة يحج إليها طلاب العلم ، وعلم الحديث بوجه خاص .
لم يكن هذا العالم مصري الأصل ، أو سكندري المنبت ، ولكنه كان فارسياً ، ولد بمدينة أصبهان ، ومع هذا اعتبر عند مؤرخيه مصرياً سكندرياً : فقد أقام في الإسكندرية معظم سني حياته ، وفيها نضج فكره وذاع ذكره : وفيها كتب معظم مؤلفاته .

وهكذا نرى أن الإسكندرية أصبحت في أواخر القرن الخامس الهجري وطوال القرن السادس كعبة العلماء ، وموئل الفقهاء ، يقدون إليها من الشرق ومن الغرب ، فقد وفد إليها من قبل الفقيه المالكي والعالم الزاهد الثائر أبو بكر الطرطوشي من أقصى المغرب ، من مدينة طرطوشة بالأندلس : وفي نفس الوقت تقريباً وفد إليها السلفي من أقصى الشرق ، من أصبهان ببلاد فارس .

أدرك الحافظ السلفي أبا بكر الطرطوشي أثناء مقامه بالإسكندرية ، وعاش معه وعاصره فيها تسع سنوات ، فقد وفد السلفي إلى الإسكندرية في سنة ٥١١ هـ ، والطرطوشي توفي بها سنة ٥٢٠ هـ ، وبعد وفاته عاصر السلفي عدداً من تلاميذ الطرطوشي ، وبخاصة أبا الطاهر بن عوف ، وسند بن عنان ، فكانوا جميعاً قادة الفكر والحركة العلمية في الإسكندرية في الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

ولا يُذكر اسم السلفي إلا مسبقاً بلقب الحافظ ، وهو لقب يطلق على علماء الحديث المبرزين فيه ، وكان علم الحديث يحتل مكان الصدارة بين العلوم التي كان يعنى بها المجتمع الإسلامي في تلك العصور ، وهى العلوم الدينية بجميع فروعها من فقه وتفسير وقراءات وتصوف وغيرها .

والعناية بهذه العلوم الدينية جميعاً ، وفي مقدمتها علم الحديث في تلك العصور كانت أمراً طبيعياً ، فقد كان العالم الإسلامي يعيش على بركان من الفتن والقلاقل والحروب ، وكان أهم ما يهدد كيانه الحروب الصليبية وهؤلاء الأقوام الذين أتوا من أوروبا في حشودهم وجموعهم عبَّروا البحر الأبيض المتوسط يقطعون من الدولة الإسلامية خير أراضيها ، ويحاولون القضاء على استقلالها واستعباد أهلها ، وكان رد الفعل القوي لهذه الحركة الخطيرة الدعوة إلى الجهاد لاستنقاذ الوطن الضائع واستعادة الاستقلال المسلوب ، وكان لا بد لإعداد الناس لحركة الجهاد من تعيّنهم تعبئة روحية قوية ، وكانت الأساليب التي اتبعت لهذه التعبئة هى العودة بأفكار الناس إلى العصر الإسلامي الأول وأمجاده ، والعناية بسير السلف الصالح ، وبسيرة الرسول الكريم بوجه خاص ، والرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام وهى القرآن والسنة . ولعل هذا يفسر لنا كثيراً من مظاهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي في ذلك العصر ، وكيف اتجهت هذه الحياة في معظمها إلى العناية كل العناية بالعلوم الدينية بجميع فروعها ، وفي مقدمتها علم الحديث .

أما لماذا اتجه هؤلاء العلماء الوافدون من الشرق ومن الغرب إلى الإسكندرية واتخذوها — دون القاهرة وهى العاصمة — دار مقام لهم ، ومجالاً لنشاطهم العلمى فإن هذا يرجع إلى أن الدولة التي كانت قائمة بالحكم في مصر في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس كانت دولة شيعية — وهى الدولة الفاطمية — ومقر حكمها القاهرة ، فالقاهرة كانت نتيجة لهذا مركزاً للدراسات الشيعية ، أما الإسكندرية فكانت مدينة سنية يغلب على أهلها التسنن ، ومعظم علمائها — إن لم يكن كلهم — من علماء السنة ومن أتباع مذهب مالك بوجه خاص ، وهؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم ، الوافدون من شرق ومن غرب ، كانوا كلهم كذلك سنيي المذهب .

لقد أصاب الخلافة العباسية في المشرق في القرنين الخامس والسادس ما أصابها من ضعف وانحلال ، وأصاب الأندلس الإسلامية ما أصابها من وهن وتفكك ، وهبط مسيحيو أوروبا إلى أطرافها يقتطعونها طرفاً بعد طرف ، واتجهت الأنظار في العالم الإسلامي إلى المركز ، إلى القلب ، إلى مصر ، يرون فيها الأمل المنشود والقيادة المرجوة ، وهرع إليها العلماء من هذا الشرق المستضعف ومن هذا الغرب المتفكك ، ولم يتجهوا عند وصولهم مصر إلى القاهرة للأسباب التي أشرنا إليها ، بل اتجهوا إلى الإسكندرية ، ولهذا كانت الإسكندرية في أواخر القرن الخامس وطوال القرن السادس مركزاً قوياً للنشاط العلمي الديني . وكان مجيء الحافظ السلفي واستيطانه لها عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلى نمو هذا النشاط ، والتي عقدت للإسكندرية لواء الزعامة في علم الحديث بين مدن العالم الإسلامي في ذلك الوقت .

٢

هو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَاقَةَ الأصبهاني ، وينسب إلى جده الأخير إبراهيم سِلَاقَةَ ، وسِلَاقَةَ لفظ فارسي معناه ثلاث شفاة ، لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين ، غير الأخرى الأصلية .

ولد في مدينة أصبهان ، واختلف في سنة ولادته . فقيل إنه ولد في سنة ٤٧١ أو في ٤٧٢ أو ٤٧٥ ، والمرجح عندي أنه ولد سنة ٤٧٥ . فقد ذكر السبكي « طبقات الشافعية » أن السلفي حكى عن نفسه أنه حدث سنة ٤٩٢ وما في وجهه شعرة ، وأنه كان ابن سبع عشرة سنة أو نحوها .

وقال الحافظ عبد الغنى إنه سمع السلفي يقول :

« أنا أذكر قتل نظام الملك في سنة ٤٨٥ وكان عمري نحو عشرين سنين ،

وقد كتبوا عني في أول سنة ٤٩٢ وأنا ابن سبع عشرة سنة أو أكثر أو

أقل ، وليس في وجهي شعرة — كالبخاري — . »

أى إنه حين بدأ يحدث لم يكن الشعر قد نبت في وجهه ، وكذلك كان البخارى
إمام المحدثين حين بدأ الناس يأخذون عنه الحديث .

تلقى السلفى علومه الأولى في مدينته أصبهان ، واتجه منذ اللحظة الأولى إلى
علم الحديث ، فسمع على كبار العلماء بأصبهان من أمثال القاسم بن الفضل الثقفى
وعبد الرحمن بن محمد بن يوسف السمسار ، وسعيد بن محمد الجوهري ، ومحمد
ابن محمد بن عبد الوهاب المدينى ، والفضل بن على الحنفى ، ومكى بن منصور
ابن علان الكرخى وغيرهم ، وقد بدأ السماع وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره ،
فقد قال السبكى :

« وأول سماع السلفى سنة ٤٨٨ » .

وقال فى موضع آخر :

« وقد طلب الحديث وكتب الأجزاء ، وقرأ بالروايات فى سنة ٤٩٠ »

وبعدها .

وبعد أربع سنوات من طلبه الحديث بدأ يحدث ، واتخذ له مجلساً فى مساجد
أصبهان ، فقد حكى هو عن نفسه أنه حدث سنة ٤٩٢ .

وقد كانت التقاليد العلمية فى تلك العصور تقضى بأن العالم الحق لا يمكن أن
يستوفى أدوات علمه ، وأن يستكمل دراسته ، وأن يبلغ مبلغ العلماء إلا إذا رحل
إلى عواصم الدولة الإسلامية الكبرى وإلى مراكز العلم الشهيرة بها ، ليتلقى العلم
عمن بها من كبار العلماء ، ويستمع إليهم ويحصل على إجازاتهم له ، ولهذا بدأ
السلفى يحس منذ هذه السن المبكرة الرغبة فى الرحلة ، فارتحل ، وكانت رحلته الأولى
إلى بغداد ، ولكنه قبل أن يرتحل ألف معجماً لشييوخه الذين أخذ عنهم بأصبهان
وهذا تقليد ثان لعلماء الحديث فى تلك العصور ، أن يؤلف كل منهم معجماً
أو معاجم لشييوخه الذين سمع منهم .

غادر السلفي مدينته أصبهان في رمضان سنة ٤٩٣ هـ وهو في نحو الثامنة عشرة من عمره ، واتجه أول ما اتجه إلى مدينة بغداد ، فوصلها في الرابع من شهر شوال . وكان السلفي وقت وصوله مريضاً يشكو بعض الدمايل التي نبتت في جسمه ، ولكنه لم يبال المرض ، وقصد في الحال إلى عالم من كبار العلماء الحديث هو نصر ابن البطر ليستمع إليه ، ولم تكن المقابلة الأولى في الدرس الأول مرضية للسلفي ، لأنه حين جلس ليقرا الحديث على الشيخ جلس متكئاً ، وكانت للعلماء والطلاب حين يجلسون لدروس الحديث آداب خاصة ، يلتزمون فيها الطهارة والأدب الكامل والوقار التام ، فلم يكذ الشيخ نصر يرى السلفي يجلس هذه الجلسة المتكئة وهو يقرأ عليه الحديث حتى نهره وسبّه وعنف عليه إلى أن بكى ، ولم يعف عنه إلا بعد أن اعتذر له ووصف له مرضه ، وذكر له الدمايل التي تمنعه من الجلسة المريحة العادية ، وتضطره إلى هذه الجلسة المتكئة .

روى السلفي نفسه قصة هذه المقابلة الأولى قال :

« دخلتها - أي بغداد - في رابع شهر شوال فلم يكن لي همة ساعة دخولها إلا المضي إلى ابن البطر - ، فدخلت عليه - وكان شيخاً عسراً - فقلت : قد وصلت من أصبهان إليك - أي لأجلك - فقال : اقرأ - جعل الرائ غينا - ، فقرأت عليه وأنا متكئ - لأجل دمايل بي - ، فقال : " أبصر ذا الكلب " ، فاعتذرت عليه بالدمايل ، وبكيت من كلامه ، وقراءت سبعة عشر حديثاً ، وخرجت : ثم قرأت عليه نحواً من خمسة وعشرين جزءاً » .

ولم يأخذ السلفي في بغداد عن الشيخ نصر بن البطر وحده ، بل تردد على نفر كبير من علمائها ، ودرس علوماً أخرى لا يمكن أن يستغنى عنها دارس الحديث ، فدرس الفقه الشافعي - فقد كان شافعي المذهب - على كبير فقهاء بغداد في ذلك الوقت ألكيا أبي الحسن على الحرّاس ، ودرس اللغة على الخطيب أبي زكريا

يحيى بن علي التبريزي اللغوي ، وسمع الحديث ورواه عن أبي بكر الطريثي ، وأبي عبد الله ابن البصري ، وثابت بن بندار ، وأبي محمد بن السراج ، وغيرهم من الأئمة الأفاضل .

قضى السلفي في بغداد نحو ثلاث أو أربع سنوات ، ثم غادرها إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج ، ولكنه عرج في طريقه على الكوفة ، وسمع بها من أبي البقاء المعمر بن محمد الحبال ، وانتهاز فرصة وجوده في الحجاز فسمع ممن بها من علماء الحديث ، سمع في مكة من الحسين بن علي الطبري ، وفي المدينة من أبي الفرج القزويني .

وعاد من رحلته هذه إلى بغداد واستأنف بها دراسته ، وخاصة في الفقه واللغة ، وخرج في سنة ٥٠٠ في رحلة قصيرة إلى البصرة حيث سمع من علمائها المحدثين وخاصة من محمد بن جعفر العسكري .

٤

وهكذا نرى أن السلفي لم يترك عالماً مبرزاً من علماء العراق إلا واتصل به وأخذ عنه وسمع منه ، فلما استوفى دراسته هناك ألف معجماً ثانياً لشيخته الذين أخذ عنهم في بغداد ، ثم غادرها إلى المشرق ثانية ، فلم يترك مدينة من مدنه الكبرى إلا زارها وأخذ عن أهلها من العلماء الكبار ، فزار أول ما زار مدينة همدان ، واتصل بالكثيرين من علمائها ، ولا سيما أبي عبد الله الجني الملامتي ، والشيخ أبي الفتوح أحمد بن محمد الطوسي الغزالي — أخى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي — ، وقد أقام السلفي أثناء وجوده في همدان مع الشيخ أحمد الغزالي في رباط من رباط الصوفية وكان يتردد على مجالس وعظه ، فقد قال السلفي في ترجمته له :

« حضرت مجلس وعظه بهمدان ، وكنا في رباط واحد وبيننا ألفه وتودد ، وكان أذكى خلق الله ، وأقدرهم على الكلام ، فاضلا في الفقه وغيره » .

وزار السلفي بعد هذا مدن الري ودينور وقزوين ونهاوند ، وطاف بلاد

أذربيجان ، ثم انحدر منها إلى الجزيرة : فزار مدن آمد وخلات ونصيبين والرجبة ، واستغرقت رحلاته هذه في مدن فارس والمشرق والجزيرة تسع سنوات ، فلما كانت سنة ٥٠٩ اتجه إلى الشام وقصد العاصمة دمشق ، قد حصل علماً غزيراً وافراً ، واشتغل في دمشق بتدريس الحديث : قال السبكي :

« وقدم دمشق سنة ٥٩٠ بعلمٍ جم ، فأقام بها عامين وسمع منه الكثيرون » .

وقال الحافظ بن عساكر :

« سمع ممن لا يُحصى : وحدث بدمشق ، فسمع منه أصحابنا ، ولم أظفر بالسماع منه » .

ولم يشغله التدريس عن إتمام التحصيل ، فسمع ممن بها من كبار المحدثين ، وخاصة من أنى طاهر الجناثي وأنى الحسن بن الموازني .

ولم تكن الشام في ذلك الوقت المكان الصالح لإقامته : فقد كانت الحروب الصليبية في عنفوانها ، وكان الصليبيون قد نجحوا في إقادة ملكهم في سواحل الشام وفي بيت المقدس ، ولهذا لم يُطْل السلفي إقامته في دمشق : ولم يمكث بها إلا سنتين ثم غادرها إلى مدينة صور ، وفي سنة ٥١١ ركب سفينة من صور حملته إلى نجر الإسكندرية .

٥

وصل السلفي إلى الإسكندرية وقد بلغ السادسة والثلاثين من عمره بعد أن اكتملت رجولته وتم نضجه العلمي ، وحصل من العلوم واكتسب من التجارب في رحلاته المتعددة الشيء الكثير .

ويبدو أن السلفي كان حين نزوله بالإسكندرية فقيراً رقيق الحال ، وأنه ظل كذلك مدة ما ، ولكنه لم يلبث أن فعل كما فعل الطرطوشي من قبل ، فتزوج سيدة ثرية من سيدات الإسكندرية ، فتحسنت أحواله المالية ، وأصبح من أهل الوجاهة ، قال السبكي :

« واستوطن الإسكندرية ، وتزوج امرأة بها ذات يسار ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وتصدق وصارت له بالإسكندرية وجاهة » .

ويذكر السلفي نفسه أن زوجته هذه كانت تسمى ست الأهل ، وأنها كانت ابنة رجل فاضل ، هو الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الخولاني ، وأنها كانت سيدة صالحة دينة تقية ، فقد قال — في كتابه « معجم السفر » الذي أرخ فيه لشييوخه ومن قابلهم من العلماء بمدينة الإسكندرية — عند ترجمته للسيدة ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازي — :

« ترفة هذه من بيت علم ، وهي في نفسها كانت دينة كثيرة المعروف ، وتسمى أيضاً عائشة وتدعى ترفة — رحمها الله — قرأنا عليها سنة ٣٤ ، وتوفيت بعدها بمدة قريبة ، رحمة الله عليها ، وكانت امرأة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الخولاني — الذي تزوجت أنا بعد موته بابنته ست الأهل المرأة الصالحة الدينة — رحمها الله ورحمنا إذا صرنا إلى ما صارت إليه » .

فالبيت الذي ناسبه السلفي بيت يقوم على الدين والتقوى والصلاح ، الرجل رجل فاضل ، وزوجته ترفة دينة كثيرة المعروف ، وهي في نفس الوقت عالمة محدثة فقد اعترف السلفي بأنه أخذ عنها وقرأ عليها قبل وفاتها ، والبنت التي تزوجها السلفي صالحة دينة ، أقصى ما كان يطمح إليه السلفي أن يصير إلى ما صارت عليه .

واشتغل السلفي منذ نزوله بالإسكندرية بالتدريس ، وتدريس الحديث بوجه خاص ، وكان يعقد حلقاته أول الأمر في مساجد المدينة ، ولم يلبث أن أقبل الطلاب عليه وقصده طلاب الحديث من جميع أنحاء مصر ومن خارج مصر ، وفي حدود سنة ٥٤٠ هـ ولي حكم الإسكندرية أبو الحسن علي بن السلار ، وهو الذي سبى الوزارة للخليفة الفاطمي الظاهر بعد سنوات قليلة ، وكان ابن السلار سنياً شافعي المذهب ، ولهذا قرّب إليه السلفي وأكرمه ، وأنشأ له في سنة ٥٤٤ هـ مدرسة خاصة سميت بالمدرسة السلفية ، فكانت ثاني مدرسة أنشئت بمدينة الإسكندرية بل في مصر كلها ، وكانت المدرسة الأولى هي المدرسة التي أنشأها الوزير رضوان ابن ولجشي وزير الحافظ لأبي الطاهر بن عوف^(١) .

(١) انظر فيما سبق الفصل الخامس بأبي الطاهر بن عوف .

ولعل ابن السلار كان متأثراً بنور الدين محمود بن زنكى ، فقد كان سنياً شافعيّاً مثله ، وكان على اتصال سياسى به ، وقد كان من أهم أغراض حركة إنشاء المدارس التى بدأها السلاجقة ، وتبعهم فيها الأتابكة ثم الأيوبيون ، محاربة المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى ، وقد كانت المدرسة السلفية المدرسة الوحيدة للشافعية فى الإسكندرية ، وظلت قروناً طويلة وهى كعبة لطلاب العلم ، قال ابن خلكان الذى عاش فى القرن السابع :

« وكان — أى ابن السلار — ظاهر التسنن شافعى المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى — رحمه الله تعالى — إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ، ثم صار العادل المذكور والياً به احتفل به ، وزاد فى إكرامه ، وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن ، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها . »

٦

وصل الحافظ السلفى إلى الإسكندرية فى سنة ٥١١ هـ ، واستقر بها منذ ذلك الحين إلى أن توفى إلى رحمة الله سنة ٥٧٦ هـ ، أى أنه قضى بها نحو خمس وستين سنة ، وقد توفّر هذه السنين الطويلة على البحث والدراسة والقراءة وطلب العلم ، والتدريس للطلاب من أهل الإسكندرية ومصر ، ومن يفدون عليه من أطراف العالم الإسلامى المختلفة .

وقد اعتكف حين تفرغه للعلم فى داره ثم فى مدرسته ، ولم يكن يغادرها لفرجة أو لنزهة إلا لماماً ، نصّر على هذا السبكى فقال فى كتابه « طبقات الشافعية » نقلاً عن الحافظ أبى نصر :

« وبلغنى أنه فى مدة مقامه بالإسكندرية — وهى أربع وستون سنة —

ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرة واحدة ، بل كان عامة دهره ملازماً مدرسته ، وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعاً فى شىء . »

ولم يغادر السلفى الإسكندرية طوال هذه السنين إلا مرة واحدة بعيد وصوله

إليها ، حين ذهب إلى القسطنطينية ليتصل بمن فيها من العلماء ويأخذ عنهم . وقد ذكر السبكي أن خروجه إلى القسطنطينية كان سنة ٥١٧ هـ أى بعد وصوله إلى الإسكندرية وإقامته بها ست سنوات ، قال :

« ولم يخرج منها - أى من الإسكندرية - إلا مرة في سنة سبع عشرة

إلى مصر ، فسمع من أبي صادق المديني والموجودين بها وعاد » .

والتاريخ الذى ذكره السبكي غير دقيق ، والصحيح أنه سافر إلى القسطنطينية في أوائل سنة ٥١٥ ومكث بها ثلاث سنوات إلى أواخر سنة ٥١٧ ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، يؤيد هذا السلفى نفسه في بعض النصوص التى ذكرها في كتابه « معجم السفر » فقد قال في ترجمته لأبي الحسن على بن المؤمل بن غسان الكاتب المصرى :

« وتوفى سنة ٥١٥ بالإسكندرية وأنا بمصر » .

وقال في ترجمة أبي البها عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الصقلى :

« وتوفى في شعبان سنة ٥١٧ بالإسكندرية وأنا بمصر » .

فكانه كان لا يزال مقيماً في مصر - أى القسطنطينية - إلى شعبان سنة ٥١٧ ، ولكنه غادرها عائداً إلى الإسكندرية في ذى القعدة من هذه السنة ، فقد قال في ترجمته لأبي الفضل عوض بن سعادة بن عبد الله الطرابلسي المغربي :

« وتوفى بعد خروجي من مصر في ذى القعدة سنة ٥١٧ هـ » .

وكان السلفى يقيم مدة بقاءه في القسطنطينية في دار رجل صالح من علماءها وتجارها الأثرياء يعنى الأصل ، اسمه أبو عبد الله محمد بن خداداد بن إسماعيل الأهوازي ، فقد قال في ترجمته :

« كان من رؤساء مصر المولدين بها . . . وكانت له دار وكالة ، وكان

شافعي المذهب محباً للعلم وأهله ، ومولده باليمن ، وأقامت في داره مدة

مقاي بمصر ، وكان ظاهر المروعة - رحمه الله » .

وقد اتصل السلفى أثناء مقامه بالقسطنطينية بالعدد الوفير من علماءها ومدرسيها وأدبائها ورجال الفكر فيها ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، وتردد على حلقات العلم المختلفة بجامع عمرو بن العاص ، واتخذ له حلقة وسط هذه الحلقات كان يدرس

فيها الحديث ، وفي كتابه معجم السفر تراجم لكثيرين من علماء القسطنطينية والأدباء الشعراء الذين اتصل بهم ؛ وأخذ عنهم أو أخذوا عنه ، ويتخلل هذه التراجم أوصاف شائعة للنشاط العلمي الوافر الذي كانت تضيء به حلقات الدرس في جامع عمرو بن العاص ، وفي دور العلماء ومجتمعاتهم بهذه المدينة ، وللصلات العلمية الوثيقة التي عقدها السلفي بهؤلاء العلماء .

٧

وعاد السلفي بعد هذه الرحلة إلى الإسكندرية فأقام بها بقية حياته وتوفّر أول الأمر على دراساته ودروسه ، وكان يلقى هذه الدروس أول الأمر في داره أو في مساجد المدينة نحواً من سبع وعشرين سنة إلى أن كانت سنة ٥٤٤ حيث بنى له الوزير العادل أبو الحسن علي بن السلار مدرسة خاصة به سُميت أول الأمر بالمدرسة العادلة نسبة إلى بانيها ، ثم غلبت عليها النسبة إلى السلفي فيما بعد فسميت المدرسة السلفية . وقد كان لأنشاء هذه المدرسة زنة فرح كبير في الإسكندرية ، عبر عنها شعراء المدينة فيما قالوه من شعر ، من هذا ما قاله أحد الوراقين من الشعراء الإسكندريين وهو أبو محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب ، وكان وثيق الصلة بالسلفي ومدحه — كما قال في معجم السفر — بأكثر من خمسين قصيدة ، قال في إحداها يفتخر بالمدرسة مادحاً بانيها مشيداً بذكر السلفي وعلمه :

لله درُّ العادل المرتجى	ذى العز والتأييد والنصر
أنشأها لنا مدرسة ، مثلها	لم يُنشأ في دهر ولا عصر
بغداد دارُ العلم لم تفخر	بمثلها قط على مصر
فأرضها كالمسك جات عن	البُسْط التي تفرش والحُصْر
وما تولاهما سوى الحفاظ	المعصوم من عى ومن حصر
خير فقيه في السورى ،	عالم تبصره كالحسن البصرى ..

وكان السلفي هو أستاذ المدرسة ومدرسها ، وكان يعاونه عدد من المعيدين — كما كانت تقضى نظم التعليم في ذلك العصر — وقد أشار هو إلى واحد من هؤلاء

المعيدين وترجم له في كتابه «معجم السفر» ، وهو أبو المعالي رافع بن يوسف ابن زيدون القيسي ، ووصفه السلفي بأنه كان من أهل العلم ويصوم الدهر ، ويقوم الثلث الأخير أبداً ، وقال إنه قرأ عليه كثيراً من الحديث ، وكتب جملة من الأمالي التي كان يملئها ، ثم قال :

« وقد لازمني عند بناء المدرسة العادية مدة مديدة إلى أن توفي » ، ومعنى هذا أنه ظل يعيد عنه نحو سبع سنوات ، منذ بنيت المدرسة سنة ٥٤٤ إلى أن توفي سنة ٥٥١ .

وكان ابن رافع يعاون السلفي في أمور أخرى ، فكان — كما يقول — يعيد الدرس على أربعين من الصبيان ويؤم الناس في المدرسة في الصلوات الخمس ، ويبدو مما كتبه السلفي أن معيده رافعاً هذا بدأ حياته خياطاً ثم اشتغل بالعلم وتفرغ له ، ولعله لم يوفق في حرفة الخياطة فتركها ، فقد روى عنه السلفي قصة طريقة خلاصتها أن رافعاً خاط لأحد الشعراء المعاصرين قنطرة ، فجاء طوقها واسعاً ، مما دعا الشاعر إلى أن يقول في هذا الحادث أبياتاً طريقة ، قال السلفي :

« سمعت أبا المعالي رافع بن يوسف بالإسكندرية يقول : خطت في صغري قنطرة لأبي القاسم عبد الرحمن بن مؤمن الطرابلسي المغربي فجاء طوقها واسعاً ، فقال .

لا زلتَ في الرفعة يا رافعُ	يزهو بك الناظرُ والسامعُ
ذا إبرة في طولها قامة	يتبعها مقراضك القاطعُ
تخيط طول الدهر في صحة	أو تملئ من شغلك الجامعُ
لم تألُ في قنطورى صنعةً	وإن شعجاني طوقها الواسعُ
والشرعُ قد قال — وأكرم به — :	يُغترم ما أفسده الصانعُ »

وكانت هيئة المدرسة تضم غير الأستاذ — وهو الحافظ السلفي — ، وغير معيديه مؤذناً يؤذن للناس في أوقات الصلاة ، وقد توالى على المدرسة عدد من المؤذنين أشار السلفي إلى واحد منهم ، ومن الغريب ، أنه يذكر أن هذا المؤذن كان شديد الصمم ، وقد بدأ حياته مؤذناً في دار الطرطوشي ، وبعد وفاته أصبح مؤذناً في مدرسة السلفي ، قال في معجم السفر :

« أبو القاسم نجا بن علي بن الحسن الرملي المؤذن بالإسكندرية شيخ صالح ، كبير السن ، شديد الصمم ، كان يؤذن في دار الفقيه الطرطوشي ، ثم كان يؤذن عندي وكان جهوري الصوت » .

٨

وكان منهاج الدراسة في المدرسة منهاجاً دينياً ، وكانت الدروس التي يلقيها السلفي تدور كلها حول الفقه والتفسير والحديث ، أو حول علوم تتصل بها كالتاريخ مثلاً وسيرة ابن هشام بوجه خاص ، وفي التراجم التي أوردها السلفي في « معجم السفر » إشارات كثيرة إلى هذه العلوم ، ويتضح منها أن السلفي كان يتبع في تدريسه إحدى الطريقتين : أن يقرأ نصاً أو كتاباً من الكتب المعتمدة ويشرحه ، أو أن يملأ أُمالي خاصة : أي أن يلقي محاضرات من إنشائه : وكانت هذه الأُمالي أو المحاضرات في علم الحديث ، وكان يسميها الأُمالي الحديثية : فقد قال في ترجمته لأبي الحجاج يوسف بن محمد بن علي القروي :

« كان يحضر عندي في المدرسة لسماع الفقه والحديث ، وكتب عني شيئاً يسيراً من الأُمالي الحديثية التي كنت أُمليها » .
وقال في ترجمة أبي الرضا عبد الله بن الفضل بن دليل الحضرمي أحد قضاة الإسكندرية :

« وكان يلانمني ويراجعني في المسائل التي يتشكك فيها ، ويقرأ عليّ شرح البخاري لابن بطل قراءة دراية لا رواية » .

وقال في ترجمة أبي الحسن علي بن عطية بن الحسن الطيبي المصري :
« قرأ عليّ كثيراً من الحديث ، ومن جملة ذلك مسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري » .

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضرير :
« كان يحضر عندي عند إلقائي الدروس الفقهية في المدرسة العادلةية بالإسكندرية » .

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن محمد بن ملوك التنوخي الفيشي :
 « سمع على رسالة أبي محمد بن أبي زيد في فقه مالك . . . وكتاب
 الشهاب للقاضي القضاعي وغير ذلك » .
 وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن عثمان واركزولي :
 « وكان يقرأ على الموطأ ، ويحفظ كثيراً من متونه ، ويتفقه عندي في
 المدرسة العادلية ، ويعلق ما ألقيه من الدرس الأول من الإبانة للفوراني
 على مذهب الشافعي » .
 وقرأ عليه أبو محمد عبد الله بن تويت بن الوزان اللمتوني كتاب الملخص
 لابن القابسي .

وكان أبو الحسن علي بن محمد بن فيد الفارسي القرطبي يقول للسلفي :
 « كتبت عنك ألف ورقة وسمعتها » .
 ومن جملة ما قرأه عليه السيرة لابن هشام ، وكتاب المجالسة لابن مروان
 المالكي ، وكتاب مشكل القرآن لابن قتيبة .
 وكان السلفي إذا جلس لدرس الحديث يلتزم الأدب التام والوقار الكامل ،
 ويلزم الحضور من تلاميذه - مهما كبر مقامهم - بهذه الآداب ، فقد أخذه
 أساتذته الأوائل بهذه الآداب ، وأعتقد أنه ظل يذكر دائماً مقابله الأولى لأستاذه
 نصر بن البطر في بغداد ، وقد روى السبكي أن السلفي كان إذا جلس للحديث
 لا يشرب ماء ولا يبصق ولا يتورك ولا يبدو له قدم ، وحدث مرة أن حضر وزير
 مصر وأخوه للسمع عليه ، ثم شغل الرجلان أثناء الدرس بحديث شخصي خافت
 بتبادلانه ، فلم يأبه السلفي لمقامهما ، وبادر بزجرهما وتأنيبهما ، وقال :
 « إيش هذا ؟ ! نحن نقرأ الحديث وأنما نتحدثان ؟ ! »
 فالسلفي كان يعتقد أن لدرس الحديث حرمة خاصة ، يجب على الجميع أن
 يقدسوها مهما علت مكانتهم الدنيوية .

هذه هي المدرسة العادلة أو السلفية ، وهذا هو برنامج الدراسة بها ، وهذه هي طرق التدريس بها ، فمن كان تلاميذها ؟ يبدو أنهم كانوا على نوعين : نوع نظائى ويشمل الصبيان الصغار الذين يبدأون مراحل الدراسة الأولى ، وقد أشار إليهم السلفى عندما تحدث عن معيده رافع وقال :

« وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان » .

ويبدو أن هؤلاء كانوا يدرسون دراسة يومية منتظمة فيما عدا أيام الجمع . أما النوع الثانى فكان يشمل الشبان والرجال الكبار من هواة العلم غير المتفرغين ، وكان هؤلاء التلاميذ نخبة ممتازة من العلماء والشعراء والأدباء ورجال الفكر من سكان الإسكندرية ، ومن الوافدين عليها من الشرق ومن الغرب ، وكان من بينهم عدد من رجال الحكم فى المدينة كالولاة والقضاة والشهود والجنود : وكان من بينهم المتصوفة والزهاد وأرباب المهن المختلفة ، وخاصة التجار ، فقد كانت الإسكندرية فى ذلك الوقت أكبر ميناء تجارى فى مصر بل فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان يفد عليها ويقم بها عدد وفير من أرباب التجارة الوافدين من كل طرف من أطراف العالم الإسلامى ، من الهند والصين ، ومن اليمن وبلاد العرب ، ومن فارس والعراق وبلاد الأتراك ، ومن جزر البحر الأبيض المتوسط . ومن بلاد المغرب والأندلس ، وكان الكثيرون من هؤلاء التجار علماء أو مشتغلين بالعلم ، ولهذا كانوا ينتهزون جميعاً فرصة وجودهم فى الإسكندرية أو مرورهم بها فيقصدون الحافظ السلفى ، ويترددون على مدرسته ، ويقيمون بها مدداً تطول أو تقصر ليأخذوا عنه العلوم الدينية ، وعلم الحديث بوجه خاص ، وكان بعض هؤلاء وسيلة طيبة لنشر علم السلفى فى بلادهم بعد عودتهم .

ولم تكن هؤلاء الكبار مواعيد محددة للدرس ، كما كان الشأن مع الصبيان الصغار ، فكانوا يترددون على السلفى فى مدرسته فى أى ساعة من ساعات النهار ، وإن كان قد حدد موعداً لدروسه أو أماليه ، أو محاضراته فى الحديث فى يوم

الجمعة من كل أسبوع ، فكثيراً ما كان يردد في ترجمات تلاميذه قوله :

« وما كان يتخلف أو يتغيب عن مواعيد الجمعة » .

ونستطع بمراجعة كتابه « معجم السفر » أن نتعرف على الكثيرين من تلاميذ السلفي الكبار من أرباب الوظائف الحكومية أو العلماء أو من التجار :

فكان من تلاميذه : أبو علي الحسين بن كرام الكاتب بالثر - أي بالإسكندرية

— وقال هو عنه :

« وبينهم بيت معروف ، وكتب عنى مقطعات من الشعر ، وكان يحضر

عندى لسماع الحديث » .

ومن تلاميذه مهندس كبير بالإسكندرية اسمه أبو المكارم هدية بن عامر

ابن فتوح الحضرمي ، وصفه السلفي بأنه كان من أذكى خلق الله في الهندسة ،

وقال :

« وكان متدينًا لا ينتطع عن مجالس أهل العلم ، وكثيراً ما كان يحضر

عندى لسماع الحديث » .

ومن تلاميذه مؤذن بأحد المساجد المدينة ، هو أبو الحسن رضوان بن إبراهيم

الدينلي الكردي ، قال عنه .

« كان يحضر عندى كثيراً لسماع الحديث — وكانت له معرفة وأنس

بمذهب مالك ، ويؤم في مسجد من مساجد الثغر بناحية مقبرة وعلمته ،

وبها دفن » .

ومن تلاميذه أبو محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي العذري ، قال

في ترجمته :

« هذا ممن علق عنى كثيراً من الحديث والفقه ، وأقام في المدرسة

العادلة مدة مديدة » .

وتتلمذ عليه من أهل المغرب والأندلس عدد كبير ، وخاصة أولئك الذين

كانوا يخرجون للحج ويمرون في طريقهم بالإسكندرية ، فكانوا ينتهزون فرصة

وجودهم بها ويترددون على السلفي في مدرسته للأخذ منه وسماع الحديث عليه ،

ومن هؤلاء :

أبو العباس أحمد بن عمار النابلي - من نابلي إقليم بين تونس وسوسة - ذكر السلفي أنه كتب عنه شيئاً من الحديث .
وأبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتي - من أهل تاهرت إحدى مدن المغرب - قال السلفي في ترجمته :

« كان من الفضلاء في الفقه والأدب ، وله شعر ، وكتب عني من الحديث كثيراً سنة ٥٢٧ بعد رجوعه من الحجاز » ، ثم نص على أنه روى عنه هذه الأحاديث التي سمعها في المغرب بعد عودته إليه ، قال :

« ثم رجع إلى المغرب وروى عني هناك » .

وأخذ عنه من علماء الأندلس أبو الوليد يوسف بن المفضل القبذاق ، وذلك بعد رجوعه من الحجاز وهو في طريق العودة إلى الأندلس . ولم يقنع القبذاق بالأخذ عن السلفي ، بل سأله أن يكتب إجازة لسلطان المغرب في ذلك الوقت الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فكتبها له .
وأخذ عنه من علماء بلنسية بالأندلس أبو الحسن طارق بن موسى بن يعيش البلسنسي ، قال السلفي في ترجمته :

« كان من أهل الصلاح وقد أقام بالإسكندرية مدة ، وسمع على جماعة من شيوخها بقرآني وبقراءة أخرى . وكتب عني كثيراً » ، ثم نص على أنه روى عنه بالأندلس بعد عودته إليها ، قال : « ثم رجع إلى الأندلس وروى بها ما سمعته علي وعلى غيره » .

ومن تتلمذ عليه من أدباء صقلية أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يحيى الصقلي ، ذكر السلفي أنه كان يقرأ عنده في المدرسة العادلية ، ثم قال :

« وله في قصائد » .

وكان بعض تلاميذه يقدون إلى الإسكندرية خصيصاً للسمع عليه ، ومن هؤلاء أبو الحسن علي بن محمد بن أبي ذرّة المخزومي الحجازي ، قال السلفي في ترجمته :

« شاب من أهل الفقه ، قصدني من مكة إلى الإسكندرية ، وبقى مديدة يسمع الدروس الفقهية ، ويسمع أجزاء خديثة وكتبها ، ورجع إلى الحجاز » .

أما التجار العلماء الذين أخذوا عن السلفي أثناء مقامه في الإسكندرية فإنهم من الكثرة بحيث لا يمكن إحصائهم ، ولكن يجمع بين الكثيرين منهم أنهم ممن رحلوا في أطراف الأرض وطوفوا في أنحاء العالم ، ولا شك أنهم كانوا أداة طيبة لنشر علم السلفي في كل البلاد التي رحلوا إليها ، وقد ترجم السلفي هؤلاء التلاميذ من التجار في كتابه معجم السفر ، فقال في ترجمة أبي الفرج مهران بن علي القرميسيني التاجر بالإسكندرية :

« كان من رؤساء التجار ذا همة نفيسة ، وكان لي به أنس كثير ، قلَّ يومٌ يمضي لا يجيء إليّ ، وقد سمع بقراءة علي جماعة من الشيوخ وعلى » .
ثم قال :

« وكان قد تجوّل في مدن العراق ، والجليل والشام ، واليمن ، وبلاد الهند في التجارة » .

وتلميذ عليه عبد الرحمن بن أبي شيبة الكنتاني العسقلاني ، وكان قد دخل بلاد اليمن ، وبلاد الهند في التجارة ، وقال عنه :

« وكان يحضر عندي لسماع الحديث » .

وتلميذ ثالث تاجر ممن أخذ عليه الحديث ، وهو أبو المظفر عبد الرشيد الحنجندی « وهو تاجر ممول ، سافر إلى بلاد الترك ، ودخل الصين وبلاد الهند ، وأكثر أقاليم الدنيا » .

وتلميذ رابع عُرف لكثرة رحلاته بالسايح ، وهو أبو محمد عبد الله أبي الطيب الفيونشي ، مغربي الأصل ، وقد لقي في سياحته سادة من شيوخ المغرب وديار مصر والشام وديار بكر ومصر والعراق والحجاز ، وصحبهم ، ثم استوطن الإسكندرية ، وكانت له فيها آثار حسنة ، فقد بنى فيها مسجداً وصهرنجاً للسيل . لهذا كله لم يكن غريباً أن يقول ابن خلكان في ترجمته للسلفي وتأريخه للمدة التي أقامها في الإسكندرية :

« وأقام به - أي بثمر الإسكندرية - وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ، وانتفعوا به ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله » .

ولم يشغل التدريس الحافظ السلفى عن التأليف ، فصنف كتباً كثيرة : كلها فى علم الحديث ، أو ما يتصل به من الترجمة للرجال ، فن مؤلفاته فى الحديث :
 — كتاب « السداسيات فى الحديث » ذكره صاحب كشف الظنون .
 — و « أجزاء السلفيات » وهى مجموعة الأحاديث التى رواها عن غيره من الحفاظ ، ذكرها صاحب كشف الظنون وقال :
 « وجعلتها تزيد على مائة جزء » .

— وله « كتاب الأربعين البلدانية » وهو مجموعة تضم أربعين حديثاً . وقد كان التتليد المتبع لدى الحفاظ وعلماء الحديث فى تلك العصور أن يؤلف كل منهم كتاباً يضم أربعين حديثاً ، ويرجع الأصل فى هذا التتليد إلى ما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أنه قال :
 « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً فى أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء » .

ورغم أن الكثيرين يضعفون هذا الحديث ، فقد راح كل محدث يصنف لنفسه مجموعة أربعينية ، واختلفوا فى الأسس التى اعتمدوا عليها لجمع الأربعينيات هذه ، فمنهم من جعلها شاملة للمواعظ والرفائق . ومنهم من اختار أحاديث التوحيد ، أو أحاديث الأحكام .

أما السلفى فقد كان مجدداً فى اختياره للأربعين حديثاً ، فجمع فى كتابه الأربعينى أربعين حديثاً ، رواها عن أربعين شيخاً ، قابلهم فى أربعين مدينة ، وقد اقتدى بالسلفى معاصره الحافظ ابن عساكر الدمشقى ، وزاد عليه فجعل أربعينته مروية عن أربعين من الصحابة . قال صاحب كشف الظنون .

« فصار أربعين ، من أربعين ، لأربعين ، فى أربعين ، عن أربعين
 إذا اعتُبرت تخرج فى أربعين باباً : كل حديث إذا جمع إليه ما يناسبه
 صار كتاباً » .

وكان من أدوات المحدث الهامة أن يكون على علم تام بالرجال ، أى رجال الحديث وتراجمهم ليتعرف على الثقات والضعفاء منهم ، ولهذا كان من تقاليد علماء الحديث أن يؤلفوا فى تراجم الرجال كتباً ، وقد ألف السلفى ثلاثة معاجم لشييوخه الذين أخذ عنهم :

المعجم الأول لشييوخه فى أصفهان .

والثانى لشييوخه فى بغداد .

والثالث معجم السفر ، ترجم فيه لعلماء الإسكندرية وللعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم أثناء تجواله ورحلاته الكثيرة .

١١

وكان السلفى كثير القراءة ، إذا فرغ من دروسه لا يشغله شىء غير الكتاب ، قال الحافظ عبد القادر الراوى :

« وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعاً فى شىء » .

وقال السبكي :

« وكان السلفى مغرمًا بجمع الكتب ، حصل منها الكثير ، وكتب بخطه

لا سيما من الأجزاء ما لا يعد كثرة » .

ولهذا لم يكن السلفى رغم مكانته العلمية يتردد فى أن يأخذ على بعض من يتلمذون عليه ، وأن يقرأ عليهم بعض كتبهم التى ألفوها ، أو كتباً أخرى قرأوها هم على غيره من أعلام الفكر الآخرين ، ثم كان يستهديهم هذه الكتب ، أو يستكتبهم نسخاً منها ليضمها إلى مكتبته الضخمة ، قال فى ترجمته لأبى تمام كامل بن ثابت ابن عمار الصورى الفرضى بمصر أنه :

« كان كاملاً فى فنون العلم ومنها الفرائض والحساب » .

ثم ذكر أنه أخرج له مرة كتاباً من تأليفه فى علم الفرائض ، وأنه قرأه عليه ، ثم قال :

« وهو الآن عندي » .

وكان من تلاميذه في الإسكندرية مؤرخ مغربي ، هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن محبوب الطرابلسي ، قال في ترجمته :
 « وكان له اهتمام بالتواريخ ، وصنّف لطرابلس تورياخاً وقفت عليه ، وانتخبت منه ما استغربته ، وحدثني به » .

وكان يتردد عليه في مدرسته أبو الحسن علي بن سند بن عباس الغساني ، وهو ممن طوّفوا في البلاد طلباً للعلم ، وأخذ عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، قال السلفي في ترجمته :

« وخطه غاية في الجودة : وكان لي به أنس تام ، ونسخ لي أجزاء من جملتها كتاب بداية الهداية لأبي حامد الغزالي » .

ولم يكن السلفي يقنع باستنساخ الكتب لنفسه ، بل كان يتتبع تركات الكتب التي تباع بعد موت أصحابها ، فيشتري منها الكثير ليضمه إلى مكتبته الضخمة ، فقد ختم ترجمته لأبي الحسن الغساني بقوله :

« وعندي بخطه مجلدات انتقلت إلى من تركه أبي عبد الله الروحي وغيره ، ومنها أعلام الصحيح لأبي سليمان الخطابي » :
 وقال في ترجمة عالم آخر من علماء الإسكندرية :

« وكان معنياً باقتناء الكتب ، وخلف منها ما لم يخلف غيره بالإسكندرية وانتقل إلى منها بالبيع جملة كثيرة » .

وتحقيقاً لنفس الغرض كان السلفي على معرفة أكيدة بجميع الوراقات الموجودة في الإسكندرية ، كما كانت تربطه بوراق المدينة صلات الصداقة ، يترددون على مدرسته للأخذ عنه ، ويتردد هو عليهم لانتقاء الكتب وشراؤها أو استنساخها ، فهذا أبو الحسن علي بن محمد الجيزي الكتي بالثر يقول عنه السلفي :

« كان أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب ، وقد اشترت منه كثيراً وعلّقتُ عنه فوائد أدبية وحكايات » .

وكتبي آخر بالإسكندرية اسمه أبو عبد الله بن سعد الخولاني ، قال السلفي في ترجمته :

« كان حسن الخط ، ومن الدنيا قليل الحظ ، مائلاً إلى الآداب وإلى

شعر الشعراء ورسائل الكتاب ، حفظة لذلك ، حسن الإيراد جيد الانتقاد ، وقد كان لي منه أنس تام بالشعر . . . وجلّد لي مجلدات ، ونسخ لي جزئيات ، وأبوه أندلسي استوطن الإسكندرية وبها توفي .
وقال في ترجمة أبي الحسين يحيى بن عساكر :
« شاعر مقلق ، وله إلى قصائد ، ثم صار خطيب جامع الشعر ، ورافقه وراقة حسنة ، وخطه غاية في الجودة »

١٢

وكان الساني بعد هذا متصلاً اتصالاً وثيقاً بكبار رجال الفكر والعلماء والأدباء والشعراء الذين عاصروه مدة مقامه في مصر ، وكانت تربطه بهم صلات الود والصدقة ، يسعى إليهم ويسعون إليه ، ويعقد وإياهم حلقات لتبادل الآراء أو لإنشاد الشعر ، ومن هؤلاء العالم النحوي اللغوي الكبير أبو الحسن علي بن عبد الجبار الهذلي وصفه الساني بأنه :

« كان إماماً في اللغة حافظاً لها ، حتى إنه لو قيل لم يكن في زمانه ألغى منه لما استبعد ، وكانت له قدرة على نظم الشعر » .
ثم قال :

« وله إلى قصائد ، وقد أجبته عنها » .

ومنه عالم القراءات الكبير أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق الصقلي المعروف بابن الفحّام وصفه الساني بأنه :

« كان حافظاً للقراءات ، صدوقاً متقناً عالماً ، وكان من كبار القراء ،

ومن رحل من المغرب إلى المشرق في طلب القراءة على الشيوخ » .
ثم قال :

« وقد علقت عنه فوائد ، وله تأليف حسن سمّاه " التجريد في بغية

المريد " كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة » .

واتصل الساني بكثير من أدباء مصر وشعرائها ، مثل القاضي أبي الحسين أحمد

ابن علي بن الزبير الأسواني الشاعر المشهور . ذكر السلفي في ترجمته أنه :
 « كان من أفراد الدهر فاضلاً في فنون كثيرة من العلوم ، ومن بيت
 كبير بصعيد مصر والممولين ، ولى النظر بثغر الإسكندرية في الدواوين
 السلطانية بغير اختياره ، وأرضى الناس وبالحصوص الفقهاء في جواريتهم
 سنة ٥٥٩ هـ ، وله تواليف ونظم ونثر التحق فيها بالأوائل المجيدين الأفاضل » .
 ثم قال :

« وكان يحضر عندي ، وقرأ عليّ كثيراً ، وكان يقول : قد هان عليّ
 ما أنا فيه من التشاغل بالمكوس في مقابلة ما آخذه عنك من الحديث بعد
 فراغك من الدروس » .

واتصل السلفي بكبير شعراء الإسكندرية في ذلك الوقت أفي المنصور ظافر
 الحداد ، ووصفه بأنه كان من مثلي شعراء ديار مصر ، وقال :
 « وقد كتب لي من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً
 بخطي بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية مقطعات وقصائد : وكتابته
 وأجاب عنه بشعر هو عندي » .

وكان بمصر أثناء مقام السلفي بها أديب كبير وكاتب مقامات هو أبو القاسم
 هبة الله بن عبد المحسن الطائي لا نكاد نعرف عنه شيئاً إلا ما ذكره السلفي من
 أنه كان :

« من أهل الأدب وله شعر فائق : وقد أنشأ مقامات على طريقة
 البديع الحمذاني والحريري والبصري » .
 ثم قال :

« وسمعتها عليه بالإسكندرية ، وكان قد وُلّي بها خدمة سلطانية » .
 أما أديب مصر وكبير كتاب الإنشاء في أواخر العصر الفاطمي علي بن منجب
 ابن الصيرفي فقد رآه السلفي وراسله ، ولكنه لم يوفق لمقابلته ، فقد قال في ترجمته :
 « ابن الصيرفي من أجلاء الكتاب وأعيان أهل الأدب ، وله مجموعات ،
 رأيته بمصر سنة ٥١٥ هـ ولم يتفق الحديث معه ، وحين عزمْتُ على الخروج
 كتبت إليه في إثبات أبيات من نظمه بخطه ، فكتب في الجواب :

وأما ما استدعاه من شعرى فوالله ما تعرضت قط للنظم .

وكتاب « معجم السفر » للسلفى يضم تراجم كثيرة لعدد كبير من شعراء الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى ، مما يدل دلالة واضحة على ازدهار الحياة الفكرية والأدبية فى الإسكندرية فى عصر السلفى ، وقد عرف معظم هؤلاء الشعراء للسلفى مكانته العلمية ، فقالوا القصائد الكثيرة فى مدحه والإشادة بعلمه ، وقد دأب السلفى على النص على هذه الحقيقة ، فهو يقول فى ترجمته هذا الشاعر أو ذاك :

« وله فى قصائد » أو « له فى قصائد جمّة » أو « وله فى مقطعات وشعر

كثير » أو « وله فى من القصائد ما يزيد على خمسين قصيدة » .

وقد ضمن كتابه نماذج من هذا الشعر .

ومما يستحق الالتفات أن النشاط الفكرى فى الإسكندرية على عصر السلفى لم يكن مقصوراً على الرجال وحدهم ، بل شاركت فيه المرأة مشاركة واضحة ، وقد ترجم السلفى فى « معجم السفر » لعدد من نساء المدينة المشتغلات بالعلم أو الأدب أو الشعر ممن أخذ هو عنهن أو ممن أخذن عنه ، وفى مقدمتهن محدثة كبيرة اسمها عائشة أو ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى ، روى السلفى عنها وقال :

« عائشة هذه محدثة ، وابنة محدث ، وأخت محدث ، وكانت صالحة ،

قرأنا عليها سنة ٥٣٤ » .

أما أختها الأخرى — وكانت محدثة أيضاً — : فاسمها خديجة ، وكانت

تدعى بمليحة ، روى عنها السلفى كما روى عن أختها ، وقال فى ترجمتها :

« خديجة هذه أبوها محدث ، وأخوها محدث ، وقد حدثت أختها

كما حدثت هى : ومن شيوخها ابن عبد الولى ، وابن الدليل ، وأبوها ،

ولها من أنى الوليد أنى محمد إجازة ، وقد قرأنا عليها عن هؤلاء كلهم ،

توفيت سنة ٥٢٦ وهى بكر لم تتزوج قط ، ووصت أن أصلى عليها

— رحمها الله ورضى عنها — وكانت فى حياتها تصلى طول الليل ولا تنام

إلا عن غلبة » .

وأخذ السلفى عن سيدة أخرى بمصر اسمها الخفزة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى ،

وكانت تدعى جديدة ، قال السلفى :

« وقرأنا نحن عليها عن أبي الحسن بن الطفال النيسابوري ، وأبي طاهر ابن سعدون ، وأبي الفيض ذي النون بن أحمد العصار المصري ، وغيرهم » .
ومن شاعرات الإسكندرية المجيدات تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري وكانت تدعى ست النعم ، قال السلفي :
« ولها شعر جيد ومعانٍ حسنة ، وقد مدحتني بقصائد كثيرة ، ولم أرَ قط شاعرة سواها » .

١٣

وكانت للسلفي في المجتمع السكندري مكانة ممتازة ملحوظة : وكان كبار رجال الدولة وموظفي المدينة يسعون إليه وإلى صداقته ، ويبجلونه ويحترمونه الاحترام كله ، فاتصل به من قضاة الإسكندرية : القاضي الشيعي أبو الوفا صادق بن عبد الله ابن كامل الأنصاري ، وصفه السلفي بأنه كان :
« من أهل الوفاء ، حسن العشرة ، عارفاً بالأحكام : وفي قضاء الإسكندرية مدة ثم استشهد » .
واتصل به أيضاً قاضي الإسكندرية المالكي أبو طالب أحمد بن عبد المجيد ابن حديد ، قال السلفي في ترجمته :
« أبو طالب هذا قلّ ما يرى مثله في أبناء جنسه رئاسة دينية وسياسة وفضلاً ونبلاً ، وكان سنياً مالكي المذهب عريق الرئاسة » .
ونقل السلفي في معجم السفر بعض الأخبار عن والي الإسكندرية أبي منصور قسطة الأمرى ووصفه بأنه كان :
« من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل ، الثابرين على مطالعة الكتب ، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين ، وكانت بيني وبينه مودة ومكاتبه » .
وكان السلفي أثناء اتصاله بهؤلاء الرجال الرسميين حريصاً الحرص كله ، فهم في معظمهم شيعة ، والدولة شيعية ، وهو سني شافعي ، ولهذا كان يُغضى عن مذهبهم ، ويقنع بصلات الود والصداقة التي تربطه بهم ، ويبعد ما استطاع أن

يخوض وإياهم في مناقشات دينية أو مذهبية ، وإذا أخرج واستطردوا أمامه في مناقشة من هذا النوع حاول بذكائه ولباقته أن يخرج من هذا الحرج دون أن يؤذى شعورهم ، روى هو خبر مناقشة من هذه المناقشات جرت بينه وبين والى الإسكندرية في أواخر العصر الفاطمي الأمير همام بن سوار اللخمي - أخى الوزير ضرغام - قال :

« قال لى يوماً الأمير همام بمحضر من جماعة من الأمراء : ما الخلفاء عندى سوى العلماء » .

وكأنه كان يستدرجه بهذا ليعرف رأيه فى الخلفاء الفاطميين ولكن السلفى كان لبقاً ، فقال :

« ما أبعد الأمير وفقه الله ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم ارحم خلفائى ، قالوا : يا رسول الله : ومن خلفائك ؟ ، قال : قوم يأتون من بعدى يروون أحاديثى وستى ويعلمونها الناس ، لكن النبي عليه السلام لما توفى ورث العلم والسيف ، فالعلم للعلماء يقولون ما أمر به الشارع ، والسيف للأمراء وجيوش الإسلام يأتمرون ذلك ، لكن بين من يقول أفعل ، وبين من فعل بون بعيد وفرق ظاهر ، ونحن الآن وأنتم وإن اختلفنا فى الزى فوارثان لإرث النبوة ، وكجسم واحد » .

ويعقب السلفى على هذا الحديث بقوله :

« فاستحسنوا وأثنوا بخير ، وأرضيتهم بهذا الفصل خوفاً من التشيع » .

بهذه اللباقة ، وبهذا الأسلوب فى المناقشة والإقناع استطاع السلفى أن يتمتع برضا الجميع ، وبحب الكبار قبل العامة ، يؤيد هذه الحقيقة قول السبكى :

« وكان له عند ملوك مصر الجاد والكلمة النافذة ، مع نخالفته لهم فى المذهب ، وكان لا تبدو منه جفوة لأحد » .

وقد عاصر الحافظ السلفى أثناء مقامه فى مصر عدداً كبيراً من خلفاء الفاطميين ، فقد وصل إلى الإسكندرية فى عهد الخليفة الأمر ، وشهد الدولة فى أخريات أيامها وهى تنحدر نحو الضعف والانحلال فى عهود الخلفاء الحافظ والظافر والفائز والعاقد ، ثم شهد زوال الدولة وقيام دولة صلاح الدين ، ولا شك أنه فرح الفرح

كله بقيام الدولة الجديدة ، فهي دولة سنية مغالية في تسننها ، وقد عرف صلاح الدين وأمرأه أسرته للسلفى مكانته ، وسعوا إليه في الإسكندرية — وقد امتد به العمر وأشرف على المائة — ليستمعوا إليه ويأخذوا عنه الحديث ، فقد روت المراجع أن صلاح الدين خرج إلى الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٥٧٢ وفي صحبته ولداه الأفضل على والعزیز عثمان وكبار رجال الدولة ، وقضوا هناك شهر رمضان وسمعوا فيه الحديث على أبي الطاهر أحمد السلفى وذكر المقریزی في كتاب السلوك أن ممن سمع الحديث عن السلفى الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين .

١٤

ومع هذا كله كان السلفى يلتزم خلق العلماء المصلحين الأوائل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وإذا رأى منكراً عمل على إزالته ومنعه ، قال الحافظ عبد القادر : « كان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، أزال من جواره منكراً كثيراً » ثم ضرب مثلاً لبعض المنكر الذى أزاله فقال : « جاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا : فمنعهم من ذلك ، وقال : هذه بدعة ، بل اقرأوا ترتيلاً ، فقرأوا كما أمرهم » . وقد استطاع السلفى بأسلوبه وشخصيته أن ينقذ كثيراً من الضالين ، فتأب على يديه عدد من أهل الإسكندرية عن بعض المعاصى التى كانوا يقارفونها ، قال السلفى في ترجمة أبى الحسن على بن عبد المعطى : « كان يحفظ من الشعر كثيراً ، وكان من أذكى البرية . . . وكانت له صبوة — أى كان يشرب الخمر — ثم تاب على يدي » . ثم استطرده قائلاً :

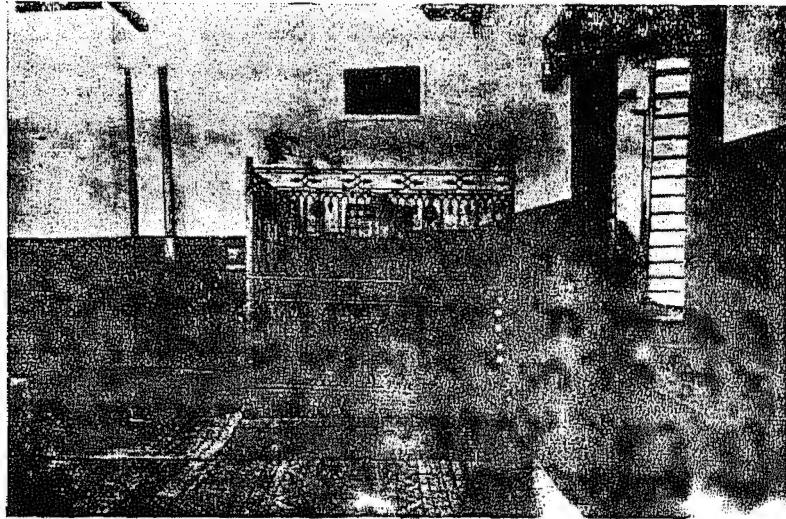
« وكان يجلب إلى واحدٍ بعد واحدٍ فيتوبون عن الشرب وغيره » .

أما العامة من أهل البلد فكانوا يعتقدون فيه الولاية لصلاحه وتقواه : وروى من أخباره أنه كان إذا اشتد الطلق بامرأة من أهل الإسكندرية أثناء وضعها جاء أهلها إلى السلفى فيكتب خم ورقة تعلق عندها فتتخلص بإذن الله : ولم يكن السلفى

بعمله هذا دجالاً ، ولم يكن وهو العالم المتمكن يعتقد في نفسه قدرة خارقة أو يؤمن بهذه الخرافات ، ولكن كان يرى أن هذه الورقة تطمئن من نفوس العامة وتؤثر في الولاية تأثيراً نفسياً خاصاً ، لهذا لم يكن يحجم عن كتابتها ، بدليل أن راوى القصة قال :

« إن القوم كشفوا مرة عن ورقة من هذه الورقات فوجدوه قد كتب فيها دعاء لطيفاً قال فيه : اللهم إنهم ظنوا بي خيراً فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم » .

وفي صبيحة يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ بلغ الكتاب أجله ، وانتقل عالم الإسكندرية الجليل وحافظها أحمد بن محمد السلفي إلى جوار ربه بعد أن جاوز المائة من عمره ، وقد ظل حتى آخر لحظة من حياته حافظاً لكل قواه العقلية ، حقيقة كانت السن قد نالت منه ، وكانت أعظمه قد جفت ، وكانت



مسجد سند بن عنان من الداخل
(وتقول الرواية الشعبية إن الحافظ السلفي مدفون بجوار الضريح الظاهر في الصورة) -

حركته قد قلت ، ولكنه ظل حاضر الذهن ، وقد قال هو بيتين من الشعر يصف حالته في أيامه الأخيرة . قال :

أنا إن بان شبابي ومضى ، فلربى الحمدُ ذهنيَ حاضرُ
ولئن تخفَّتْ وجفَّتْ أعظمي كبرا ، غصنُ علوي ناضرُ

وظل السلفي يدرس حتى آخر لحظة من حياته ، قال السبكي :
« ولم يزل يُقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو
يرد على القارئ اللحن الخفي : وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار
الفجر ، وتوفي عقيبها فجأة » .

ودفن السلفي في الإسكندرية في مقبرة وعلة قريباً من داره التي كان يسكنها
قال ابن خلكان :

« وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين
كالطرطوشي وغيره » :

ومن العجيب أن هذا العالم الكبير الذي بنى للإسكندرية مجداً علمياً لا يبلى
قد بليت مدرسته وبلى قبره ، فلانكاد نجد لهما أثراً فيها اليوم ، وإن كان بعض
أهالي الإسكندرية يرجحون أنه مدفون داخل مسجد القاضي سند بن عنان أمام
القبلة ، وهو قول يحتاج إلى بحث للتأكد من صحته .

وبعد ، فهذا هو عالم الإسكندرية وحافظها في القرن السادس الهجري ،
الحافظ أحمد بن محمد السلفي ، وقد أجمع مؤرخوه على وصفه بالفضل والتقى
والورع والشجاعة ، وعقدوا له جميعاً لواء الزعامة على محدثي عصره قاطبة ، قال
الحافظ ابن نصر :

« كان السلفي ببغداد كأنه شعلة نار في تحصيل الحديث » .

وقال ابن نقطة :

« كان حافظاً ثقة ، جوالاً في الآفاق ، سألًا عن أحوال الرجال
شجاعاً » .

وقال ابن السمعاني :

« هو ثقة ورع ، متقن مثبت ، حافظ فهم ، له حظٌ من العربية ، كثير الحديث ، حسن الفهم والبصيرة فيه » .

وقال ابن خلكان :

« لم يكن في آخر عمره في عصره مثله » .

وقال الذهبي :

« لا أعلم أحداً في الدنيا حدث نيفاً وثمانين سنة سوى السلفي » .

وقال السبكي :

« كان حافظاً جليلاً ، وإماماً كبيراً ، واسع الرحلة ، ديناً ورعاً ، حجة ثبنا ، فقيهاً لغوياً ، انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان » .

وقال ابن تغري بردي :

« وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشي حافياً لطلب العلم والحديث » .

أبو الحسن الشاذلي

تقي الدين علي بن عبد الجبار

(٥٩٣-٦٥٦ هـ) = (١١٩٧-١٢٥٨ م)

« عليكم بالسبب - أي العمل والسعي وراء الرزق -
وليجعل أحدكم مكوكة سبخته، أو تحريك أصابعه في
الحياطة أو الضفر سبخته »

أبو الحسن الشاذلي

« يا بني : برّد الماء. فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت
الحمد لله تقو لها بكرازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت
الحمد لله : استجاب كلُّ عضو فياثن بالحمد لله »
أبو الحسن الشاذلي

أبو الحسن الشاذلي

أبو الحسن الشاذلي عالم من أعلام الصوفية وقطب من أقطابهم : ولد في المغرب الأقصى وعاش معظم سني حياته في تونس ومصر : وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، ما زال أتباعها وتلاميذها ينتشرون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ويكونون فرقاً صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقة الأصلية التي أنشأها ونسبت إليه وهي الفرقة الشاذلية .

ولد أبو الحسن الشاذلي في أواخر القرن السادس الهجري في سنة ٥٩٣هـ في إقليم غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، وهو الإقليم الذي ينتمي إليه ولي الله سيدى عبد الرحيم القنأى .

وهو تقي الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار بن يوسف . وهو حسنى علوى ، أى أن نسبه ينتهى إلى الحسن بن على بن أبى طالب . نشأ أبو الحسن في قبيلة غمارة وفيها تلقى علومه الأولى وحفظ القرآن ، ثم أراد أن يستريد من العلم فرحل إلى تونس : لقد كانت مدن المغرب الأقصى الكبيرة مثل سبتة أو مراكش أو فاس أقرب إليه من تونس ، ولكنه أعرض عنها جميعاً وأبعد في الرحلة فذهب إلى تونس : ولتفسير هذا لا بد من إلقاء نظرة سريعة على الحالتين السياسية والعلمية في المغرب الأقصى وفي العالم الإسلامى بوجه عام على ذلك الوقت .

كان المذهب الشيعى قد انتصر في القرن الرابع الهجرى ، وبانتصاره قامت دولتان شيعيتان كبيرتان أصبحت لهما السيادة في طرفى العالم الإسلامى الشرق والغرب ، فالدولة الفاطمية في الغرب وتضم إليها بلاد المغرب جميعاً ومصر واليمن والحجاز والشام ، والدولة البويهية في الشرق ولها السيادة في العراق قلب الدولة العباسية نفسها .

وفي القرنين الخامس والسادس حدث رد فعل قوى ، وبدأ المذهب السنى يسود من جديد بعد أن ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية ، وقامت دول سنية كثيرة

كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان ، فكانت دول السلاجقة والأتابكة في الشرق ، ودولتا الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، ودولة الموحدين في المغرب والأندلس . وكان بعض حكام هذه الدول السنية مغالين في محافظتهم على المذهب السني ويرون في كل الحركات والآراء الفلسفية جنوحاً نحو العودة إلى المذهب الشيعي ، فهو مذهب كان يدرس الفلسفة وعلوم الأوائل ويتأثر بها إلى حد بعيد .

وهذا العصر بعينه هو العصر الذي شهد انقسام العالم الإسلامي إلى دول كثيرة شغل بعضها عن البعض الآخر ، وهو الذي شهد ضعف هذا العالم الإسلامي وجراً أوروبا المسيحية على اقتحام ربوعه في الشام على أيدي الصليبيين . وفي الأندلس على أيدي الراغبين في إعادتها إلى حظيرة المسيحية والقضاء على الدويلات الإسلامية القائمة بها .

في هذا الجو الغريب قويت الحياة الروحية ونشط التصوف وكثر المتصوفة ، فقد أحس المجتمع الإسلامي بعجزه عن حماية نفسه من المغيرين الوافدين من الخارج ، فراح المسلمون يبحثون عن قوة عليا يلجأون إليها في محنتهم ويحسون في كنفها بالأطمئنان النفسي ، فلجأوا إلى التدين وأغرقوا فيه وفي العبادة والزهد ، يلتمسون في هذا كله سكينه الروح وينسون في رحاب الله ما يكتشفهم من عوامل الفزع والقلق والاضطراب . ومن هنا نشطت الحركات الصوفية في القرنين السادس والسابع ، وانقسم المتصوفة في هذين القرنين إلى قسمين :

قسم حيي حياة روحية خالصة .

وقسم خلط التصوف بالفلسفة : والروح بالفكر .

وقد شهد المغرب عند نشأة الشاذلي به هذين النوعين من المتصوفة .

في مدينة فاس بالمغرب الأقصى كان يقيم في النصف الثاني من القرن السادس الصوفي الكبير الشيخ أبو يعزى بن يلسنور ، وكان الناس يفتدون إليه من الجميع أنحاء المغرب والأندلس ، يأخذون عنه ويستمعون إليه ويلتمسون منه البركات ، وفي مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمساني : فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالإقبال كل الإقبال على الصوم والزهد والصلاة والتشف والعبادة ، حتى

إذا قبس قبسة من روح أستاذه أبي يعلى رحل إلى المشرق ليقبس قبسات أخريات من شيوخ التصوف هناك . وعن سيدى عبد القادر الجيلانى قطب العراق بوجه خاص . وعاد أبو مدين إلى المغرب فأقام في بجاية ، وفاقته شهرته شهرة أستاذه أبي يعزى ولقبه القوم هناك بالغوث ، وتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محيى الدين بن عربى . والشيخ أبو عبد الله محمد بن حرّازم أحد شيوخ الشاذلى .

وكانت الدولة القائمة بالحكم في المغرب وقتذاك هي دولة الموحدين ، ومن ملوكها من كان راعياً للحياة الفكرية مشجعاً للعلماء والمفكرين ، ومنهم من كان مترمناً مضطهداً لرجال الفكر المشتغلين بالفلسفة ، فمن أمثلة النوع الأول الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان رجلاً واسع الفكر محباً للعلم صديقاً للعلماء ، والفلاسفة منهم بوجه خاص . فقرب إليه عدداً كبيراً ، وفي بلاطه عاش الفيلسوف المغربى ابن طفيل ، وهو واحد ممن حاولوا المزج بين الفلسفة والتصوف ، وهو مؤلف قصة حى بن يقظان التى حاول فيها أن يثبت أن العقل والشرع يؤديان إلى نتائج واحدة .

وابن طفيل هو الذى قدم للخليفة يعقوب صديقه الفيلسوف ابن رشد فرحب به وقربه إليه . وولاه قضاء أشبيلية .

ولكن المجتمع الإسلامى في المغرب وقتذاك لم يرض عن سياسة الخليفة الموحدى يعقوب ، فقد كان رد الفعل السنى ذا أثر قوى عليه : فذا كان المجتمع سنياً محافظاً ينكر الفلسفة والمشتغلين بها ، وقد استجاب الخليفة أبو يوسف يعقوب بن الخليفة السابق لرغبات المجتمع : فاضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر ، وأصابهم في عهده محن شديدة . فاتهم ابن رشد في عهده بالزندقة وحوكم في سنة ٥٩١ . واضطهد الصوفى الكبير أبو مدين وأرسل الخليفة يستدعيه من بجاية لحاكمته ، فأقن به مكبلاً بالحديد ، حتى إذا وصل تلمسان مرض ومات سنة ٥٩٤ .

هذا الجو الذى كان يشيع فيه ضيق الفكر ، ويسود فيه الكبت والاضطهاد والمحاكمة دفع الكثيرين من رجال الفكر والفلسفة والتصوف إلى الرحيل عن المغرب الأقصى ، وفي مقدمتهم محيى الدين بن عربى ، فقد رحل عن الأندلس والمغرب

في سنة ٥٩٨ هـ بعد أن شهد محنة أستاذه في الفلسفة ابن رشد وأستاذه في التصوف أبي مدين .

لم يكن غريباً إذن أن يشيخ الشاذلي بوجهه عن مدن المغرب الأقصى الكبيرة ويرحل إلى تونس ليستكمل علومه بها . فإنه يبدو أن الجو في تونس كان أصح منه في المغرب الأقصى ، وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك إلى حد ما ، وفيها على ذلك الوقت كان يقيم عدد كبير من أعلام المتصوفة من أمثال : الشيخ أبي محمد المهدوي ، والشيخ أبي سعيد الباجي ، وهما من تلاميذ الغوث ؛ وقد عاصر الشاذلي أثناء تلقيه العلم في تونس هؤلاء العلماء الأعلام . ولا شك أنه اتصل بهم وتلمذ عليهم وأخذ عنهم . وكان الجو في تونس كلها يضرع منه شذى تعاليم أبي مدين وروحانيته ؛ والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته . وقد تأثر الشاذلي بهذا الجو تأثراً شديداً وعشق التصوف وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين . ومنذ تلقى الطريقة من قبل في مدينة فاس على أبي عبد الله بن حرازم أحد تلامذة أبي مدين ولبس على يديه خرقة التصوف .

في هذا الجو الذي كانت تتجاوب في جنباته آراء الفلاسفة من أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن عربي ، وتنتشر في نواحيه روحانيات المتصوفة من أمثال القطب الغوث أبي مدين وأبي عبد الله بن حرازم وأبي سعيد الباجي ، في هذا الجو نشأ أبو الحسن الشاذلي نشأته الأولى ، وتلقى علومه الأولى ، ولكنه لم يكد يبلغ سن الشباب حتى أحس أن غلته لم تشف وأن ظمأه للعلم والمعرفة لم يشبع ، فاعتزم الرحلة إلى الشرق : لأداء فريضة الحج وزيارة الأرض الطيبة المقدسة والقبر الطاهر أولاً . ثم لإتمام علومه واستكمال دراسته على أيدي شيوخ الشرق ثانياً .

ولسنا نعرف متى رحل الشاذلي رحلته المشرقية الأولى على وجه التحديد ؛ ولكننا نحسبه بدأها حوالي سنة ٦١٥ هـ وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره . فإننا سنسمع بعد قليل أنه قابل شيخه أبا الفتح الواسطي في العراق في سنة ٦١٨ هـ . بدأ الشاذلي رحلته فدخل مدينة الإسكندرية . ومربأرض مصر ثم دخل الحجاز فأدى الفريضة . ثم زار فلسطين والشام والعراق . وكان في كل بلد يزوره يقصد من بها من العلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستمع إليهم . وكان أكثر اتصاله بالعباد والزهاد

والمتصوفة : وكان أكثر تأثره في رحلته هذه بالشيخ أبي الفتح الواسطي وهو من أكبر تلاميذ سيدي أحمد الرفاعي وكانت له منزلة عظيمة عند الرفاعية مما دعاهم إلى إرساله إلى مصر ليعمل على نشر طريقته فيها . ووصل أبو الفتح إلى الإسكندرية في سنة ٦٣٠ ، وأقام بها مدة يعظ الناس ويدعوهم إلى طريقته ، وكان يلقي دروسه في مسجد العطارين ، وقد قامت بينه وبين علماء الإسكندرية وفقهاءها مساجلات وخصومات علمية كثيرة . وتوفي بالإسكندرية في سنة ٦٣٢ وما زال ضريحه موجوداً بالقرب من ضريح أبي الدرداء .

وقد حزن الرفاعية في العراق حزناً بالغاً لوفاة الشيخ أبي الفتح الواسطي ، واختاروا قطباً آخر كان يقم بينهم في ذلك الوقت وأرسلوه إلى مصر ليتبرع طائفة الرفاعية بها ، وسيكون لهذا القطب شأن كبير فيما بعد وسينشئ له طريقة جديدة : ذلك هو القطب الكبير سيدي أحمد البدوي ، فقد أرسله الرفاعية في سنة ٦٣٥ من العراق إلى مصر ليشرف على شؤون الأتباع بها .

على هذا الشيخ العالم الكبير أبي الفتح الواسطي أخذ الشاذلي أثناء مقامه في العراق : واعترف أنه لم يلتق هناك من العلماء من هو خير منه قال : « دخلت العراق ولقيت جملة من المشايخ فلم أر أحسن من الشيخ أبي الفتح الواسطي » .

وقد كان الشاذلي أثناء تقلبه في بلدان الشرق لا يسعى لطلب العلم وحده ولكنه كان يبحث عن ضافته المنشودة ، يبحث عن القطب ، ويقوم آراء وأقوال كثيرة في القطب . فأول من قال به وتحدث عنه من المتصوفة « ذو النون المصري » ، ويبدو من أقوال المتصوفة أن الأقطاب في كل وقت كثيرون . وأن الرئاسة دائماً على هؤلاء الأقطاب لقطب واحد مفرد هو ما يلقبونه بالقطب الغوث . يبدو هذا واضحاً في حديث الشاذلي نفسه لأحد تلاميذه وهو شمس الدين بن كتيلة .

روى ابن كتيلة أنه كان جالساً يوماً بين يدي أستاذه الشاذلي فخطر له أن يسأله عن القطب فقال له :

« يا سيدي ما معنى القطب ؟ »

فقال الشاذلي :

« الأقطاب كثيرة ، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم . أما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد » .

وقد عرّف صاحب المفاخر القطب الغوث بأنه رجل عظيم وسيد كريم ، يحتاج إليه الناس عند الاضطراب في تبين ما خفى من العلوم المهمة والأسرار ، ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء ، لو أقسم على الله لأبره ، ولا يكون القطب قطباً حتى تجتمع فيه جميع صفات الأقطاب الذين هو رئيسهم » .

عن هذا القطب كان يبحث الشاذلي أثناء تجواله في الشرق ، فلما اطمأنت نفسه إلى شيخه أبي الفتح الواسطي فاتحه بدخيلة نفسه وحدثه عن أمنيته ، ولكن الشيخ أبا الفتح أخبره أن القطب في وطنه الأصلي ، في المغرب ، فإن كان يبحث عنه حقيقة فليعد إلى المغرب ، واستمع أبو الحسن إلى نصيحة شيخه وعاد إلى المغرب ، وظل يوالى الرحلة والبحث إلى أن التقى بالقطب : إلى أن التقى بشيخه وأستاذه الأكبر الذي أخذ عنه الطريق وليس على يديه خرقه التصوف : والذي ظل ينتسب إليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش .

ويستطرد الشاذلي في وصفه لمقابلته الأولى مع الشيخ أبي الفتح الواسطي فيقول : « وكنت أطلب القطب فقال لي : أتطلب يا علي القطب بالعراق وهو ببلاد المغرب ؟ ارجع إلى المغرب فإنك تجد القطب هناك ، فرجعت إلى المغرب واجتمعت بأستاذي عبد السلام بن مشيش » .

وبعد رحلة طويلة قابل الشاذلي أستاذه القطب سيدى عبد السلام بن مشيش ، وكانت مقابلته الأولى له في رأس جبل حيث يقيم مرابطاً ومتفرغاً للعبادة . وقد روى الشاذلي خبر هذه المقابلة قال :

« لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه برأس جبل ، اغتسلت وخرجت من علمي وطلعت إليه فقيراً ، وإذا به هابط علىّ ، فلما رآني قال : مرحباً بعلي بن عبد الله ابن عبد الجبار ، وذكر نسبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا علي : طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك ؟ أخذت منا علمي الدنيا والآخرة ؟ فأخذني الدهش ، وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله علي بصيرتي ، ورأيت له خوارق عادات وكرامات » .

استقرت نفس الشاذلى إذن . فقد قابل القطب الغوث ، وأدلى إليه بآية القطبية منذ اللحظة الأولى فقد ناداه باسمه ونسبه مكتملا . ووعده بأن يلقيه علمى الدنيا والآخرة . لهذا لزم الشاذلى أستاذه ملازمة تامة منذ هذه اللحظة يأخذ عنه ويتلمذ عليه ، فهاذا أخذ الشاذلى عن ابن مشيش ؟

أخذ عنه حب الله والفناء فى هذا الحب : فهو القائل :

« أدمن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو : كلما أفقت أو تيقظت شربت . حتى يكون سكرى به . وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس . بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله » .
وأخذ الشاذلى عن أستاذه ابن مشيش الإيمان والإيمان القوى الكلى بالله حتى يجد الله فى كل شيء فهو القائل :

« انظر ببصر الإيمان تجد الله فى كل شيء . وعند كل شيء . ومع كل شيء . وقبل كل شيء . وبعد كل شيء . وفوق كل شيء . وتحت كل شيء . وقريباً من كل شيء . ومحيطاً بكل شيء . بقرب هو وصفه . وبمحيطه هى نعمته . وعدٌ عن الظرفية والحد . وعن الأماكن . وعن الصحبة والقرب والمسافات . وعن الدور بالخلوقات . وامح الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن : وهو هو . كان الله ولا شيء معه . وهو الآن على ما عليه كان » .

وأخذ ابن مشيش تلميذه الشاذلى بأن يعرض عن الخلق وأن يلبجأ إلى الله وحده ، روى الشاذلى أنه كان فى إحدى سياحاته فألقى غاراً بيت فيه فسمع رجلاً يتحدث : فعجب من وجود إنسان فى هذا المكان المنعزل المهجور ولكنه لم يشأ أن يقلق هذا المتحدث فى الليل ، فبات عند مدخل الغار فلما كان السحر تيقظ أبو الحسن فسمع الرجل يدعو ربه بقوله :

« اللهم إن أقواماً سألوك إقبال الخلق عليهم وتسخيرهم لهم ، اللهم أنى أسألك إعراضهم عني وأعوجاجهم علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك » .
قال الشاذلى :

« ثم خرج الرجل من الغار فإذا هو أستاذى (ابن مشيش) ، فقلت له : يا سيدى إني سمعتك البارحة تقول كذا وكذا : فقال لى : يا على ، إنما خير لك

أن تقول : كن لي : بدلا من أن تقول سخر لي قلوب خلقك ، فإذا كان لك ، كان لك كل شيء » .

بهذه المبادئ الروحانية العليا التي تنادى العبد بأن يقبل على حب الله وأن يفنى في هذا الحب تخرج أبو الحسن الشاذلي على أستاذه ابن مشيش فقد قال أبو الحسن : « سألت أستاذي - رحمه الله - عن ورد المحققين ، فقال : عليك بإسقاط الهوى وصحبة المولى . وآية المحبة ألا يشتغل بحب بغير محبوبه » .

وأقبل الشاذلي - وهو في صحبة أستاذه - على العبادة . فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الإقبال على الخلق ، وأقبل على حب الله وفنى في حبه . فلما صفت نفسه وأصبح أهلا للولاية وورثة القطبانية أمره أستاذه أن يرحل عن فاس إلى تونس . وتنبأ له بما سيحدث له في مستقبل أيامه . فقال له :

« ارحل إلى إفريقية واسكن بها بلداً تسمى شاذلة . فإن الله يسميك الشاذلي ، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس . ويؤتي عليك من قبل السلطنة . وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد الشرق وترث القطبانية » .

ترك أبو الحسن مدينة فاس واتجه - تنفيذاً لأمر أستاذه - نحو تونس . وعند دخوله إليها تقابل مع رجل حطاب فقير هو أبو الحسن علي الأبرقي من أهل شاذلة وهي قرية قريبة من مدينة تونس : فصاحبه معه وخرج الرجلان واتجها نحو شاذلة . وفي الطريق رأى الأبرقي شواهد كثيرة من زهد الشاذلي وصلاحه . فأقبل عليه وقبل يديه وسأله الدعاء . وتقول الرواية إن بركات الشاذلي حلت برفيقه فأقبلت عليه الدنيا ووسع عليه في الرزق بعد ذلك .

ونزل أبو الحسن بطرف من أطراف شاذلة وقابل فيها أول من قابل الشيخ الصالح أبا محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي . وقد فرح الحبيبي بلقاء أبي الحسن فقد كان يترقب هذا اللقاء منذ مدة . قال الحبيبي :

« كنت أحضر بتونس مجلس سيدنا الشيخ العارف أبي حفص الجاسوس ، فأخذت بيده يوماً أطلب منه أن يقبلني تلميذاً له وقلت له : يا سيدي إني اتخذتك شيخى . فقال لي : يا بني ارتقب أستاذك حتى يصل من المغرب وهو شريف حسنى من كبار الأولياء . وهو أستاذك وإليه تنتسب ، فكنت أرتقب كل من يأتي

من الفقراء المغاربة وأصحبه ، إلى أن من الله على بلقاء الشيخ أبي الحسن فاتخذته شيخى وصحبته » .

وفي شاذلة تأسى الشاذلى بأستاذه ابن مشيش ، فلم يسكن فى القرية إنما لجأ إلى غار فى جبل زغوان المطل على شاذلة ، واتخذ هذا الغار رباطاً له يقيم ويتعبد فيه ، وكانت حياة الشاذلى فى هذا الغار كلها تقشف وزهد وإغراق فى العبادة ، وكان يشاركه هذه الحياة فى معظم الأوقات تلميذه الحديد الحبيبي .

وقد روى الحبيبي أنه أقام مرة مع أبي الحسن فى جبل زغوان أربعين يوماً كان يفطر فيها على العشب وورق الدقلى حتى تقرحت أشداقه ، فقال له أبو الحسن : « يا عبد الله كأنك اشتيت الطعام ؟ » .

فقال له :

« يا سيدى . نظرك إلى يغنيى » .

فقال أبو الحسن :

« غداً إن شاء الله نهبط إلى شاذلة وستلقانا فى الطريق كرامة » .

وأقام أبو الحسن فى شاذلة وطالت إقامته وذاعت شهرته وعرف الناس له فضله وصلاحه ووقواه وآمنوا بولايته ، وبدأ الجزء الأول من نبوءة أستاذه ابن مشيش يتحقق ، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلى وغلبت عليه هذه الشهرة ، وقصده الناس من الأماكن والبلدان المجاورة ، وبدأ يخرج عن رباطه بعض الوقت فيقيم بإحدى الدور فى مدينة تونس يدرس ويعظ وينشر دعوته وطريقته بين تلاميذه ومحبيه ومريديه .

ولم تكن تونس غريبة على أبي الحسن فقد دخلها من قبل طفلاً وأقام بها شاباً يافعاً ، وفيها تلقى دروسه الأولى ، وفيها كانت له مناظرات سابقة مع علماءها وفقهائها ، وقد وفد عليها هذه المرة رجلاً مكتمل الرجولة عالماً وافر العلم ، صوفياً صاحب حالات وكرامات ، لهذا لم يكن غريباً أن يقبل عليه الناس من كل حذب وصوب يغترفون من علمه ، ويتأدبون بأدابه ، ويستمعون إلى دروسه ومواعظه وتعاليمه ، ويلتمسون منه الدعاء والبركة ، فاتسعت حلقات دروسه وكثر أتباعه ومريدوه ، فكان إذا

جلس للدرس والوعظ تحلقوا حوله بالعشرات : وإذا سار أو انتقل ساروا في ركابه بالملئات .

قال المناوي في الكواكب الدرية :

« كان الشيخ أبو الحسن إذا ركب تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله ، وتنشر الأعلام على رأسه ، وتضرب الكاسات بين يديه » .

هذا الإقبال أثار حقد العلماء وحسد الفقهاء في تونس ، وجرّ على الشاذلي شرّاً كثيراً ، فتعرض لمحنة كبيرة ، فقد كان قاضي الجماعة وعالمها في مدينة تونس على ذلك الوقت هو أبو القاسم ابن البراء ، وقد ضاق ابن البراء بأبي الحسن عندما رأى الناس ينفضون من حوله وينحلّقون حول الشاذلي في كل مكان يحل به ، وآلمته هذه المواكب الحافلة تتقدمها الأعلام والكاسات والطبول كلما انتقل الشاذلي من مكان إلى مكان . فبدأ يكيد لأبي الحسن وسعى به لدى سلطان تونس أبي زكريا الحفصيّ ، واتهمه لديه بأنه يتآمر على سلطانه فهو حسني علوي ، ولعله يسعى لإقامة ملك لنفسه كما أقام الفاطميون ملكهم من قبل في تونس نفسها . ولم يقنع ابن البراء بهذه التهمة الخطيرة فاتهم أبا الحسن بتهمة أخرى لا تقل عنها خطورة . اتهمه بالزندقة والإلحاد والخروج على الدين : ليغري به علماء تونس وفقهائهم كما أغرى به السلطان .

قال صاحب درة الأسرار :

« دخل قاضي الجماعة ابن البراء على السلطان أبي زكريا فقال : إن ها هنا رجلاً من أهل شاذلة سرّاق الحمير يدعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمي ، ويشوش عليك في بلادك » .

كان ادعاء ابن البراء ماهراً مأكراً ، وكانت التهمة خطيرة ، ففي تونس أقام عبيد الله المهدي من قبل الخلافة الفاطمية ، والشيعه يؤمنون بفكرة المهدي المنتظر ، ومنذ زالت الخلافة الفاطمية وهم يتطلعون إلى إعادتها : وأبو الحسن الشاذلي ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب : والناس يؤمنون بقطبانيته ، وابن البراء لا يرى في كلمة القطب إلا أنها ستار يخفي وراءه معنى الإمام الفاطمي أو المهدي ، ولكن الحقيقة أن أبا الحسن لم يكن يعنى بالسياسة ولم يكن يفكر في الملك ، بل إنه

لم يكن يساير غلاة الشيعة في معتقداتهم ، فالشيعة لا يؤمنون إلا بعلي ، وينكرون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، أما أبو الحسن فقد كان يعترف بهؤلاء الصحابة الأجلاء وأنه يغترف من فضلهم ، فقد كان يجيب من يسأله عن شيخه بقوله : « أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش ، وأما الآن فأنا أستقي من عشرة أبحر : خمسة آدمية ، وخمسة سماوية ، فالخمسة الآدمية : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والنبي صلى الله عليه وسلم » .

على كل فإن السلطان أبا زكريا لم يأخذ بأقوال ابن البراء ، بل كان حكيماً عادلاً فأمر بأن يعقد مجلس يحضره أبو الحسن والعلماء والفقهاء ، وأن يناقش أبو الحسن في كل هذه الدعاوى وغيرها ، ويعطى الفرصة للدفاع عن نفسه . وعقد المجلس وحضره السلطان ، وجلس وراء حجاب . قال صاحب درة الأسرار :

« اجتمع ابن البراء وجماعة من الفقهاء في القضية . وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه ، وسأله عن نسبه مراراً : والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه في العلوم كلها فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها ، فما استطاعوا أن يجابوه عنها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم بالعلوم المكتسبة ويشاركهم فيها » .

وأفحم ابن البراء وصحبه . وعلت كلمة الشاذلى . واقتنع السلطان ببراءته ، بل آمن بولايته . فالتفت إلى ابن البراء ومن معه وقال لهم :

« هذا رجل من أكابر الأولياء وما لكم به طاقة » .

وأحسن ابن البراء بخرج الموقف . فقد كان أهل تونس جميعاً واقفين بالباب ، ينتظرون نتيجة المحاكمة ، فأراد أن يعود إلى تحريض السلطان على أبي الحسن وأن يخيفه من ثورة الناس إن هو أطلق سراحه ، فقال له :

« والله لئن خرج في هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجوك من بين أظهرهم . فإنهم مجتمعون على بابك » .

ولكن السلطان لم يعر هذا القول التفاتاً ، وأمر الفقهاء أن ينصرفوا ، واستبق الشيخ أبا الحسن ، ولبث معه وقتاً يحدثه ويلطفه ، إلى أن حضر أخو السلطان

أبو عبد الله اللحياني - وكان من المعتقدين في الشيخ - ، فأمره أن يصحب الشيخ إلى داره معززاً مكرماً .

خرج أبو الحسن من هذه المحنة منتصراً ، ولكنه بدأ يحس أن المقام لم يعد يطيب له في تونس ، فإنه توقع أن القاضي ابن البراء لا يمكن أن يخضع للهزيمة التي منى بها ، وأنه لا بد مدبر مكيدة أخرى ، وأن الفتنة توشك أن تنشب بين أتباعه وبين الفقهاء من أصحاب ابن البراء ، وهو رجل صوفي ينشد الصفاء والهدوء والحياة الصافية . لهذا أزمع على مغادرة تونس ، وأخذ يدبر الأمر للرحلة . وسمع السلطان بالخبير ، فتألم ، وقال لمن حملوا إليه الخبر :

« أي شيء يسمع به عن إقليمتنا ؟ ! لأنه أتاه ولى من أولياء الله فضاق عليه حتى خرج فاراً بنفسه » .

ثم أرسل إلى الشيخ أبي الحسن من يحاول أن يشنيه عن عزمه . ولكن الشيخ اعتذر اعتذاراً لطيفاً وقال لارسل :

« أنا ما خرجت إلا بنية الحج . وإذا قضى الله حاجتي أعود إن شاء الله تعالى » .

وعلى أساس هذا الوعد بالعودة إلى تونس بعد أداء فريضة الحج سمح السلطان للشيخ أبي الحسن بالسفر .

وقبل أن يغادر الشاذلي تونس أرسل إلى ابن البراء رسالة قصيرة بها جملة واحدة يسخر فيها منه ومن أطماعه وحقدده ، قال فيها :

« أتراني أوسع لك مدينة تونس ؟ ! »

ولكن ابن البراء كان قلبه لا يزال عامراً بالحقده على الشيخ أبي الحسن منذ منى بالخزيمة في مجلس السلطان : فدبر للشيخ مكيدة أخرى . لقد أعد رسالة إلى سلطان مصر ، وقع عليها معه عدد من الشهود وحدته فيها حديث الشيخ . واتهمه فيها بأنه شريف علوي وأنه يسعى إلى إعادة ملك الفاطميين . وقال في ختام الرسالة :

« إن هذا الواصل إليكم شوّش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم » .

وأمر حامل الرسالة أن يسرع بها ليصل إلى مصر قبل وصول الشيخ إليها . وكان سلطان مصر في ذلك الوقت هو الملك الكامل محمد الأيوبي : والأيوبيون

سنيو المذهب ، وهم الذين قضوا على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية في مصر ، وكان أخشى ما يخشونه الحركات الشيعية التي تعمل لإعادة الملك للفاطميين ، لهذا وجدت هذه الرسالة عند السلطان أذنًا صاغية . ولم يكذ الشيخ يصل إلى الإسكندرية حتى قبضت عليه السلطات المصرية . وأرسل محروساً إلى القاهرة . وعند وصوله إليها صعد به إلى القلعة حيث عقد السلطان مجلساً من القضاة والعلماء والفقهاء ، ووجه السلطان التهمة إلى الشيخ أبي الحسن وقال له :

« هذا عقد مشهود فيك : وجهه ابن البراء من تونس ، وعلامته فيه » .
ثم أطلعه على العقد .

وكانت محاكمة ثانية . وتحدث الشيخ فبهر الجميع بحديثه . وأخذ بألبابهم ، وخاصة الملك الكامل فقد كان رجلاً عالماً مثقفاً واسع الفكر ، فعرف للشيخ أبي الحسن مكانته . وأدرك أن التهمة مغرصة . ولم يجد في الشيخ شراً يخافه ، وخاصة أنه لم يكن معترفاً المقام في مصر . بل كان متجهاً في طريقه إلى الحج ، فقربه إليه وأكرمه . يقول الشيخ أبو الحسن :

« وأقمنا عنده - أي عند الملك الكامل - في القلعة أياماً . واهتزرت لنا الديار المصرية إلى أن طلعنا للحج » .

وبعد أداء فريضة الحج أسرع الشيخ أبو الحسن بالعودة إلى تونس . ترى هل نسي الشيخ ما فعله به ابن البراء وكيف سعى به لدى سلطان تونس ثم لدى سلطان مصر ؟ وابن البراء كان لا يزال حياً يمارس القضاء في تونس . إن الشيخ أبا الحسن لم ينس هذا كله . ولكنه عاد وفاءً بالوعد الذي وعده للسلطان أن يذهب للحج ثم يعود . وعاد لغرض آخر أهم من هذا كله : عاد ليلتقي بتلميذه وصفيه وخليفته أبي العباس المرسى . فإنه يروى عن أبي الحسن أنه قال :

« ما ردني إلى تونس إلا هذا الشاب » .

يقصد أبا العباس المرسى .

وكان أبو العباس قد خرج من مدينته سيبتة هو وأبوه وأمه وأخوه في سنة ٦٤٠ هـ يقصدون الحج . وحملتهم سفينة عبر البحر الأبيض ، ولكن السفينة غرقت بالقرب من بونة . وقدر لأبي العباس وأخيه أن ينجوا من الغرق ، فأتجها إلى تونس

واقاما بها إلى أن عاد إليها أبو الحسن الشاذلي ، فتعرف إليه أبو العباس ، ولازمه منذ ذلك الحين ، ولم يقم الشيخ في تونس طويلا هذه المرة ، بل سرعان ما صحب تلميذه ومريديه ورحل نهائيا إلى مدينة الإسكندرية في سنة ٦٤٢ هـ . ولقابلة التلميذ بالشيخ قصة يعيننا بها أن نعرف أن أبا الحسن كان يترقب هذه المقابلة وأنه كان قد ألقى إليه خبر أبي العباس واتصاله به منذ أمد طويل ، فقد قال لأبي العباس في ختام مقابله الأولى له :

« رفعت إلى منذ عشر سنين » .

وبعد أن تحققت النبوءة لم يعد هناك ما يربط الشيخ بتونس ، لهذا لم يمكث بها هذه المرة غير سنتين ، عمل في خلاهما على تصفية أموره ، فباع داره بها ثم أعد العدة للرحيل إلى الشرق ، وكان في هذا تحقيق للجزء الأخير من نبوءة أستاذه ابن مشيش التي كان قد ختمها بقوله « وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد الشرق وترث القطبانية » . وفي سنة ٦٤٢ أذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال إلى مصر ، فقد روى عن الشيخ أنه قال :

« رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا علي انتقل إلى الديار المصرية فإنك تربى فيها أربعين صديقاً » .

وكان الشاذلي قد مر بالديار المصرية مراراً أثناء روحاته السابقة إلى الحج وغدواته منه ، وقد أعجب ولا شك أثناء زيارته هذه بمدينة الإسكندرية ، ولهذا أثر أن يحط رحاله بها ، وكان في صحبته عند رحيله عدد كبير من تلاميذه ومريديه الذين آثروا صحبته على البقاء في أوطانهم . وكان في مقدمتهم تلميذه الأثير أبو العباس المرسى ، وخادمه الأمين أبو العزائم ماضي بن سلطان ، والحاج محمد القرطبي ، وأبو عبد الله البجائي ، وأبو الحسن البجائي ، والحرارز ، وغيرهم كثيرون . وكان الركب وهو في طريقه إلى الإسكندرية يتزايد عدده كلما مر بمدينة من المدن ، فينضم إليه الأنباغ والمريدون يؤثرون الرحلة مع الشيخ على البقاء في أوطانهم ، يلتمسون في صحبته البركة ، وكانوا أثناء السير يتسابقون على القرب من دابته ، ويتقصون الوقت في السمر والحديث اللطيف ، وعين الشيخ ترقبهم من بعيد ، وأذنه تستمع إلى حديثهم فيشاركهم مرة ويعلن إعجابه بما يسمع مرة أخرى .

روى صاحب المفاخر العلية أن رجلين كانا يمشيان قريباً من دابة الشيخ يستظلان برجله ، فقال أحدهما للآخر يعاتبه :

« يا فلان ، رأيتُ فلاناً يسىء معك العشرة وأنت له محسن ؟ »

فقال صاحبه :

« إن فلاناً هذا من بلدى ، وأنا أتمثل فى معاملتى له بقول مجنون ليلى :

رأى المجنون فى البيداء كلباً . فـَجَرَ له من الإحسان ذبيلاً

فلاموه على ما كان منه . وقالوا : كم أنلت الكلب ذبيلاً !

فقال : دعوا الملامسة ، إن عيى رأته مرةً فى حى ليلى »

وسمع الشيخ - رضى الله عنه - حديث الرجلين : فأعجبه : وأخرج رأسه

من المحارة وقال للرجل :

« أعد يا بنى ما قلت . »

فأعاد الرجل مقالته : فاهترت نفس الشيخ طرباً : وأخذ يتمايل فى مكانه وهو

يردد البيت الأخير :

دعوا الملامسة إن عيى رأته مرةً فى حى ليلى

ثم خلع غفارته وألقاها إلى الرجل وقال له :

« خذها يا بنى وابسها فأنت أولى بها منى : جزاك الله خيراً يا بنى على حسن

عهدك . »

هذه القصة الطريفة تدل على أن الشيخ كان ذا ذوق أدبى رفيع ، يطرب للقول

الجميل وللمعنى السامى : كما تدل على الأسلوب الذى كان يصطنعه لتأديب

مريديه وأتباعه فهو لا يترك فرصة - وإن كانت عارضة - إلا انتهزها للمكافأة

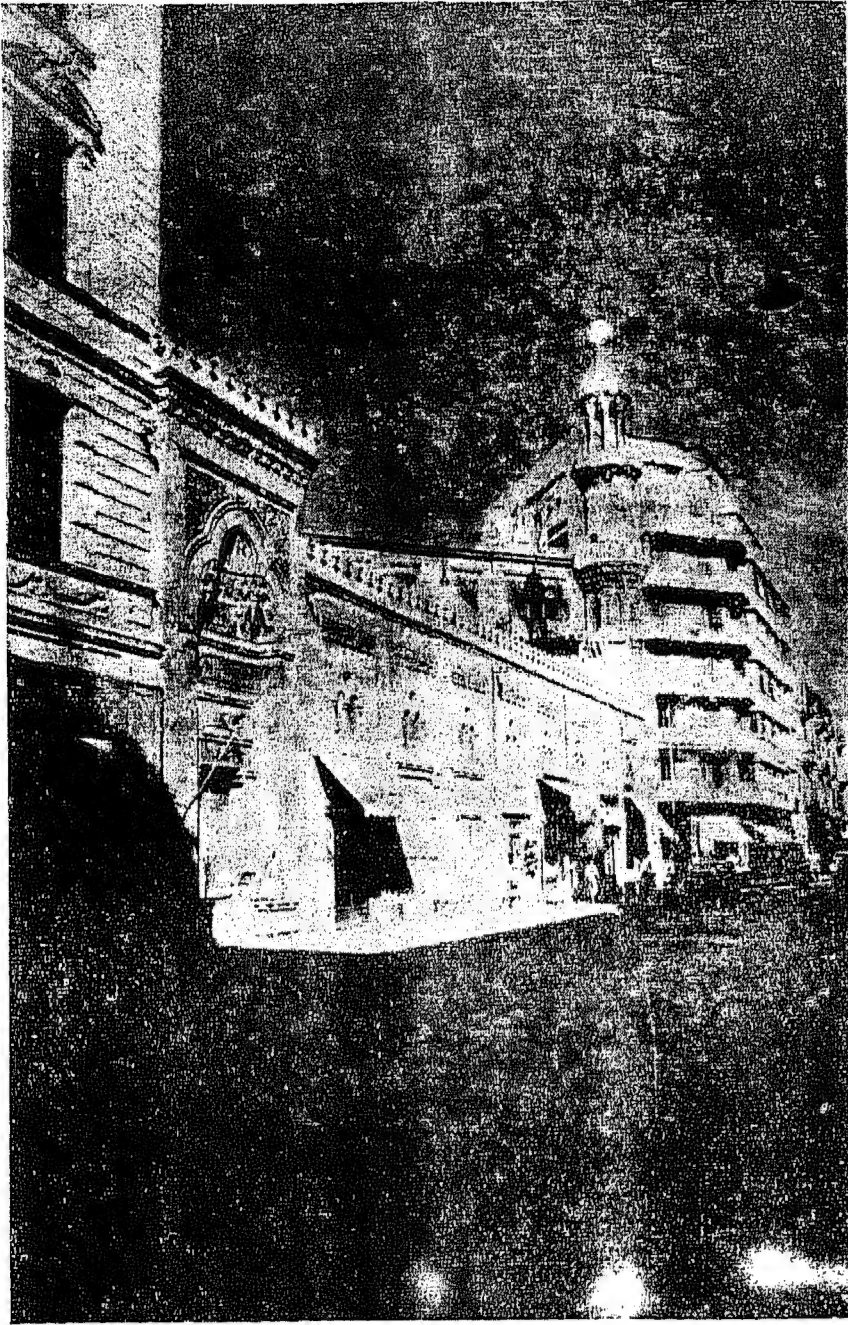
على الخلق الكريم ، ليتسابق الكل فى التحلى به ، والاقتداء بصاحب المكافأة .

وقد وصل الشيخ أبو الحسن وركبه وصحبه إلى عمود السوارى ودخلوا الإسكندرية

من باب سيدة المقابل لهذا العمود ، واتخذ الشيخ له داراً يقيم فيها بالقرب من كوم

الديماس - كوم الدكة الحالى - .

وبدأ الشيخ يلقي دروسه ويعقد الحلقات يعظ الناس ويدعو إلى طريقتة ومبادئه ،



مسجد العطارين من الخارج
وفيه كان أبو ميمس المري يعقد حلقات دروسه عند وصوله إلى الإسكندرية

وجذبت إليه هذه الدروس والمواظب الجليلة من علماء المدينة وفقهائها وفضلائها فلازموها ملازمة تامة : وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية في المدينة ، نذكر منهم تلميذه الأثير أبا العباس المرسى . والشيخ مكين الدين الأسمر ، والشيخ عبد الحكيم بن أبي الحوافر . والشيخ أبا القاسم القباري ، والشيخ أمين الدين جبريل ، والشيخ ابن المنير . والشيخ شرف الدين البوفى وكثيرين غيرهم . وكان الشيخ يعقد حلقات درسه في مسجد العطارين ، وهو أقرب المساجد إلى داره ، وقد روى صاحب المفاخر العلية أن الشيخ كان يعقد كل ليلة في داره مجلساً يأتي الناس إليه من البلد يسمعون كلامه .

وقد أخذ الشيخ أبو الحسن الشاذلى تلاميذه ومريديه بالمبادئ المثلث في التصوف : فهو لم يكن يفهم التصوف كما كان يفهمه بعض معاصريه وبعض المتدروشين حتى اليوم على أنه بطلالة تامة بحجة الزهد والتفرغ للعبادة : بل كان يفهمه على أنه صفاء تام في النفس وتقوى خالصة لله وحب لله تعالى وتعلق به . وارتفاع بالروح وبالعمل وبالقول عن الدنيا .

وهذا كله لا يمكن أن يقعد الإنسان عن السعى والعمل وطلب الرزق ، وكان يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر فهو نوع من الادعاء . ولكي يضرب لأتباعه المثل والقُدوة كان يحيا هو حياة نظيفة منعمة : فكان يلبس فاخر الثياب : ويركب فاره الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد : وكان يكره أن يلبس الصوفية الملابس المرقعة التي اصطلاح الفقراء وأهل الطريق على لبسها : لأنه كان يرى أن هذا اللباس ينادى على صاحبه : أنا الفقير فأعطوني شيئاً : وينادى على سره بالإفشاء ، ومن لبس الزنى واتخذ المرقعة في رأيه فقد ادعى . ومن أقواله :

« ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة : وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية ” وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون “ » .

ودخل على الشيخ أبي الحسن مرة فقير عليه ملابس شعر : فلما فرغ الشيخ من كلامه : دنا منه ذلك الفقير وأمسك ملابسه وقال : « يا سيدى ما عبُد الله بهذا اللباس الذى عليك ؟ »

فأمسك الشيخ بملابس الفقير فوجد فيها خشونة فقال له :
« ولا عبُد الله بهذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول للناس أنا غنى عنكم
فلا تعطوني ، ولباسك يقول أنا فقير إليكم فأعطوني » .

• وكان أبو الحسن يدعو أتباعه إلى العمل والسعى ، ويكره المريد المتعطل الذى
يركن إلى البطالة ويرتزق من سؤال الناس ، فالإسلام دين عزة وكرامة وجد عمل ،
وهذه الطرق الصوفية فى رأيه لا يجب أن تخرج عن التعاليم الأساسية للإسلام ،
وإن كان لها من هدف بعد هذا فإنما هو الدعوة إلى صفاء النفس وتقوى الله ،
بل إنه كان يغالى فىرى فى العمل نوعاً من العبادة بل هو خير عبادة ، إنه التسبيح
الدائم باسم الله ، لهذا كان يقول لمريديه :

« عليكم بالسبب — أى العمل والسعى وراء الرزق — وليجعل أحدكم مكوكه
سبحته أو تحريك أصابعه فى الخياطة أو الضفر سبحته » .
وقال ابن عطاء الله السكندرى :

كان الشيخ أبو الحسن يكره المريد المتعطل : ويكره أن يسأل تابعه الناس .
وقد كان جواداً بما يملك ، وكريماً يكره البخل ، ويحث على طرق باب الأسباب
والعمل » .

وكان الشيخ يرى أن عبادة الله لا تستلزم أن تشق على نفسك وتعذبها وتكلفها
من أمرها شططا : فإنك إذا حمدت الله وأنت متألم مما بك من فقر وفاقة أو مما تحس
من تقشف وخشونة فإن حمدك يكون مشوباً بالمرارة والضيق : ولكنك لو حمدته
ونفسك راضية مرضية بما يحيط بك من نعم الله الوفيرة . وروحك هادئة مطمئنة بما هو
مبسوط لديك من خيرات الله العظيمة : فإن حمدك يكون صادراً من القلب
والنفس والروح والجسم جميعاً ، بل إن كل عضو من أعضائك يشارك فى هذا
الحمد : وما أجمل قول أبى الحسن فى هذا المعنى :

« يا بنى : برّد الماء ، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها
بكرازة : وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله : استجاب كل عضو فيك
بالحمد لله » .

لم يقصر أبو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الإسكندرية وحدها . بل كان دائم الرحلة إلى المدن المصرية الكبرى ، فتردد أول ما تردد على مدينة دمنهور أقرب المدن إلى الإسكندرية . وقد زوج ابنته رقية إلى رجل فاضل من أهلها هو الشيخ علي الدمنهوري . ثم زار دمياط والمنصورة : وزار معظم مدن الوجه القبلي الكبرى في سفراته العديدة للحج : وتردد كثيراً على العاصمة القاهرة . وفي كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس في أمور دينهم ولتنشر مبادئه ودعوته . وكانت أهم هذه الحلقات هي الحلقات التي عقدها بمدينة القاهرة ، وتذكر المراجع أنه كان يلقي دروسه بها في مسجد المقياس بجزيرة الروضة ، أو في المدرسة الكاملية وهي المدرسة التي بناها السلطان الملك الكامل محمد الأيوبي لتدريس علوم الحديث خاصة .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بنخبة ممتازة من العلماء الكبار من أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام العالم القوي الجريء . وتقي الدين بن دقيق العيد أحد علماء مصر وقضاها . وعبد العظيم المنذرى المحدث الكبير وشيخ المدرسة الكاملية : ومحبي الدين بن سراقه — وهو علم آخر من أعلام المدرسة الكاملية — ، والشيخ الورع التقي مكين الدين الأسمر شيخ القراء بالإسكندرية . وأبي عمرو عثمان بن الحاجب من أبرز علماء العصر بالنحو وعلوم العربية . وابن الصلاح مفتي الشام ومحدثها على ذلك الوقت .

وكان هؤلاء وكثيرون غيرهم يجلسون إلى الشيخ أبي الحسن يستمعون إلى دروسه وشروحه ومواعظه : وكثيراً ما كانت تدور بينه وبينهم المناقشات العامة والمساجلات الصوفية الطريفة المفيدة : وقد اعترفوا له جميعاً بالعلم والفضل والتقوى والقرب من الله سبحانه وتعالى . قال الشيخ مكين الدين الأسمر :

« مكثت أربعين سنة يشكل عليّ الأمر في طريق القوم : فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عني إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلي : فأزال عني كل شيء أشكل عليّ ، ورأيت الناس يدعون إلى باب الله : وأبا الحسن يدخلهم على الله تعالى » .

وقال عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد :

« ما رأيت أعرف بالله من الشيخ الشاذلى » .

وقال الشيخ بدر الدين بن جماعة :

« إن بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها » .

هذه هى حلقات الدروس التى كان يعقدها أبو الحسن الشاذلى فى مدن مصر الكبرى وخاصة الإسكندرية والقاهرة : ونستطيع أن نتعرف من أخباره المتناثرة فى الكتب التى ترجمت له على الكتب التى كان يقرأ ، أو يدرسها أو يشرحها فى هذه الحلقات ، وهى من أمهات الكتب التى وضعها كبار المتصوفة الذين عاشوا قبله . ومنها على سبيل المثال :

كتاب ختم الأولياء للحكيم محمد بن عبد الله الترمذى من رجال القرن الثالث .

وكتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى من رجال القرن الرابع .

والرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى . وإحياء علوم الدين لحجة الإسلام

أبى حامد الغزالى — وهما من رجال القرن الخامس — .

وكتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض من رجال القرن

السادس .

وقد كفّ بصر الشيخ أبى الحسن بعيد وصوله إلى مصر بقليل ، ونستطيع أن

نقول إنه أصيب بهذه الملمة فى سنة ٦٤٦ هـ على وجه التحديد ، أى بعد وصوله

إلى مصر بأربع سنوات ، فقد روى صاحب كتاب المفاهر العلية أنه لما كفّ بصر

الشيخ دخل عليه تلميذه أبو العباس المرسى فقال له الشيخ :

« يا أبا العباس : انعكس بصرى فى بصيرتى ، ففصرت كلّى مبصراً ، بالله الذى

لا إله إلا هو : ما أترك فى زمانى أفضل من أصحابى : وأنت والله أفضلهم » .

ثم سأله :

« كم سنك يا أبا العباس ؟ »

قال :

« يوشك أن يكون ثلاثين » .

قال الشيخ :

« بقيت عليك عشرة أعوام وترث الصديقية (القطبانية) من بعدى » .

فإذا عرفنا أن أبا العباس ولد سنة ٦١٦ . فإننا نستطيع أن نؤرخ لهذا الحديث سنة ٦٤٦ هـ فقد إقوال أبو العباس إن سنه وقتذاك كانت ٣٠ سنة ، ونحن نعرف أيضاً أن الشيخ أبا الحسن توفي سنة ٦٥٦ وقد ورث القطبانية بعده أبو العباس وقد بشره الشيخ أبو الحسن في هذا الحديث أنه يرثها بعد عشر سنوات : فإذا طرحنا عشر سنوات من سنة ٦٥٦ وصلنا إلى ٦٤٦ .

والراجح أن الشيخ أصابه مرض مما يصيب العين أنقذه بصره ، ويقول الأستاذ السندوني إنه أصيب أثناء أيامه بالماء فغشى على بصره : ولكن القوم يعللون هذه الإصابة تعليلاً آخر . روى ابن الصباغ عن الشيخ جمال الدين القرافي أحد أصحاب الشيخ أن الشيخ أبا الحسن قال له مرة في شرح السبب الذي من أجله فقد بصره : « لقيت بعض الأولياء في إحدى سياحاتي : فعرضت عليه كلاماً في التوحيد ، فصاح الرجل ومات ، فقيل لي :

« يا علي لم فعلت ذلك ؟ لتعاقبن بذهاب بصرك » .

وفي سنة ٦٤٧ أملت بمصر ملعة كبرى . فقد وصلت إليها حملة من الحملات الصليبية الكبرى هي حملة الملك لويس التاسع . واستطاعت هذه الحملة أن تستولى على دمياط ، واتجه الملك الصالح نجم الدين أيوب جنوباً إلى مدينة المنصورة وعسكر بجيوشه شمالها : غير أنه لم يلبث أن اشتد به المرض ومات : فأخفت زوجته شجر الدر موته ، وأرسلت فاستدعت ابنه تورانشاه من حصن كيفا .

وكان المصريون جميعاً في ذلك الوقت في هم عظيم يترقبون نتائج الحرب بنفوس ملؤها الخوف : وكانت الأنظار كلها تتمجه إلى مدينة المنصورة مقر الدفاع . ووجد علماء البلد أن من واجبه أن لا يتخلفوا عن موضع الخطر : فسارعوا جميعاً إلى مدينة المنصورة يثبتون من جأش الشعب : ويبعثون الحمية في نفوس الجند المخربين . ويثيرون فيهم روح الجهاد للذود عن الوطن وحرية : وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي .

وتقول الرواية إن الشيخ كان يجتمع أثناء مقامه في المنصورة بغيره من علماء البلد في خيمة يتدارسون ويتناقشون في أمور الدين وعلومه : وكانت الصدارة في هذه المجالس للشيخ أبي الحسن .

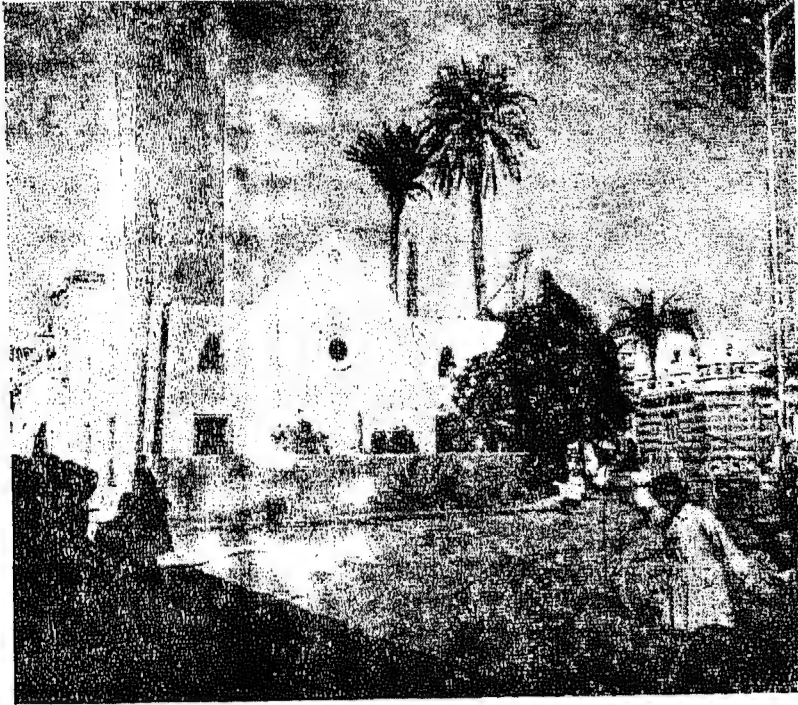
روى ابن عطاء الله السكندري في كتابه لطائف المنن عن الشيخ مكين الدين الأسمر أنه قال :

« حضرت بالمنصورة في خيمة فيها مفتى الأنام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري المدرس ، والشيخ محي الدين بن سراقه ، والشيخ مجد الدين الأخيمي . والشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ورسالة القشيري تقرأ عليهم ، وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت ، إلى أن فرغ كلامهم ، فقالوا : يا سيدى نريد أن نسمع منك ، فقال - تواضعاً - : أنتم سادات الوقت وكبرائه وقد تكلمتم . فقالوا : إلا بد أن نسمع منك : قال : فسكت الشيخ ساعة ، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال : اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله . وكان الشيخ يقضى وقته كله في المنصورة - المستيقظاً ونائماً - ولا تشغل باله وفكره إلا هذه الملمة التي توشك أن تنزل بمصر والإسلام ، إلا هذه الحرب الطاحنة الدائرة رحاها بين عدوة وافدة من الخارج وجيشاً مجاهداً باسل يدافع عن الوطن والإسلام ، فكان الشيخ إذا نام تكاثرت عليه الأحلام يرى فيها ما يشغله في اليقظة ، ويلتمس في عالم الروح مخرجاً من هذه الأزمة ، إلى أن وافته البشرية أخيراً ، وأتاه الرسول عليه السلام يبشره بالنصر .

روى صاحب درة الأسرار على لسان الشيخ أبي الحسن نفسه أنه قال :
« كنت بالمنصورة فلما كانت ليلة الثامن من أذى الحججة بت مشغولاً بأمر المسلمين ، وبأمر الثغر خصوصاً - يعني دمياط - وقد كنت أدعو الله وأنصرع إليه في أمر السلطان والمسلمين ، فلما كان آخر الليل رأيت فسطاطاً واسع الأرجاء عالياً في السماء ، يعلوه نور ، وتزدحم عليه خلق من أهل السماء - وأهل الأرض عنه مشغولون - فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ ، فقالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبادرت إليه بالفرح ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحواً من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص ، والفقيه الكمال بن القاضي صدر الدين ، والفقيه المحدث محي الدين

ابن سراقه . والفقير عبد الحكيم بن أبي الحوافر . ومعهم رجالان لم أعرف أجمل منهما غير أني وقع لي ظن في حالة الرؤيا أنهما الفقيه زكي الدين عبد العظيم المحدث . والشيخ مجد الدين الأحمسي . وأردت أن أتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فألزمت نفسي التواضع والأدب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت لا يصلح لك التقدم قبل عالم الأمة في هذا الزمان . فلما تقدم الجميع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إليهم يميناً وشمالاً : أن اجلسوا . تقدمت وأنا أبكي بالحلم وبالفرح : أما الفرح فمن أجل قربى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسب ، أما الحزن فمن أجل المسلمين والثغر . وهم طلبي إليه صلى الله عليه وسلم . فمد يده حتى قبض على يدي وقال :



مسجد مكين الأسير
(تلميذ أبي الحسن الشاذلي)

” لا تهم كل هذا الحزن من أجل الثغر . وعليك بالنصيحة لرأس الأمر — يقصد السلطان — فإن ولي عليهم ظالم فما عسى ؟ — وجمع أصابع يده الخمس

فى يده اليسرى ، كأنه يقلل المدة - ، وإن ولى عليهم تقي "فالله ولى المتقين" .
وبسط يده اليمنى واليسرى ، وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون ،
وقال : "ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون" وأما الساطان
فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما ولى أهل ولايته ، ونصح المؤمنين من عباده :
فانصحه واكتب إليه ، وقل فى الظالم عدو الله قولاً بليغاً ، "واصبر إن وعد الله حق
ولا يستخفك الذين لا يوقنون" .

فقلتُ : نُصِرنا ورب الكعبة . وانتبهت .

هذه الرؤيا تدل على أن الشيخ أبا الحسن كان يقض مضجعه هذا الخطر
الجاثم على ثغر دمياط والزاحف نحو الجنوب ، يدعو الله مخلصاً فى بقلته وفى منامه
أن يكشف الغمة ويغيث الأمة . ولم تنقض أيام قليلة حتى تحققت بشرى الرسول
عليه السلام ، وانتصر المصريون ، وهزم الفرنجة وأسر ملكهم لويس التاسع ، ثم
جلوا جميعاً عن مصر بعد قليل .

كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى أشد الناس فرحاً بهزيمة الصليبيين ورحيلهم
عن مصر ، وقد عاد بعد هذا إلى الإسكندرية ، وتابع فيها سيرته الأولى فى الحياة
يدرس ويعظ ويتعهد أرواح تابعيه ومريديه بالتهذيب .

وأصبحت لأبى الحسن مكانة مرموقة فى المجتمع المصرى يقصده الكبار ورجال
الدولة والعلماء والعامة فى حاجاتهم : يقصده الكبار والعلماء يستزيدون من علمه
وتعاليمه . ويقصده الصغار والعامة يلتمسون منه البركة ويستشفعون به لدى رجال
الدولة لقضاء مطالبهم .

وكان الشيخ لا يرد إنساناً يقصده بل يسعى لإجابة كل إلى مطلبه : روى ابن
عطاء الله أن فقيهاً من طلاب العلم قصد الشيخ مرة يستشفع به لدى القاضى
تاج الدين بن بنت الأعز كى يزيد فى راتبه عشرة دراهم ، فذهب الشيخ إلى تاج
الدين ، وأكبر تاج الدين مجيئه إليه فأسرع يرحب به وسأله فم مجيئه : فقال الشيخ :
« من أجل فلان الطالب كى تزيده فى مرتبه عشرة دراهم » .

فحاول القاضى أن يعتذر ، وشرح للشيخ كيف أن لهذا الطالب مرتبات أخرى
من جهات متعددة . فقال له :

« يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا : وفى المكان الآخر كذا ، وفى
الموضع الفلانى كذا وكذا » .

ولكن الشيخ لم يقتنع بهذا الجواب وقال للقاضى :

« يا تاج : لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيدده إياها : فإن الله تعالى
لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاءً حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم » .

وكان الشيخ يحمل نفسه المشاق — على كبر سنه — فى سبيل قضاء حاجات
أتباعه ومريديه ورعاية شؤونهم ، روى ابن عطاء الله أيضاً أن أحد أتباع الشيخ
فى الإسكندرية أصابه رمد فى عينه ، فاستدعى له الشيخ طبيباً يهودياً من أطباء
الثغر لمعالجته ، ولكن الطبيب اعتذر عن مباشرة العلاج وقال للشيخ :
« لقد جاء مرسوم من القاهرة أنه لا يداوى أحد من الأطباء إلا بإذن من
مشارف الطب بالقاهرة » .

فلما خرج الطبيب قال الشيخ لخدامه :

« هيتوا أسباب السفر » .

وسافر فى الحال إلى القاهرة . وحصل على الإذن للطبيب . وعاد مسرعاً إلى
الإسكندرية ، ولم يبت خارجها إلا ليلة واحدة . واستدعى الطبيب ، وأطلعه على
الإذن ، فأكثر الطبيب اليهودى التعجب من هذا الخلق الكريم ، ثم أخذ فى شأنه
ومباشرة للعلاج .

وروى ابن عطاء الله أنه سمع الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول :

« جهل ولاية الأمور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، لكثرة
تردده فى الشفاعات » .

وعلق ابن عطاء الله على هذا رأى بقوله :

« ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقوى عليه إلا عبد متخلق بأخلاق الله :
بذلك نفسه وأذنها فى مرضاة الله : وعلم وسيع رحمة الله فعامل عباد الله ممتثلاً لقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض
يرحمكم من فى السماء" .

ومع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان واسع العلم والمعرفة ، يستمع إليه كبار علماء عصره فيبهرهم حديثه ، أبو يقول كبيرهم الشيخ عز الدين ابن عبد السلام : « اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

مع هذا فإنه لم يعرف أن أبا الحسن ألف كتباً ، وكل ما وصل إلينا من آثاره العلمية الصوفية هو ما نقله أصحابه عنه من وصايا وأقوال مأثورة وأدعية وأحزاب وأوراد ، وكان الشيخ يرى أن كتبه هي تلاميذه : وأنه خير له أن يخرج على يديه تلميذ يفهم عنه علومه وروحانيته من أن يؤلف كتاباً قد يقرأه البعض أولاً يقرأونه : وقد يفهمه البعض ويعجز عن فهمه البعض الآخر .

روى ابن عطاء الله أن أحد الأتباع سأل الشيخ مرة :

« لم يا سيدي لا تضع الكتب في الدلالة على علوم القوم » .

فأجاب الشيخ : « كُتبي أصحابي » .

غير أن الأقوال والأحزاب التي وصلتنا عن الشيخ تدل على أنه كان قد رقى قلبه ورق حتى لم يعد يشغله غير حب الله سبحانه وتعالى : « وأن نفسه صفت وصفت حتى لم تعد تلجأ إلا إلى الله سبحانه » : « وأن روحه علت وعلت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى الله سبحانه » .

وهذه الأحزاب تدل كذلك على أن أبا الحسن كان أديباً ممتازاً ذا أسلوب جميل رائع : فلاني لا أكاد أعرف أني قرأت في الأدب الصوفي المأثور أجمل مما قال الشيخ أبو الحسن في حزب البر . استمع معي إليه وهو يقول :

« اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك .

وقلباً منعماً بشكرك .

وبدناً هيئاً لينا بطاعتك .

وأعطنا مع ذلك ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت : ولا خطر على قلب بشر

— كما أخبر به رسولك صلى الله عليه وسلم — حسب ما عامته بعلمك .

واغننا بلا سبب .

واجعلنا سبب الغنى لأولياتك .

وبرزخاً بينهم وبين أعدائك .

إنك على كل شيء قدير .
 اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً .
 ونسألك قلباً خاشعاً .
 ونسألك علماً نافعاً .
 ونسألك يقيناً صادقاً .
 ونسألك ديناً قيماً .
 ونسألك العافية من كل بلية .
 ونسألك تمام العافية .
 ونسألك دوام العافية .
 ونسألك الشكر على العافية .
 ونسألك الغنى عن الناس .

واستمع إلى هذه المناجاة الإلهية في قوله :
 « اللهم وأرأف بنا رافة الحبيب بحبيبه عند الشدائد وفزولها .
 وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها . . .
 اللهم وباعد بيننا وبين العناد والإصرار والشبه بإبليس رأس الغواة .
 واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت .
 ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت .
 فالإحسان لا ينفع من البغض منك .
 والإساءة لا تضر مع الحب منك . . .
 اللهم رضا بقضائك .
 وصبرنا على طاعتك وعن معصيتك وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك .
 وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك . ولا نرجو غيرك . ولا نحب
 غيرك : ولا نعبد شيئاً سواك .
 وأوزعنا شكر نعمائك .
 وغطنا برداء عافيتك .

وانصرنا باليقين والتوكل عليك .
 واسفر وجوهنا بنور صفاتك .
 وأضحكنا وبشّرنا يوم القيامة بين أوليائك .
 واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك .
 ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك - يا نعم المحيب » .

* * *

وكان الشيخ أثناء مقامه في مصر يخرج للحج كل سنة ، ذكر ابن بطوطة أن الشيخ ياقوت العرشي أنبأه رواية عن شيخه أبي العباس المرسى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي كان يحج في كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ، ثم يزور القبر الشريف . ويجعل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير إلى الإسكندرية .
 وفي سنة ٦٥٦ هـ بلغ الكتاب أجله ، وأحس الشيخ بدنو موته ، يستطرد ابن بطوطة حديثه السابق فيقول :

« فلما كان في بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها : قال لخديمه : استصحب فأسأ وقفه وحنوطاً وما يجهز به الميت : فقال له : ولماذا يا سيدي ؟ : فقال له : في حميثرا سوف ترى » .

وفي شوال من تلك السنة وصل الشيخ أبو الحسن وصحبه إلى حُمَيْثَرَا ، وهي موضع في الصحراء المؤدية إلى عَمَيْدَاب على البحر الأحمر ، أصابه مرض شديد فجمع أصحابه وأوصاهم بأشياء كثيرة وخاصة بحزب البحر ، وقال لهم حفظوه أولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم ، وخلا بتلميذه الحبيب أبي العباس المرسى وأوصاه بأشياء ، يقول صاحب المفاخر :

« واختصه بما خصه الله به من البركات ، وقال لأصحابه : إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسى فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له مقام عظيم بينكم ، وهو باب من أبواب الله تعالى » .

وبات الشيخ ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، فلما كان الفجر صعدت روحه

إلى بارئها ، وصلى عليه القوم يؤمنهم الشيخ أبو العباس ، ودفن أبو الحسن حيث مات في حميثرا .

قال ابن بطوطة :

« وقد زرت قبره وعليه قبرة مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن علي رضي الله عنهما » .

واختلف القوم بعد وفاته : أيعودون أم يستأنفون الرحلة للحج ، فقال أبو العباس :

« الشيخ أمرني بالحج ووعدني بكرامات » .

وبعد ، فهذا هو ولي الله العارف به قطب الأقطاب الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فارق الدنيا بعد أن ملأها علماً وروحانية ، وبعد أن خلف بعده عدداً من تلاميذه الذين ساروا سيرته بعد أن قبسوا من علمه وفضله وخلقه وروحه ، وكلهم بعد هذا من روح الله مقتبس .

أبو العباس المرسى

شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى

(٦١٦ - ٦٨٥ هـ) = (١٢١٩ - ١٢٨٧ م)

ذاب رسمى وصَحَّ صدقُ فَنائى
وتجلَّتْ للسرِّ شمسُ سَمائى
وتنزلتُ فى العوالمِ أُبْدَى
ما انطوى فى الصفات بعد صفائى
فصفائى كالشمس تُبدى سناها
ووجودى كالليل يُخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً
مَنْ رآنى فساجدٌ لبهاى
أنا نورٌ لأهله مستبينٌ
اشهدونى فقد كشفتُ غطائى

أبو العباس المرسى

أبو العباس المرسى شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى

على كثرة من عاش في الإسكندرية من أولياء الله وأقطاب الصوفية والعلماء : وعلى كثرة ما تضمه المدينة من رفات هؤلاء الأولياء والعلماء وأضرحتهم . فإن الإسكندرية لا تكاد تذكر إلا ويذكر قطب أقطابها العارف بالله سيدى أبو العباس المرسى : أصدق أصدقاء سيدى أبى الحسن الشاذلى . وأقرب تلاميذه إليه وصاحب القطبانية من بعده .

وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الأنصارى المرسى البستنسى . ينتهى بنسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة . كبير الأنصار وسيد الخزرج ، وصاحب المواقف المشهورة يوم سقيفة بنى ساعدة . يوم أن اختلفت الأنصار والمهاجرون بعد وفاة الرسول عليه السلام : فكان نكلماته وتوجيهاته الفضل الأكبر في توحيد كلمة المسلمين بعد أن كان النزاع على الخلافة يوشك أن يفرق بين المهاجرين والأنصار .

ومن جدود أبى العباس الأعلين قيس بن سعد الذى عُيِّنَ أميراً على مصر في سنة ٣٦ هـ من قبل على بن أبى طالب .

فأسرة أبو العباس عربية عريقة في العروبة : سريفة عريقة في الشرف ، وقد ولد أبو العباس في سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩) في مدينة مُرسِيَّة إحدى مدن بلنسية بالأندلس : وإليها نسب أبو العباس وغلبت عليه هذه النسبة حتى عرف بها ، ولا يكاد يذكر باسمه إلا في الكتب التى ترجمت له .

وفي مرسية نشأ أبو العباس أحمد ، وفيها قضى طفولته وتلقى علومه الأولى ، فتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظ القرآن .

ومُرسِيَّة اختطها فيما يقال الخليفة عبد الرحمن الناصر : وكانت بحكم موقعها مدينة تجارية : وكان معظم أهلها يخترفون التجارة ، وكان عمر بن على والد أبى العباس تاجراً : وتبعاً لتقاليد العصر كان يريد أن يعد أولاده لاحتراف المهنة

التي يحترفها ، فكان ابنه الأكبر أبو عبد الله جمال الدين محمد يعاونه في أعماله التجارية ، ولما استكمل الابن الأصغر أبو العباس أحمد علومه الأولى وشب عن الطوق ألحقه أبوه بأخيه ، وأصبح الرجل يعتمد على ولديه في إدارة تجارته والإشراف على شؤنها . ودنيا التجارة مدرسة حافلة بالتجارب ، فالتاجر يتصل في معاملاته بمختلف البيئات والطبقات مما يتيح له الفرصة الطيبة لدراسة أخلاق الناس وطباعهم ، وقد أفاد أبو العباس ولا شك من تجاربه العملية أثناء هذه الفترة أشياء كثيرة .

وفي سنة ٦٤٠ (١٢٤٢) وقد بلغ أبو العباس الرابعة والعشرين من عمره أراد والده أن يخرج للحج ، وصحب الرجل معه أسرته جميعاً : زوجته فاطمة بنت عبد الرحمن المالقي ، وولديه أبا عبد الله جمال الدين محمداً ، وأبا العباس أحمد . وكان من العسير على الأسرة أن ترحل هذه الرحلة الطويلة بطريق البر ، فأثرت اتخاذ طريق البحر ، واستقلت سفينة من سفن البحر الأبيض المتوسط ، وسارت السفينة بجذاء الشاطئ الإفريقي ، ولكنها لم تكد تقرب من شاطئ بونة حتى هبَّت عليها عاصفة قوية ، وقاومت السفينة ما استطاعت المقاومة إلى أن عجزت تماماً ، وتغلبت عليها الرياح العاصفة فأغرقها بما فيها وبعن فيها ، ويبدو أن الوالد والولدة لم تكن لهما معرفة بالسباحة ، أو أنهما لم يستطيعا مقاومة الأمواج العاتية لكبر سنهما فطوَّهما المياه ، وماتا شهيدين ، أما الأخوان فقد قُدِّرَ لهما النجاة ووصلا إلى البر سالمين .

واتخذ الأخوان طريقهما بعد ذلك إلى المشرق إلى أن وصلا إلى تونس ، فأثرا الإقامة بها ، وفي تونس اتجه الأخ الأكبر محمد إلى مهنته القديمة التجارة ، وأما الأخ الأصغر أحمد فقد أراد أن يفيد مما حصل من علم ، فاتخذ له مكتباً في زاوية الفقيه محرز بن خلف يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة والحساب ويحفظهم كتاب الله الكريم .

وكان أبو الحسن الشاذلي قد عاد في ذلك الوقت إلى تونس ، وأقام هناك في رباط بجبل زغوان ، وكتب التراجم تذكراً أن أبا الحسن لم يعد إلى تونس — رغم ما كان بينه وبين ابن البراء — إلا للمقابلة تلميذه أبي العباس ، فقد روى عنه أنه قال :

« ما ردّني إلى تونس لإلهذا الشاب » ، يقصد أبا العباس المرسى ، وقد قال لأبي العباس في ختام مقابله الأولى له :
« رُفِعَتْ إلىَّ منذَ عشر سنين ».

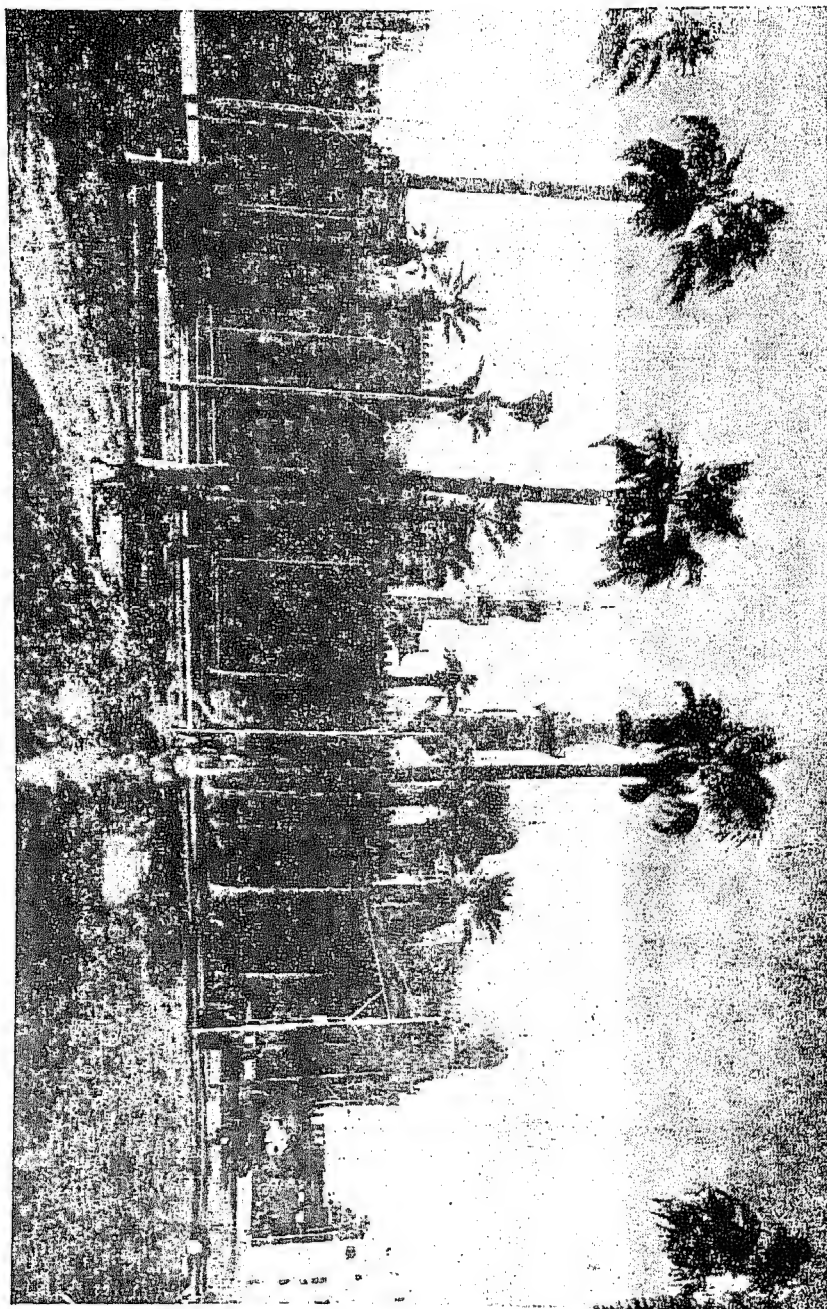
وقد سمع أبو العباس المرسى أثناء مقامه في تونس بالشيخ أبي الحسن وفضله وعلمه وتقواه ، فسعى إلى مقابله سعيًا ، وقد روى هو خبر مقابله لأستاذه وبدء اتصاله به وتعرفه عليه ، قال :

« لما نزلت بتونس ، وكنت أتيت من مُرْسِيَّة - وأنا إذ ذاك شاب - سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، فقال لي رجل : تمضي بنا إليه ؟ فقلت : حتى أستخير الله ، فتمتُ تلك الليلة فرأيتُ كأنني أصعد إلى رأس جبل ، فلما علوتُ فوقه رأيتُ هنالك رجلا عليه برنس أخضر وهو جالس ، وعن يمينه رجل وعن يساره رجل ، فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان ؟ فانتبهت ، فلما كان بعد صلاة الصبح جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فسرتُ معه ، فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التي رأيته بها فوق الجبل ، فدهشتُ فقال لي : عثرت على خليفة الزمان ؟ ما اسمك ؟ فذكرت له اسمي ونسبي ، فقال لي : رُفِعَتْ لي منذَ عشر سنين » .

اتصل الروحان من قبل المقابلة والمشاهدة ، فإن السفينة لم تغرق عند بونة ، وأبو العباس لم يتجه إلى تونس ويقيم بها إلا لما قدره الله في مكنون علمه من التمهيد للقاء الرجلين ، وأبو الحسن لم يعد إلى تونس عودته الأخيرة رغم كرهه للإقامة بها منذ نشب النزاع بينه وبين ابن البراء إلا لما ألقى إليه من أنه سيقابل تلميذه وصفيه وخليفته هناك .

ولزم أبو العباس أستاذه أبا الحسن منذ تلك اللحظة ملازمة تامة ، فصار يتردد على مجالسه ، ومجالسه وقتذاك حافلة بحلقات الذكر والدرس والمناقشة ، وعرف الأستاذ في تلميذه صفاء روحه وحسن إدراكه وإخلاصه وتدينه فقربه إليه ، حتى لقد صارحه مرة بقوله :

« يا أبا العباس ، والله ما صحتك إلا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت ، ولقد



مسجد أبي العباس المرسى
والى جانبه مسجد البوسرى

رأيت فيك ما في الأولياء، وما رأيت في الأولياء ما فيك .
وأدرك أبو الحسن بغيته بهذا اللقاء ، وأعد عدته بعده للسفر ، وغادر تونس
متجهاً إلى مصر ، وفي صحبته نخبة من أتباعه وتلاميذه ومريديه ، وفي مقدمتهم
تلميذه الأثير أبو العباس المرسى .

وكانت عين الأستاذ على تلميذه طول الطريق يرعاه ويشمله بعنايته ، يلقي
إليه بنصائحه ، ويعينه في رفق على سلوك الطريق ، والإقبال على معرفة الله ،
والتفاني في حبه وعبادته ، أحس أبو العباس أثناء الرحلة إلى الإسكندرية شيئاً من
ضيق النفس لم يستطع له حملاً ، وأدرك الشيخ من بعيد هذه الكربة التي تعجم
على نفس تلميذه ، فناداه إليه ، وما زال به حتى كشفت عنه هذه الكربة
وانشرح صدره ، روى هذه القصة أبو العباس قال :

« كنت مع الشيخ في السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من
الغرب ، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ
أبي الحسن ، فلما أحسّ : قال : أحمد ؟ قلت : نعم يا سيدي ،
قال : آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل
به إلى الأرض ليكمل له ، ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه يقول : ” إني
جاعل في الأرض خليفة “ ، ما قال في السماء ، ولا في الجنة ، فكان
نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله في
الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلا توفرت فيه
العبوديتان استحق أن يكون خليفته ؛ وأنت أيضاً لك قسط من آدم ،
كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف ، فأنزلت إلى أرض النفس
لتعبده بالتكليف ، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة » .
قال الشيخ أبو العباس : فما انتهى الشيخ من هذه العبارة حتى شرح الله
صدرى وأذهب غنى ما كنت أجده من الضيق والوسواس .

بهذه الرعاية العظوف ، وبهذه الآداب الروحانية ، وبهذا التوجيه الأبوي
كان الشيخ أبو الحسن يأخذ تلميذه أبا العباس ، ولا عجب في هذا فقد كان
يعده لأن يكون خليفته والقطب من بعده .

ووصل الركب أخيراً إلى أسوار الإسكندرية ، وإلى باب سدره المواجه لعمود السوارى ، وحطوا رحالهم عند هذا العمود ، وأحسّ بمقدمهم سكان المدينة ، فبعث إليهم رجل من عدولها طعاماً لضيافتهم ، وأبلغ الشيخ خبر هذا الطعام ، يقول أبو العباس :

فقال الشيخ : « لا يأكل أحد منه شيئاً ، فبتنا على ما نحن فيه من الجوع ، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ ، وقال : مدوا السماط وأحضروا ذلك الطعام ، ففعلوا ، وتقدمنا فأكلنا ، فقال الشيخ : رأيتُ فى المنام قائلاً يقول : أحلُّ الحلال إليك ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال . »

وهكذا كان أبو الحسن يعمل على تربية أبى العباس وسائر تلاميذه بالقُدوة الحسنة ، فلا يقرب طعاماً إلا أن يطمئن أنه حلال كله لا تشوبه شائبة من الحرام ، فقد روى أحد أصحاب الشيخ أبى العباس أن إنساناً عزم على الشيخ أبى الحسن ، وقدّم إليه الطعام يختبره ، فأعرض عنه ولم يأكله ، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له : « إن الحارث بن أسد المحاسبى كان فى إصبعه عرق إذ مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه ، وأنا فى يدي ستون عرقاً إذا كان مثل ذلك . »

فاستغفر صاحب الطعام واعتذر له .

والمعروف عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى أنه كان يدعو أتباعه ومريديه إلى العمل ، لأنه لم يكن يفهم التصوف على أنه بطلاة وتوكل ، ولم يكن يستسيغ أن يلبس الفقير المرقعات والملابس الخشنة ، لأنه نوع من الادعاء والتظاهر ، وفيها إعلان عن الفقر وسؤال الناس ، ونزول بالكرامة وإهدار للعزة ، والإسلام دين يقوم على العزة والكرامة والعمل والكد ، وبهذه الآداب جميعاً أخذ أبو الحسن تلميذه أبا العباس ، قال أبو العباس :

« كان الشيخ قد قال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل من أحد شيئاً ، فكشيت على ذلك سنة ، ثم قال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئاً . فكان إذا اشتد على الوقت أخرج إلى

ساحل بحر الإسكندرية التقط ما يرميه البحر بالساحل من قمح حين يرفع من المراكب » .

ويؤخذ من هذا الحديث أن أبا العباس كان يعاني أول وصوله إلى الإسكندرية شيئاً من الضيق والفقر ، ولكنه مع هذا كان يؤثر الفقر والجوع على أن يسأل الناس شيئاً ، ويبدو أنه كان منقطعاً للعبادة والدراسة مع أستاذه ، ولسنا نعرف أنه امتن مهنة أخرى ، وإن كان يفهم من بعض عبارات ابن عطاء الله السكندري أن أبا العباس عين وقتاً ما واحداً من الشهود العدول بمدينة الإسكندرية .

وقد نزل أبو الحسن عند مقدمه إلى الإسكندرية داراً عند كوم الديماس — كوم الدكة — وسكن معه فيها أصحابه ، وفي مقدمتهم أبو العباس المرسى ، وكان يلتقى دروسه في جامع العطارين ، ولازمه طول مقامه بها أبو العباس ينهل من علمه ويقتبس من فضله ، وأحسّ أبو العباس أنه وقع على كثر بصحبته للشيخ أبي الحسن ، وقد عبر عن شعوره هذا بما قاله في خطاب أرسله إلى أحد أصحابه في تونس بعد وصوله إلى الإسكندرية وإقامته بها وقتاً ما ، قال في هذا الخطاب :

« فلاني صحبت رأساً من رؤوس الصديقين ، وأخذت منه سرّاً لا يكون إلا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفتخر ، وإليه أنسب رضى الله عنه ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد إلا فتح له في يومين أو ثلاثة ، فإن لم يجد شيئاً بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقاً ولكنه أخطأ الطريق ؛ ودليله من كتاب الله عز وجل : قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وكان يقول : إذا عرضت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بى ، فكنت والله لا أذكره في شدة إلا انفرجت ، ولا أمر صعب إلا هان ، وأنت يا أخى إذا كنت في شدة فاقسم على الله به ، وقد نصحتك والله يعلم ذلك ، والسلام » .

وكان الشيخ أبو الحسن على اتصال روحاني بتلميذه أبى العباس ، فلا يكاد يحس أن تلميذه في ضيق نفسى ، أو أن مشكلة ما تعترضه وتشغل باله ، حتى يسرع فيجاذبه أطراف الحديث ، ويدلى إليه أثناء هذا الحديث بشرح ما استعصى

عليه ، أو ببيان ما أغلق عليه فهمه ، وهو يضمن هذا كله تعاليمه ومبادئه وأصول طريقته ، روى أبو العباس فيما روى شاهداً على ما نقول قال :

« صلينا الصبح ذات يوم وراء سيدى أبى الحسن الشاذلى ، فقرأ سورة شورى ، فلما بلغ قوله تعالى : ” يهبُ لمن يشاء وإنائاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإنائاً ” ويجعل من يشاء عقيماً ” وقع فى نفسى شيء من ذلك المعنى .

فلما سلم الشيخ من الصلاة التفت إلى وقال : يا أبا العباس : يهب لمن يشاء إنائاً = العبادات والمعاملات ؛ ويهب لمن يشاء الذكور = الأحوال والعلوم والمقامات ، أو يزوجهم ذكراً وإنائاً يجمع ذلك فيمن يشاء من عبادته ، ويجعل من يشاء عقيماً بلا علم ولا عمل . فتعجبت من ذلك ، فقال الشيخ : والله ما وقع فى خاطر واحد شيء إلا وأطلعنى الله عليه فى تلك الصلاة أو غيرها .

فالشيخ بذكائه وروحانيته يكاد يستشف ما تطويه روح تلميذه وعقله ، وهو فى هذا الحديث يرسم الأصول الأساسية لطريقته ، فهو يصنف العباد أصنافاً ، منهم الذين يشغلون بالعلم وحده ويدرسون العبادات والمعاملات وهؤلاء هم الفقهاء ، ومنهم أصحاب الأحوال والمقامات والذوق ، وهؤلاء هم نفر من الصوفية ، ويصلون إلى هذه الأحوال والمقامات برياضة النفس والجسم والتفرغ للعبادة ، ومنهم من يجمع بين العلم والذوق ، وهؤلاء نفر آخر من الصوفية يمثلهم خير تمثيل أبو الحسن الشاذلى ومدرسته ، وخاصة تلميذه أبو العباس المرسى ، وتلميذ المرسى ابن عطاء الله السكندرى ، فقد كانت القاعدة عندهم أن لا يدخل المريد الطريق إلا بعد أن يتبحر فى علوم الفقه والشريعة حتى يستطيع إذا ناقشه أحد من العلماء أن يقف معه على قدم المساواة ، وأن يتغلب عليه بالحجج القوية الواضحة . وهذا ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس المتصوفة الأخرى التى تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد والزهد والعبادة ، ولا تستلزم المعرفة بالعلوم الشرعية الظاهرة . وبهذا أخذ أبو الحسن تلميذه أبا العباس ، فلم يمض وقت حتى اتقن أبو العباس العلوم الدينية إتقاناً تاماً ، حتى كان من

يتحدث إليه في علم منها ينصرف عنه وهو يحسب أنه لا يحسن إلا هذا العلم ؛ وكان أبو العباس يأخذ تلاميذه بهذا الأسلوب ، ويحضرهم على طلب العلم والتبحر فيه ، ويقرأ معهم كتباً كثيرة في التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف ، حتى عُرف بين معاصريه بالتبحر والنبوغ في العلوم الإسلامية مع تخصصه ونبوغه في علوم الحقيقة وأصول الطريقة حتى لقد كان يقول :

« شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه » .

هذا أبو العباس المرسى إذن حذو أستاذه الشيخ أبي الحسن الشاذلى ، فأتقن العلوم الدينية مع تبحره في علوم الحقيقة والتصوف ، وكان يأخذ تلاميذه بهذه الطريقة ، ولهذا كان يدرس لهم ويقرأ معهم كتباً في مختلف العلوم الدينية ، ففي التفسير كان يقرأ كتاب الوجيز لابن عطية ، وفي الحديث كتاب المصابيح للبخارى ، وفي الفقه « التهذيب والرسالة » ، وفي الأخلاق « كتاب الإحياء للغزالي » ، أما في التصوف وعلوم الحقيقة فكان يقرأ مع تلاميذه أمهات الكتب لكبار المتصوفة السابقين ، مثل « ختم الأولياء » للحكيم الترمذى ، وقوت القلوب لأبي طالب الحكيم ، والرسالة البيانية للقشيري .

وكان الشيخ أبو العباس مع هذا أديباً ممتازاً ، ذا أسلوب قوى بليغ وله قدرة فائقة على التعبير والشرح والإيضاح ، وقوة على الإقناع ، لهذا كان أستاذه أبو الحسن الشاذلى يقول لأتباعه :

« عليكم بالشيخ أبي العباس ، فوالله إنه ليأتيه البدوى لا يُحسن وضوءه ، فلا يمسي إلا وقد أوصله إلى الله تعالى » .

وقال جماعة من أهل أشموم :

« قدم علينا الشيخ أبو الحسن البجائى — أحد أصحاب أبي الحسن الشاذلى ، فكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه ، فإذا رأى إعجابنا بذلك قال ، كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباسى المرسى ، والله لو أطلق أبو العباس لسانى لتكلمت بالعلم الغريب » .

وذلك لأن الشيخ أبا العباس — مع تبحره في العلوم الدينية الشرعية — كان أعلم بعلوم الحقيقة وأصول الطريقة منذ صفت روحه ورقت نفسه ، وزالت الحجب

بينه وبين الله سبحانه وتعالى ، لهذا كان أستاذه أبو الحسن يقول عنه :
« أبو العباس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض » .

وكان يقول :

« هذا أبو العباس مذ نفذ إلى الله لم يحجب ، ولو طلب الحجاب لم يجده »
ولما عرف الشيخ أبو الحسن لتلميذه أبي العباس مكانته زاد في تقريبه إليه ،
فزوجته من ابنته ، وأنجب أبو العباس من هذه الزوجة ولديه جمال الدين محمداً ،
وأبا العباس أحمد ، وأختهما بهجة التي تزوجها ياقوت العرش تلميذ أبي العباس .
ويفهم من بعض النصوص الأخرى أن الشيخ أبا العباس كان يشتغل بعض
الوقت بالتجارة بتوجيه من أستاذه أبي الحسن ، تنفيذاً لسياسة المرسومة التي
تدعو أتباعه إلى العمل والسعي لكسب الرزق ، روى الشيخ أبو العباس قال :

« كنت ليلة من الليالي نائماً بالإسكندرية وإذا قائل يقول : مكة والمدينة ،
فلما أصبحت ، عزمت على السفر ، وكان الشيخ أبو الحسن بالمقياس
بالقاهرة فسافرت إليه ، فلما مثلت بين يديه قال لي : مكة والمدينة ،
فقلت : لأجل ذلك جئت يا سيدي قال : اجلس ، فجلست وإذا برجل
دخل عليه وقال : يا سيدي عزمت على الحج وما معي شيء
من الدنيا ، فقال لي الشيخ : أي شيء معك ؟ فقلت : عشرة دنانير ،
قال : ادفعها لهذا الرجل ، فدفعها إليه ، فقال لي الشيخ : إذا كان غداً
اخرج إلى الساحل واشتر لي عشرين إردباً قمحاً : فأصبحت ووزلت
إلى الساحل ، واشتريت عشرين إردباً ، وحملت القمح إلى المخزن ، وجئت
إلى الشيخ ، فقال : هذا القمح قالوا لي إنه مسوس ، ما تأخذ منه شيئاً ،
فبقيت متحيراً لا أدري كيف أصنع ، وبقيت ثلاثة أيام لا يظالمني
صاحب القمح بالثمن ، فلما كان اليوم الرابع وإذا برجل يطوف على
فلما رأيته قال : أنت صاحب القمح ؟ فقلت : نعم ، قال : تأخذ فيه
فائدة ألف درهم ؟ فقلت : نعم ، فوزن لي ألف درهم ، فوضع الله لي
البركة فيها ، فلو قلت إنني أنفق منها إلى اليوم لصدقت » .

وكان أبو العباس يتنقل مع أستاذه أبي الحسن ويصحبه في رحلاته إلى المدن

المصرية المختلفة وفي سفراته للحج ، وكان يشاركه في إلقاء الدروس وتعليم المريدين ونشر أصول الطريق ، ولكنه بعد قليل استأذن الشيخ في أن يسافر إلى القاهرة ليعمل على نشر الدعوة والتدريس بمدارسها ، فسمح الشيخ له ، وسافر أبو العباس وكان يلتقى معظم دروسه في جامع المقس ، وهو جامع أولاد عنان الحالى القريب من محطة باب الحديد ، ولكنه كان ولاشك يلتقى بعض دروسه في مساجد القاهرة ومدارسها الأخرى وخاصة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

ولما وافت سنة ٦٤٦ وكان الشيخ أبو الحسن قد تقدمت به السن وفقد بصره ، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شؤون أتباعه ، رأى أن يستخلف تلميذه وصفيّه أبا العباس المرسى على شؤون الدعوة ، وأعلن استخلافه له في حفل جامع بين أتباعه في مسجد العطارين بالإسكندرية ، ويبدو أن الشيخ أبا الحسن كان يمهّد لهذا الاستخلاف في مناسبات سابقة ، فإن ابن عطاء الله السكندري يروى عن أحد مشايخ قرية « نشيل القناطر » واسمه خليل أنه قال :

« دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى فتوضأ عندى ، ثم أخذ قوساً لي فجرّها ثلاثاً ، فقلت له : يا سيدى من هو الخليفة بعدك ؟ فقال من يأتى إليك هاهنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويجرّ هذا القوس ثلاثاً فهو الخليفة بعدى ، فدخل على أصحاب الشيخ جميعهم ، فلم يتفق أن فعل ذلك أحد منهم حتى دخل الشيخ أبو العباس ، فتوضأ نحو وضوء الشيخ ، ورفع بصره فوجد القوس هناك ، فقال : ناوّلنيها ، فناولته إياها ، فجرّها ثلاث مرات ، ثم قال : يا خليل ، جاءك وعد الشيخ . »

وكان أبو العباس يردد مرة في بعض مجالسه بحضرة شيخه أبي الحسن قول شيخه :

« لن تهلك أمة فيها أربعة : إمام وولى وصديق وشيخ » ، قال الشيخ أبو الحسن : الإمام هو أبو العباس .

وكان الشيخ أبو الحسن يقول :

« أبو العباس شمس ، وعبد الحكيم قمر » .

وعبد الحكيم هذا واحد من تلاميذ الشيخ أبي الحسن وأصحابه .

وأخذ أبو العباس بعد إعلانه خليفة يشرف على شؤون الطريقة والأتباع ، فيلقى عليهم دروسه ، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم على الأسس التي رسمها الشيخ أبو الحسن وكان يلزم الشيخ حيناً ، وينفرد بدروسه في الإسكندرية والقاهرة حيناً آخر .

إلى أن كانت سنة ٦٥٦ هـ وقد عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج للحج ، فصحب معه نخبة من تلاميذه ، وفي مقدمتهم أبو العباس المرسى ، ولما وصل الركب إلى حميثرا في صحراء عيذاب مرض الشيخ مرضاً شديداً لم يمهله طويلاً ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها في هذا المكان المبارك ، وفي ليلة وفاته جمع أصحابه وأوصاهم ، يقول صاحب المفاخر العلية :

« ثم خلا بسيدى أبي العباس المرسى وأوصاه بأشياء ، واختصه بما خصه الله به من البركات »

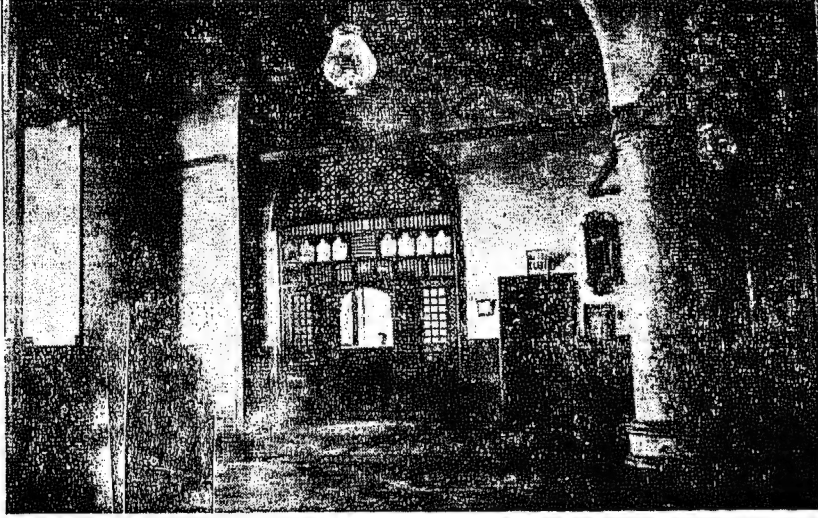
ثم نادى أصحابه وقال لهم :

« إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له مقام عظيم بينكم ، وهو باب من أبواب الله تعالى . »

صحب أبو العباس المرسى الجماعة الذين معه — بعد دفن أستاذه — إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، فجلس مجلس أستاذه الشيخ أبي الحسن ، وخلفه في مكانه ، فكان يرعى شؤون الأتباع ، ويقوم بإرشادهم وتعليمهم ، ويعقد حلقات الذكر والدرس ، وشاع منذ ذلك الحين ذكره ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب والأتباع من كل مكان ، ورحل إليه القصاد من مختلف البلدان ، يسألونه المعرفة ، ويلتمسون منه البركة والدعاء ، ووفد عليه العلماء والفقهاء يستزيدون من علمه .

وكان يقيم معظم السنة في الإسكندرية ، ويرحل في بعض الشهور إلى القاهرة حيث يعقد حلقات دروسه في جامعي المقس وعمرو بن العاص ، وكانت هذه الحلقات تزدهم دائماً بالمستمعين وأكثرهم من علماء القاهرة ، وخاصة إذا بدأ في قراءة الرسالة للإمام "نشيري" ، فقد كانت أيام شرحه لها من الأيام المعبودة ، لأنه كان يأتي في هذا الشرح بكل بديع ، بحيث يملك على السامعين نفوسهم

وأرواحهم ، ويهز مشاعرهم ، وقد أناب على يديه بعد هذه الدروس — كما يقول الأستاذ السندوبي — خلق لا عد لهم ولا حصر .



مسجد العطارين من الداخل
وفيه أعلن أبو الحسن الشاذلي استخلافه لتلميذه أبي العباس المرسى في حفل

وقد ذكر ابن عطاء الله أن الشيخ شمس الدين الأصفهاني والشيخ شمس الدين الأيكي — وهما من علماء مصر المبرزين في ذلك العصر — كانا يجلسان بين يدي أبي العباس المرسى جلوس المستفيد آخذين عنه ومعلقين ما يبيديه .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى يعبد الله خير عبادته ، ويكره التكلف والتظاهر بالزهد والادعاء والرياء ، فكان إذا قام للصلاة صلى صلاة خفيفة لا يطيل الركوع والسجود ، ولا يسترعى الأسماع بقراءته حتى لا يلفت الأنظار إلى صلاته وعبادته ، فإنه يعتقد أن صلاته لله سبحانه .

وكان الشيخ إذا حضر مجلساً يُقرأ فيه القرآن خشع الخشوع كله ، وربما أخذته حال من الرهبة والخوف عند تلاوته ، وسئل في ذلك فقال :

« لكأنما أقرؤه على رسول الله — صلى الله عليه وسلم »

وقال مرة أخرى : « لكأنما أقرؤه على الله عز وجل » .

وكان يريد من الأتباع جميعاً أن يتجهوا في عباداتهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يفنوا فيه ، وألا يفكروا إلا في ذاته العلية ، وأن يبعدوا بعداً تاماً عن المظاهر والرياء والنفاق والتظاهر بالعبادة ، زاره يوماً بعض العائدين من الحج فسألهم :

« كيف كان حجكم ؟ »

فقالوا :

« كان كثير الرخاء ، كثير الماء ، ابتعنا الماء بكذا . . . »

فأعرض عنهم وقال :

أسألكم عن أثر الحج في نفوسهم من تلبية لله وما فتح به عليهم ، وما وجدوه وما فازوا به ، فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه ، وكأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك ، إذا وصلت إلى البيت الحرام فلا يكن همك البيت وليكن همك رب البيت ، ولا تكن ممن يعبد الأوثان والأصنام .

وأبو العباس في هذا متأثر كل التأثر بالآداب التي أخذها بها أستاذه أبو الحسن الشاذلي ، فقد كان الشيخ أبو الحسن يعنيه الإخلاص الحقيقي والإيمان الحقيقي ، ولا يعنيه التظاهر . قال أبو العباس :

« دخلتُ يوماً على الشيخ أبي الحسن وفي نفسه أن آكل الخشن وألبس

الخشن ، فقال لي : يا أبا العباس ، اعرف الله وكن كيف شئت . »

وبهذه الآداب وبغيرها كثير مما يشبهها كان الشيخ أبو العباس المرسى يأخذ أتباعه ومريديه ، فكان يرفق بهم ويهذب نفوسهم ، ويرعى شؤونهم ، وإذا قصده مرید قابله في الحال ، واستمع فأحسن الاستماع ، وبأسطه في الحديث ، وكان يكره للأشياخ إذا جاءهم مرید أن يقولوا له : قف ساعة ، ويقول :

« إن المرید يأتي إلى الشيخ بهمة المتوقدة ، فإذا قيل له : قف ساعة

طفئ ما جاء به . »

ولم يكن أبو العباس يستأثر بأتباعه ، أو يمنعهم من الاتصال بغيره من

الشيوخ : وكان يردد في هذا قول شيخه :

« اعصموني ولا آمنكم أن تصحبوا غيري ، فإذا وجدتم مهلاً أعذب من هذا المهل فربوه » .

وكان أبو العباس خير مرب لأتباعه ومريديه ، فلا يثنى على واحد منهم بخصور إيموانه ، حتى لا تقوم بينهم أسباب الحسد والبغضاء ، وإذا مدحه واحد منهم بتقصيدة أقبل عليه وأجزل له العطاء .
وخير ما كان يتصف به أبو العباس ، وخير ما كان يعمل على تلقينه لأتباعه عزلة النفس والتعفف عما بأيدي الناس ، والثقة كل الثقة بالله ، فكان يقول لأتباعه :

والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق ، وما السلامة في الدنيا إلا بترك الطمع في المطايقين » .

ولهذا كان لا يحب مقابلة الحكام وذوى السلطان أو التوسط بالشفاعة لديهم ، فهم في عقيدته لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وواجب المسلم أن يذجا إلى الله سبحانه وتعالى .

بناءه يوماً أسد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام في حاجة ، فقال له : « أنا أطلب لك ذلك من الله » .

وكان — فيما يقال — إذا نام ببلد في السفر ، وعرف أن كبير ذلك البلد يريد الاجتماع به يسافر من ليلته قبل الفجر ولا يجتمع به .

وقد أقام أبو العباس في الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة لم يحاول أن يراها أن يزور راي المدينة أو أن يقصده في مطلب أو شفاعاة ، ومع هذا فقد طلب راي المدينة رؤية الشيخ والاجتماع به ، ولكن الشيخ أبى ورفض ، وقد قال له يوماً الزكي الأسواني — عذيله وأحد أصدقائه وأتباعه — :

« يا سيدي : إن اتولى الإسكندرية يؤثر الاجتماع بك والأخذ عنك ، فتكون شيخهم وريكين من مريدك » .

قال الشيخ :

« يا زكي : است من يلعب به والله إني ألقى الله ولا يراني ولا أراه » .
فكان كذلك .

وروى أن متولياً آخر للثغر أتاها وفي صحبته ناظر الثغر وشاد الدواوين ، ولكن الشيخ غلب عليه ليلة حضورهم القبض ، ولم ينبسط للكلام كعادته ، حتى كان يريدوه يقولون :

« ليت ما كان يتكلم به معنا كان ليلة حضورهم » .

وحضر يوماً لزيارته الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وهو مدبر المملكة وصاحب الحول والطول فى عهد السلطان قلاوون ، تقول المراجع :

« فما ألقى الشيخ إليه عنان همته ، ولا فوق نحوه سهام عزيمته ، ولا استعرض الأمير رغائب الشيخ ، قال الزكى الأسوانى : يا سيدى اطلب منه أرضاً يزرعها أصحابك ، فقال الشيخ : يا زكى ، هذا ما لا يكون أبداً » .

وذكر ابن عطاء الله السكندرى - تلميذ أبى العباس - أن الطواشى بهاء الدين ، ومشدّ الديوان ، والفقير شمس الدين بن الخطيب ناظر الأجباس جاءوا مرة لزيارة الشيخ وقالوا له :

« إن هذه القلعة - يقصدون المكان الذى كان يقيم فيه الشيخ مع أتباعه - تحتاج إلى حصر وزيت وقناديل ، ويحتاج الفقهاء فيها إلى ما يأكلون ، ونحن حكام الوقت نطلق لهم شيئاً كل شهر ، فقال الشيخ : حتى أشاور أصحابى ، ثم قال لأصحابه : بماذا تشيرون ؟ فلم يرجع أحد جواباً ، فكرر السؤال ، فلم يجبه أحد ، فقال : اللهم أغنا عنهم ولا تغنا بهم إنك على كل شىء قدير ، ومات الشيخ وليس للمكان مرتب ولا معلوم » .

هذا هو الإسلام الحق ، وهذه هى الأخلاق الإسلامية الأصيلة : العزة والكرامة ، والتعفف عن الناس ، والغنى بالله ، والسعى والعمل ، والإيمان الحق بعد هذا كله بالله سبحانه وتعالى ، فليت قوى يعلمون ، وليتهم بهذه الأخلاق يعملون . ولقد كان أبو العباس المرسى فى اتباعه هذه الأخلاق والتزامه هذه الآداب إنما يترسم خطى أستاذه أبى الحسن الشاذلى ، فهو فى أحاديثه ودروسه دائم الذكر له ، يستشهد بأقواله ، ويضرب بها المثل لتلاميذه ، معترفاً بفضل عليه ، وبأثره

الواضح في تكوينه وتثقيفه وتربيته ، فهو القائل :
 « منذ دخلت على الشيخ أبي الحسن في القاهرة وهو يُقرأ عليه كتاب
 ”المواقف للنفري“ وقال لي : تكلم يا بني بارك الله تعالى فيك ، أُعطيت
 لساناً من ذلك الوقت » .

وهو القائل :

« قال لي شيعي : لا تصحب إلا من يكون فيه أربع خصال : الجود
 في القلة ، والصفح عن الظلّامة ، والصبر على البلية ، والرضى بالقضية » .
 وكان أبو العباس نعم الأستاذ لتلاميذه ومريديه يعرض في أحاديثه وشروحه
 لبعض الآيات والأحاديث لتفسير بعض المشكلات التي تعرض لهم وللمجتمع
 المحيط بهم وقتذاك ، يحلو بذلك الغامض ويوضح المبهم .

كان للصوفية وللتصوف في عصره شأن أي شأن ، وكانت بين المتصوفة
 والفقهاء خصومة عاشت وقتاً طويلاً بعد ذلك ، كل فريق يعرض بعلم الفريق
 الآخر ، ويبدو أن الناس منذ تلك العصور البعيدة اختلفوا في شأن التصوف وماهيته
 وأصله ، وفي أصل كلمة التصوف ، وقد عرض الشيخ أبو العباس مرة لهذا
 الموضوع في أحاديثه قال :

« اختلف الناس في اشتقاق الصوفي ، فمنهم من قال : هو منسوب إلى
 الصوف ، لأنه لباس الصالحين ، ومنهم من قال : هو منسوب إلى
 الصُفّة يعني صُفّة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نسب إليها
 أهل الصُفّة ، وهو نسب على غير قياس ، وأحسن ما قيل فيه : إنه منسوب
 لفعل الله به ، أي صافاه الله ، فصوفي ، فسُمي الصوفي ، قال الشاعر :
 تخالف الناس في الصوفي واختلفوا ، وكلهم قال قولاً غير معروفٍ
 ولست أمنح هذا الاسم غير فتّى ، صافي ، فصوفي ، حتى سُمي الصوفي »

وقال مرة أخرى :

« الصوفي مركب من حروف أربعة : الصاد والواو والفاء والياء » ،
 فالصاد : صبره وصدقه وصفاءه : والواو : وجده ووده ووفاءه ،
 والفاء : فقده وفقره وفناؤه ، والياء : ياء النسبة ،

فإذا تكمل ذلك أضيف إلى حضرة مولاه .

وكان المجتمع الإسلامى يعرف على ذلك الوقت نوعاً من التنظيمات الاجتماعية الدينية يعرف بنظام الفتوة ، ويُعرف أتباعه بالفتيان ، ويرجعه البعض إلى على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وكنيت جماعات الفتیان منظمة تنظيمًا حزبيًا دقيقاً ، فكان لها رؤساء ونقباء وزعماء ، وكان العضو الذى ينضم إلى هذه الجماعة يحتفل بتنصيبه فتى احتفالاً عاماً مهيباً ، من مراسيمه أن يتقدم النقيب إلى العضو الحديد فينزع عنه لباسه بيد ، ويلبسه لباس الفتوة باليد الأخرى ، ولباس الفتوة سراويل قصيرة ، ثم يشترك الحضور فى كأس مملوءة بالماء الملح ، ويؤخذ على الفتى العهد بأن يلتزم آداب الفتوة ، وهى كلها آداب سامية تدعو إلى أداء الأمانة ، وأداء الفرائض ، ونصرة المظلوم ، وصلة الرحم ، والعفو عند المقدرة ، واحتمال الأذى ، والوفاء بالعهد ، وما يشبهها ، ويبدو أن المتصوفة كانوا يعتقدون أن طريقهم كان خيراً من طريق الفتیان ، لأن طريقهم يعتمد على الإيمان ، وطريق الفتیان يعتمد على المظاهر .

وقد عرض أبو العباس المرسى لهذا الموضوع فى شرحه لبعض آيات القرآن لبعض أتباعه ، قال فى قوله تعالى :

« وإبراهيم الذى وفى » : وفى بمقتضى قوله : « حسبي الله » ، وما سمي إبراهيم الخليل « فتى » إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التى وجدها ، وأنت يا ولدى لك أصنام خمسة معنوية ، فإن كسرتها فأنت فتى : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا ، وافهم ها هنا :

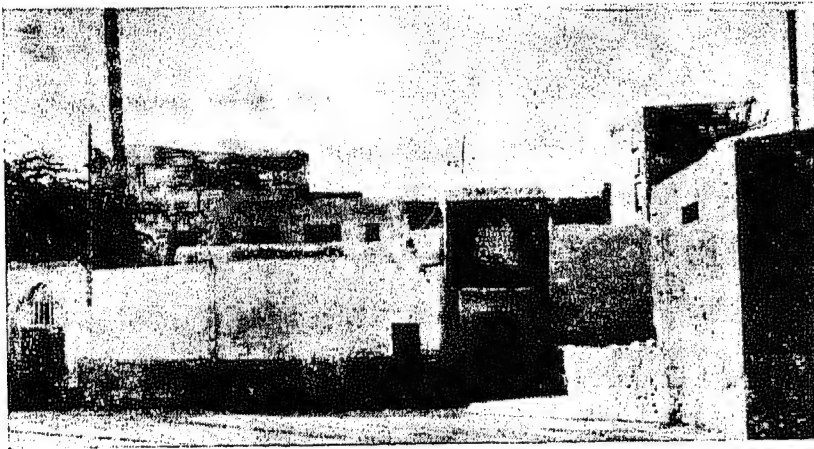
« لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على » وليست الفتوة بالماء والملح ، وإنما

الفتوة الإيمان والهداية . وأبو العباس المرسى مع تضلعه فى علوم الدين والتصوف لم يؤلف كتاباً ، شأنه فى ذلك شأن شيخه أبى الحسن الشاذلى ، وإنما خلف من بعده عدداً من التلاميذ الأفذاذ كان كل منهم قطباً من بعده ، وعلماً من أعلام الفكر فى الإسكندرية ، ويكفى أن نشير هنا إلى نفر من تلاميذه النبغاء من أمثال : ياقوت العرش ، وابن عطاء الله السكندرى ، والبوصيرى ، وابن الحاجب ، والشاطبى ، والقبارى وغيرهم كثير .

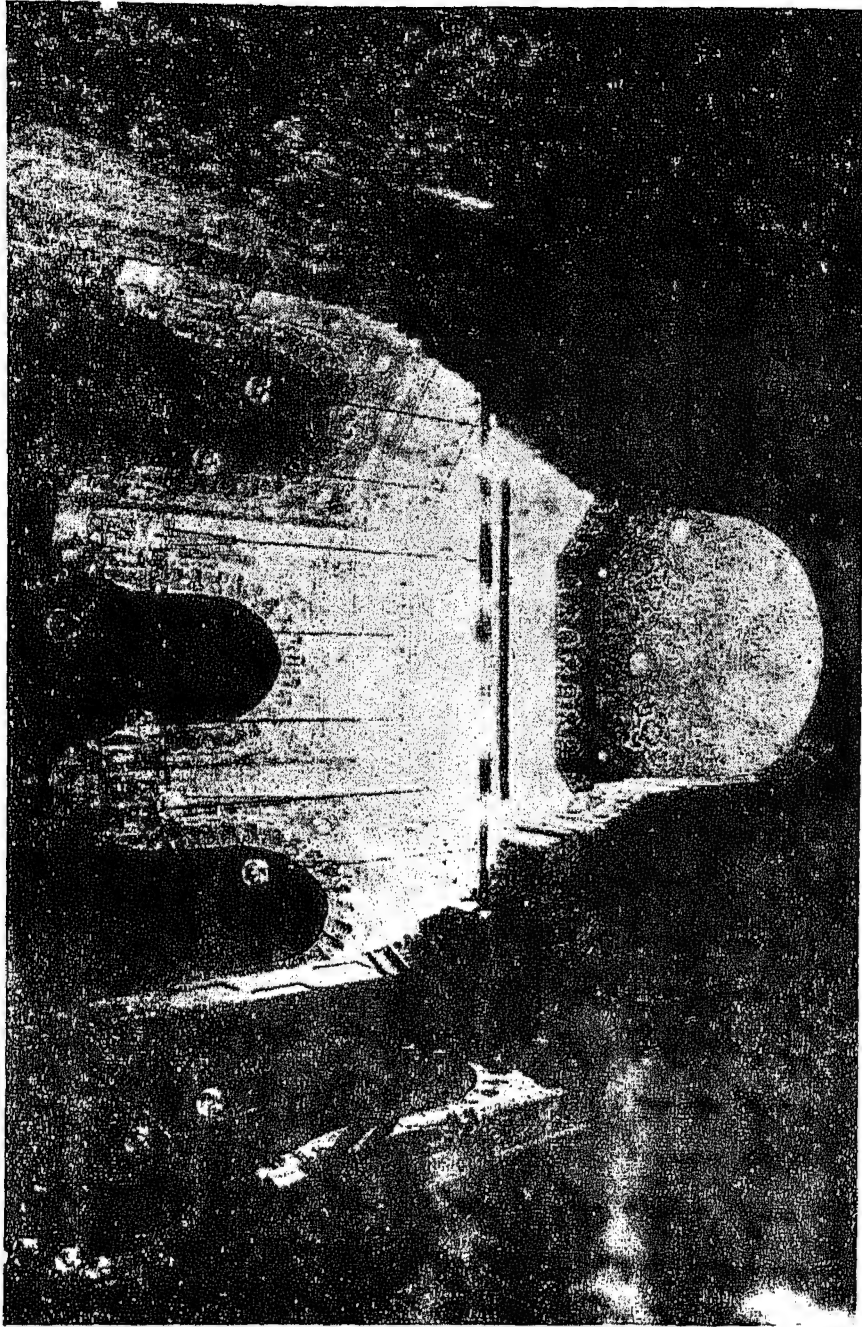
ومع هذا فقد نقل هؤلاء التلاميذ عن أستاذهم أبي العباس كثيراً من أقواله ، ومعظمها شروح لبعض آيات القرآن ، أو لبعض الأحاديث النبوية ، أو تفصيلاً للطريق وتفسيراً لآدابه ، وهذه الأقوال جميعاً تدل دلالة واضحة على أن أبا العباس كان أديباً ممتازاً يحسن الفهم ويحسن التعبير ، وفي الأمثلة التي أوردناها من قبل شواهد على صحة ما نقول ، ويبدو أيضاً أن أبا العباس كان شاعراً ، وأن شعره لم يكن يقل جودة عن نثره ، وقد حفظت لنا المراجع بعض هذا الشعر ، فمن شعره الصوفي قوله :

ذاب رسمى وصحَّ صدقُ فنائي ،	وتجلَّت للسر شمسُ سماءي
وتنزلتُ في العوالمُ أبدي	ما انطوى في الصفات بعد صفائي
فصفائي كالشمسُ تبدى سناها ،	ووجودي كالليل يخفى سوائِي
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً ،	مَنْ رآني فساجدٌ لبهائي
أنا نورٌ لأهله مستبينٌ ،	أشهدوني ، فقد كشفتُ غطائي

وهكذا لبث أبو العباس المرسى في الإسكندرية ثلاثاً وأربعين سنة ينشر العلم ، ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه ، إلى أن انتقل إلى جوار ربه في الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ (١٢٨٧) ، ودفن في الإسكندرية



مسجد ياقوت العرش
(تلميذ أبي العباس)



مسجد أبي العباس المرسى

(من الداخل)

في مقبرة باب البحر ، وأصبح قبره منذ ذلك الوقت مقصداً للزوار يلتمسون عنده البركة ، إلى أن كانت سنة ٧٠٦ (١٢٠٧) حيث زاره كبير تجار الإسكندرية في ذلك الوقت الشيخ زين الدين بن القطان ، فبنى على القبر ضريحاً تعلوه قبة ، وبنى لأول مرة مسجداً يضم الضريح ، والمسجد مثدنة مربعة ، ورتب له إماماً وخداماً وقواماً ، وأوقف الأوقاف للصرف عليه .

وقد خضع هذا المسجد لتطورات كثيرة بعد ذلك ، فقد عني به في أواخر القرن التاسع الهجري في سنة ٨٨٢ الأمير قجماس الإسحاقى الظاهري وإلى الإسكندرية ، فأعاد بناءه بعد أن وجده مهملاً مشعث الأركان ، وبنى لنفسه في داخله قبراً دفن فيه بعد وفاته .

وفي سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦) جدد بناءه الشيخ أبو العباس السنفي الخزرجي ودُفن فيه بعد وفاته .

وفي سنة ١١٨٩ (١٧٧٥) زار الإسكندرية الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله المغربي ولاحظ أن المسجد قد تهدم بنيانه ، وأنه يضيق بالمصلين ، فجدد معظم أجزائه ووسع بعض نواحيه .

ثم أهمل المسجد بعد ذلك وساءت حالته إلى أن كانت سنة ١٢٨٠ (١٨٦٣) فعني به عناية كبيرة أحمد بك الدخاخي شيخ طائفة البنائين بالإسكندرية ، وجدد مبانيه ، وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة ، وقد وصفه علي باشا مبارك في القرن الماضي بقوله :

« وشعائره مقامة على الوجه الأتم ، ويصرف عليه من طرف ديوان الأوقاف بالإسكندرية ، كما أن ريعه ومرتباته مضبوطة به » .

وفي سنة ١٩٢٧ أعدت وزارة الأوقاف مشروعاً لإعادة بناء مسجد أبي العباس وإنشاء ميدان فسيح أمامه يسمى ميدان المساجد ، ووضعت الأسس للبناء بالحديد في أوائل سنة ١٩٢٩ ، وتم المسجد في سنة ١٩٤٤ ، فأصبح أجمل مساجد المدينة وأبهـاها منظراً .

رحم الله أبا العباس وأسكنه الله فسيح جناته .

ابن عطاء الله السكندري

تاج الدين أبو الفضل أحمد

ابن محمد بن عبد الكريم

(حوالي ٦٥٨ هـ - ٧٠٩) = (حوالي ١٢٦٠ - ١٣١٠ م)

« والشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان :

فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث »

وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال سبحانه وتعالى : « اعملوا آل داود شكراً »

وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

ابن عطاء الله السكندري

ابن عطاء الله السكندري
تاج الدين أبو الفضل أحمد
ابن محمد بن عبد الكريم

هو تاج الدين أبو الفضل - أو أبو العباس - أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامي السكندري ، مصري أصيل ، ولد في الإسكندرية ، وبها نشأ نشأته الأولى وتثقف ثقافته الأولى ، وإن كانت المراجع لا تذكر شيئاً عن هذه النشأة أو هذه الثقافة الأولى . وغاية ما تذكره أنه كان مالكي المذهب ، وإن كان البعض يذكر أنه كان حسن النظر في مذهبي الشافعي ومالك . وتجمع هذه المراجع على أنه درس علوم الظاهر ونبغ في علوم الشريعة واللغة من تفسير وحديث وفقه ونحو وبيان وأدب .

وتبدأ المراجع تسهب في ترجمته وإيراد سيرته منذ بدأ يتصل بشيخه أبي العباس المرسى ، وتاريخ ابن عطاء الله يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الحركة الفكرية وتاريخ التصوف في مصر في القرنين السادس والسابع الهجريين ، فهما القرنان اللذان انتشر فيهما التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساساً لفهم الدين الإسلامي فهماً روحياً بعد أن ظلوا يناضلونه وقتاً طويلاً ، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله هي التفرغ لعبادته ، والفناء في حبه ، والاتصال به عن طريق تصفية القلب والسمو بالنفس والروح ، وترك المتصوفة جانباً وسائل الفقهاء وعلماء الكلام من اعتماد على المنطق الجفاف والجلد العقيم لإثبات وجود الله وبيان قدرته سبحانه وتعالى .

وفي هذين القرنين ظهرت الطرق الصوفية الكبرى من أمثال الطريقة القادرية والطريقة الرفاعية في المشرق : كما ظهرت في مصر وفي نفس الوقت تقريباً الطريقة الأحمدية البدوية والطريقة الشاذلية ، وكثر بالتالي أتباع هذه الطرق من المتطلعين إلى حياة روحية تعتمد في أسسها ومثلها الأخلاقية العليا على أصول الإسلام

وتعاليمه ، وعلى القواعد التي يعتمد عليها ويعترف بها أهل السنة ، وهى القرآن الكريم والحديث الشريف .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الذى ترجم لأستاذه أبى العباس المرسى ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبى الحسن الشاذلى ، وهو الذى سجل عنهما معظم مبادئهما وأقوالهما .

وابن عطاء الله نموذج وحده بين المتصوفة ، فقد كان يجمع بين العلمين : علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق ، وكان مبرزاً فيهما جميعاً ؛ فقد نبغ أول حياته فى علوم الظاهر ، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طريقهم وعلومهم إلى أن أتاحت له الفرصة للتعرف على أبى العباس المرسى ، ومنذ تعرف إليه آمن بطريقهم ، واعترف بعلومهم ، بل أصبح التلميذ الأثير لأبى العباس المرسى ، وواحداً من كبار المتصوفة ، وقد روى ابن عطاء الله قصة تعرفه بأبى العباس ، قال فى « لطائف المنن » :

« كنتُ لأمره (أمر أبى العباس) من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشيء سمعته منه ، ولا لشيء صح نقله عنه ، حتى جرت بينى وبين بعض أصحابه مقالة ، وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلتُ لرجل منهم : ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة ، وظاهر الشرع بأباها ، ثم قلتُ فى نفسى : دعنى أذهب إلى هذا الرجل وأنظر فى شأنه ، فصاحب الحق له أمارات لا تخفى ، فأتيت إلى مجلسه ، فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها ، فقال :

« الأول لإسلام ، والثانى إيمان ، والثالث إحسان .

وإن شئت قلت :

الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت :

الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق ؛ أو نحو ذلك .

فما زال يقول :

وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى ، وعلمت أن الرجل

إنما يعترف من فيض بحر إلهي ، ومدد رباني ، فأذهب الله ما كان عندي » ٥
 ثم يستطرد ابن عطاء الله في رواية قصته مع أبي العباس فيقول :
 « ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجده في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي ، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو ، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء ، وإلى كواكبها ، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملني ذلك على العود إليه مرة أخرى . »

« فأتيت إليه فاستؤذن لي عليه ، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً ، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك ، فكان أول ما قلت له : يا سيدي أنا والله أحبك ، فقال : أحبك الله كما أحببني ، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان ، فقال : أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية ؛ فإن كنت بالنعمة فقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت بالبلية فقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالطاعة فقتضى الحق منك شهود منته عليك فيها ، وإن كنت بالمعصية فقتضى الحق منك وجوب الاستغفار . فقامت من عنده وكأنما كانت المموم والأحزان ثوباً نزعته ، ثم سألتني بعد ذلك بمدة ، كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فما أجده فقال : ليلى بوجهك مشرق ، وظلامه في الناس سارى والناس في سدف الظلام ، ونحن في ضوء النهار إلزم ، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتية في المذهبين . »

يريد مذهب أهل الشريعة من أصحاب العلوم الظاهرة ، ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن .

هذا الحديث هو الذي رفع الغشاوة عن عيني ابن عطاء الله ، وعلمه أن الطريق إلى الله طويل ، وله مراحل مختلفة ، وهو ما يسميه المتصوفة « درجات السالكين » .

وأولى هذه الدرجات عندهم — كما كان يشرح أبو العباس — الإسلام أي الطاعة والانقياد والقيام بفروض الشريعة ، وثانيها « الإيمان » ، وهو مقام معرفة

حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ومقتضيات الربوبية ، وثالثها « الإحسان » وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب ، ومن هنا سمي أبو العباس هذه المراتب في مقام الشرح والتفصيل : بالعبادة ، والعبودية ، والعبودية أى التحقق .

وأدرك ابن عطاء الله أيضاً أن لكل واحد من السالكين إلى الله مرتبة ومقامه ، فمنهم من يرقى إلى المقام الثانى أو الثالث ، وبقدر ما يرقى السالك في هذا الطريق بقدر ما يحصل من السعادة الناتجة عن معرفة الله سبحانه وتعالى والفناء في حبه . كان لهذا كله أثره في حياة ابن عطاء الله وفكره وإنتاجه ، فقد بدأ مريداً بعد أن حصل من العلم قدراً وافراً ، وبعد أن نبغ في دراسة الفقه والشريعة والأدب وعلوم الظاهر عامة ، لهذا لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذ أبي العباس إليه ، وبعد وفاته انتقلت إليه زعامة الطريقة الشاذلية وجلس مجلس أستاذه ، يلقي المواعظ ويفسر القرآن تفسيراً صوفيّاً ، وانتقل إلى القاهرة ، واتخذ له كرسيّاً في الجامع الأزهر يلقي فيه دروسه ويشرح آداب التصوف وتعاليمه .

وكان ابن عطاء الله إلى جانب هذا أديباً حلّو الحديث مشرق العبارة ، فكان لدروسه أثر كبير في نفوس سامعيه ، لهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه « بالخلابة » و « سحر التأثير » و « الجلالة » .

قال ابن تغرى بردى :

« وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلم على كرسي ، ويحضر ميعاده خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب ، وكانت له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطرق » .

وقال الشعراني :

« كان ينفع الناس بإشاراته ، ولكلامه حلاوة في النفوس وجلالة » . وهؤلاء المؤرخون لم يبعدوا عن الحقيقة ، فإننا نحس هذه الخلابة وهذه الجلالة وهذا التأثير الروحي عند قراءتنا لما وصلنا من آثار عطاء الله ومؤلفاته : من أمثال « التنوير في إسقاط التدبير » ، ولكنها تبدو واضحة قوية كأوضح وأقوى ما تكون في كتابه الصغير المشهور « الحكم » .

كان ابن عطاء الله أديباً ممتازاً ذا أسلوب حلّو مشرق ، وكان هذا الأسلوب

ذا أثر خطير في نفوس الناس ، فأقبلوا على دروسه وتحدثوا عنها ، وسمع به السلطان المملوكي المعاصر حسام الدين لاجين ، فشاقه أن يرى الرجل ، وأن يستمع إليه ، فاستدعاه إليه ، وقد روى لنا ابن عطاء الله نفسه خبر هذه المقابلة ، وطرفاً من المواعظ التي ألقاها في حضرة السلطان ، قال :

« لما اجتمعتُ بالسلطان الملك المنصور لاجين رحمه الله قلت له :
يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، وانشرت
قلوب الرعايا بكم ، والرخاء أمر لا يستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه
كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال السلطان :

وما الشكر ؟ قلت : الشكر على ثلاثة أقسام :
شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان .
فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : ”وأما بنعمة ربك فحدث“
وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال تعالى : ”اعملوا آل داود شكراً“
وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : ”وما بكم
من نعمة فمن الله“ .

فقال السلطان : وما الذي يصير به الشاكر شاكرًا ؟
قلت : إذا كان ذا علم فالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فالبذل
والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار
والأنكاد .

بهذا الأسلوب الواضح المعبر المعتمد على الحكم والمنطق تحدث ابن عطاء الله
عن الشكر للسلطان ، فاستطاع أن ينفذ إلى قلبه وأن يستحوذ على إعجابه .
وأسلوب ابن عطاء الله في الحكم لا يختلف عن هذا كثيراً ، بل لقد بلغ
فيه الذروة القصوى من الإبداع والتركيز والتحليل وشرح آداب الطريقة ، فإن له
فيها منهجاً خاصاً ، فهو لا يعنى بالمعنى وحده ولا بالأسلوب وحده ، بل هو يعتقد
أن للبيان سحراً خاصاً ، لهذا كان يتخير الألفاظ ذات الجرس الخاص والنغم
الموسيقى المؤثر ، ومن هنا كان لحيكمة سحر يؤثر في نفوس قارئ الحكم

وسامعيه ، ولهذا ظل كتابه الحكم يقرأ قروناً طويلة في جامعة الأزهر بالقاهرة ،
وفي جامع الزيتونة بتونس ، وفي جامعة القرويين بفاس

استمع إليه وهو يقول في بعض حكمه :

« كيف يشرق قلبٌ صُورُ الأكوان منطبعة في مرآته ؟

أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يظهر من جنابة غفلاته ؟

أم كيف يرجو أن يفهم الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ »

وأنت تلاحظ عند قراءتك لحكمه ومؤلفاته الأخرى أنه متأثر غاية التأثير
بأستاذه أبي العباس المرسى ، فهو يأقن بالحقيقة ، ثم يحللها ، ثم يشرحها ، ثم يكرر
التعبير عنها بأساليب وعبارات مختلفة ، ثم هو في هذا كله يتخير الألفاظ ذات
الجرس الخاص والنغم الموسيقى المعبر المؤثر .

ثم هو أخيراً يراعى التدرج في تفصيل أجزاء الحكمة أو الحقيقة التي يشرحها .

استمع إلى هذه الحكمة الأخرى من حكمه :

« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر لكل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟ »

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله عن غيره من المتصوفة ، وذلك أنه لم
يدخل الطريق إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة والظاهر ونبع فيها ، ولهذا كان يعتر
بهذه المنة وإن كان يخشى أن تمنعه من القربى إلى شيخه وسلوك طريق المتصوفة ،
ومرّ في أول أمره بفترة قلقه وهو مضطرب النفس بين الطريقتين إلى أن أخذ
شيخه أبو العباس بيده وأفهمه أنه يستطيع أن يجمع بين العلمين وأن يبرز فيهما جميعاً .

قال ابن عطاء الله :

سمعت الطلبة يقولون : من صحب المشايخ لا يحىء منه فى العلم الظاهر شىء ، فشق على أن يفوتنى العلم ، وشق على أن تفوتنى صحبة الشيخ ، فوجدته يأكل لحمًا بخلًا ، فقلت فى نفسى :

ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده ؟ فما استتممت الخاطر إلا وقد وضع فى فمى لقمة من يده ، ثم قال : نحن إذا صحبنا تاجرًا ما نقول له اترك تجارتك وتعال ، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال ، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال ، ولكن نقر كل واحد فيما أقامه الله تعالى فيه ، وما قسم له على أيدينا هو واصل إليه ، وقد صحب الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قال لتاجر اترك تجارتك ، ولا لذى صنعة اترك صنعتك ، بل أقرهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى الله فيها .

وقال أيضاً :

« دخلت يوماً على الشيخ أبى العباس وفى نفسى ترك الأسباب والتجرد وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً : إن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحالة ، فقال لى - من غير أن أبدى له شيئاً - صحبنى بقوص إنسان يقال له ابن ناشر ، وكان مدرساً بها ونائب الحكم فيها ، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا ، فقال : يا سيدى : أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له : ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أقامك الله ، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل ، ثم قال : هكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شىء حتى يكون الحق هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، وكأنها كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه . »

ومر ابن عطاء الله بهذه الفترة القلقة ، وعاد الهدوء إلى نفسه منذ طمأنه شيخه وأستاده أبو العباس بأنه يستطيع أن يجمع العلمين ، علم الظاهر وعلم التصوف ، ولهذا حرص منذ تلك اللحظة على أن يحظى برعاية شيخه حتى يسير فى طريق

السالكين إلى نهايته ، روى أنه قال مرة لبعض أصحاب الشيخ :

« أريد لو نظر الشيخ إلى بعنائه وجعلنى في خاطره ، فقال ذلك للشيخ ، فلما دخلت إليه قال : لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره ، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم ، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده » .

قال ابن عطاء الله :

« ثم قال لى الشيخ : أى شىء تريد أن تكون ؟ والله ليكونن لك شأن ، والله ليكونن لك شأن عظيم » .

ويعقب ابن عطاء الله على هذه الرواية بقوله :

« فكان من فضل الله سبحانه وتعالى ما لا ننكره » .

وكما اختلف ابن عطاء الله في شأن نفسه ، أیظل في دراسته لعلوم الشريعة والفقه ، أم ينطلق في طريق المتصوفة ، كذلك اختلف تلاميذ الشيخ أبى العباس وأتباعه في شأنه ، ولكن الشيخ جعل له الصدارة في العلمين ، قال ابن عطاء الله :

« أخبرنى سيدنا جمال الدين ولد الشيخ قال : قلت للشيخ : هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه ، فقال الشيخ : هم يصدرونه في الفقه وأنا أصدره في التصوف ، ثم دخلت عليه فقال لى : إذا عوفى الفقيه ناصر الدين (ابن المنير) يجلسك في موضع جدك ، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية ، وتكلم إن شاء الله في العلمين ، فكان ما أخبر به » .

وهكذا تحققت نبوءة الشيخ ، وأصبحت لابن عطاء الله الصدارة في العلمين وآلت إليه رئاسة الطريقة بعد موت شيخه أبى العباس ، وأصبح له كرسى في الجامع الأزهر ، يلقى منه دروسه في الفقه والشريعة والتفسير ، وفي التصوف وآدابه ، وكانت حلقات درسه تعج دائماً بالمستمعين المعجبين ، فقد كانت لدروسه ولأسلوبه في الشرح حلالة وتأثير على السامعين .

وتوفى ابن عطاء الله في القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩) ودفن بالقرافة الصغرى ، وقبره معروف بها حتى اليوم .

وفي الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، وليس صحيحاً أنه دفن بهذا المسجد .
بل الصحيح أنه دفن بالقاهرة ، وقد حقق المرحوم محمد رمزي موضع قبره في
تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة قال :

« قبر ابن عطاء الله الإسكندري لا يزال موجوداً بجبانة سيدى على أبي الوفاء
الكائن تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث » .
ولابن عطاء الله مؤلفات كثيرة منها :

— « التنوير في إسقاط التدبير »

— « المرقى إلى القدس الأبقى »

— « الحكم العطائية »

— « مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح » .

— « تاج العروس الحارثي تهذيب النفوس »

ولعل أهمها كتابه « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المسمى وشيخه

أبي الحسن » ، فقد رسم فيه صورة حية لشيخه ، وسجل الكثير من الحقائق
عن الطريقة الشاذلية وعن التصوف وآدابه بوجه عام .

القبارى

أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى
(٥٨٧ - ٦٦٢ هـ) = (١١٩١ - ١٢٦٤ م)

« من قعد فى خانقاه فقد سأل

ومن لبس مرقعة فقد سأل

ومن لبس سبحة فقد سأل

ومن فتح مصحفاً فى مسجد فقد سأل »

القبارى

أبو القاسم القبارى

شهدت مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين مدرسة صوفية كبرى نبغ من رجالها عدد من الشخصيات التى احتلت مكاناً مرموقاً فى تاريخ التصوف الإسلامى ، ومن الغريب أن معظم هؤلاء المتصوفة نشأوا فى مدينة الإسكندرية ، أو اتخذوها مقراً لهم ومركزاً لنشاطهم الدينى الروحى ، من أمثال أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وياقوت العرش والبوصيرى والشاطبى .

وأبو القاسم القبارى واحد من كبار رجال هذه المدرسة الصوفية عاش فى نفس الوقت وعاصر معظم هؤلاء الرجال .

ولد سنة ٥٨٧ هـ وأدرك فى طفولته السنوات الأخيرة من عصر صلاح الدين ، وهو عصر مليء بالانتفاضات الروحية التى أثارها ذلك البطل بجهاده ضد الصليبيين ، وبانتصاره الحاسم فى وقعة حطين التى مهدت لاستعادة بيت المقدس وفلسطين ، ثم عاش القبارى شبابه فى عصر الملك الكامل محمد الأيوبي ، وهو عصر أبرز ما امتاز به نهضة علمية مزدهرة تولى قيادتها عدد من العلماء المصريين وعدد من العلماء المسلمين الوافدين على مصر ، وشهد القبارى فى شيخوخته نهاية دولة بنى أيوب وقيام دولة المماليك وما صاحب ذلك من نزول حملة لويس التاسع الصليبية على مصر ، وجهود الملك الصالح نجم الدين أيوب لإخراجها ، وهذا عصر شهد أعجافاً حربية أخرى فى وقعة عين جالوت التى أحرز النصر فيها ضد قوات التتار السلطان المملوكى الملك المظفر قطز والقائد المملوكى ركن الدين بيبرس الذى ولى السلطنة فيما بعد

وحياة هذا العالم المتصوف ما زالت غامضة لم تصلنا عنها إلا شذرات قليلة متفرقة فى كتب التاريخ والتراجم ، وإلا ترجمة مختصرة لحصّها أحمد بن عبد الكريم حمزة عن كتاب كان قد ألفه فى سيرة القبارى واحد من كبار تلاميذه ومن كبار علماء الإسكندرية وهو ناصر الدين بن المنبجى .

لسنا نعرف شيئاً عن أسرة القبارى غير اسمى والده وجدته ، فإن الكتب التى ترجمت له تذكر أنه أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى المعروف

بالقبارى ، ومن هذا التعريف نستطيع أن نعلم أيضاً أن القبارى كان مالكي المذهب ، ولا غرابة في هذا فالغالبية العظمى من السكندريين كانوا في ذلك العصر من أتباع مذهب مالك ، ونستطيع أن نعلم أيضاً أنه كان مصرياً أصيلاً من أهالي الإسكندرية ، بل هناك من النصوص ما يؤكد هذه الحقيقة ، فقد ورد في ترجمة ابن المنير له رواية عن القبارى نفسه أنه قال :

« سبق إلى ذهني في مبدأ العمر اختيار بستان الرمل من متروك أبي » .

ويفهم من هذا أن أباه كان سكندرياً ، وأنه ترك له قطعة من الأرض في الرمل . وقد تلقى القبارى في طفولته العلوم الدينية التي كان يتلقاها الصبية في عصره ، ولكن يبدو أنه كان مقبلاً على الدراسة محباً للعلم ، فقد قال ابن المنير :

« وجبَّ إليه سماع العلم » .

ولسنا نعرف على وجه التحديد مَنْ أساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وما هي المدارس أو المساجد أو الحلقات التي كان يتردد عليها للدراسة ، ولكننا نستطيع أن نرجح أنه تتلمذ على كبار العلماء والمتصوفة الذين كانت تعمر بهم الإسكندرية في ذلك العصر ، من أمثال أبي الحسن الشاذلي ، وأبي العباس المرسى ، وابن عطاء الله السكندري ، وياقوت العرش ، والبوصيري وغيرهم ، ولكن القبارى ابتلى بما نَعَص عليه عيشه وحرمه لذة الاستماع إلى العلم ، فقد روت المراجع أنه كان ثقیل السمع ، ومع هذا كان يحرص الحرص كله على حضور مجالس العلم ، فإذا انقضى المجلس لجأ إلى لِدَاتِهِ ورفاقه يسألهم أن يعيدوا عليه ما سمعوه مما فاتته ، قال ابن المنير :

« وكان — أى القبارى — يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فإذا

انقضى الدرس سأل أترابه أن يعيدوا له بصوت عال كلام المدرس » .

ثم استطرد ابن المنير يروي عن القبارى نفسه قصة حدثت له بهذه المناسبة ، قال القبارى :

« وكان لي تيرب قد تنبه وتبهاً بهيئة الفقهاء في لباسه وكلامه ، فوقفت به

يوماً وسألته أن يعيد لي ما جرى لهم في الدرس ، فنفر في وجهي نفرة التكبر ،

فكسر قلبي ، فرجعت دارنا وكانت لنا غرفة خربة ، وكنت أدخلو فيها ،

فصعدت إليها وصليت ركعتين وبكيت ، وقلت : ” ابتليتني بحب العلم

وثقل السمع حتى تكبرَّ علىَّ فلان اليوم ، وبخل علىَّ بما لا يضره “ ،
ودعوتُ على ذلك المسكين ، فاتفق في بقية النهار أنى اجتمعت ببعض من
كنت أطلععه على أمرى ، فتحدثت معه في ذلك ، فلم يمر على ذلك المدعو
عليه شهرٌ حتى ظهرت عليه آثار المكر والإعراض عن العلم ، وترك التزني
بزى أهله ، وسقط بالكلية عن تلك الرتبة ، فقال لى ذلك الرجل : أقسم
عليك بالله لا تعجل بعد هذا بالدعاء على أحد .

يقول ابن المنير :

« فكان بعد ذلك لا يدعو لأحد ولا على أحد » .

بل كان إذا طلب أحدٌ منه الدعاء يقول :

« للطالب ما يحتاج » .

ويقول لآخر :

« ما أشتى لأحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا خيراً » .

ويقول لآخر :

« أود لو كان الناس كلهم على الخير » .

ويقول لآخر :

« أحب لكل أحد ما أحب لنفسى » .

ويقول لآخر :

« الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء فإن خالف القضاء نُسخ الدعاء

وثبت القضاء » .

يتضح من هذه القصة أن الشيخ أبا القاسم قد أثر حياة الزهد والعبادة والتقشف ،
واتخذ له خلوة يتعبد فيها ، وبطيل الصلاة ، ويكثر الدعاء ، بدليل قوله :

« وكانت لنا غرفة خربة ، وكنت أخلو فيها » .

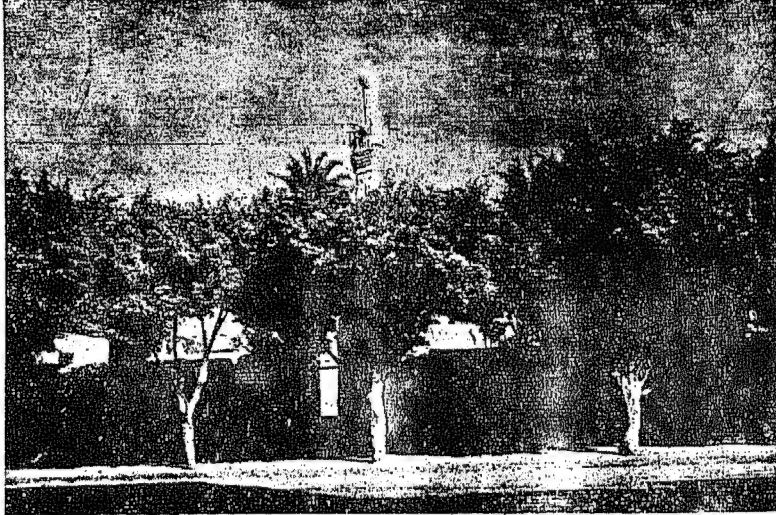
وأخلص أبو القاسم في عبادته ، وصفت نفسه ، وزالت الحجب بينه وبين الله
سبحانه وتعالى حتى أصبح مستجاب الدعوة ؛ ولكنه بعد أن أخذته فورة من فورات
الشباب فدعا على زميله في الدراسة ، وبعد أن تحقق من استجابة الدعوة في هذا
الزميل ، وانصرفه عن العلم والتحصيل ، آلى على نفسه أن لا يدعو لأحد أو على

أحد ، وكان الناس يقصدونه من كل مكان ، ويسألونه البركة والدعاء ، فيصرفهم بهذه الأقوال التي لا تزيد على أن تكون تمنيات طيبة ، وتحدث الناس في هذا ، وتساءلوا عن سر انصراف الشيخ عن الدعاء لهم ، وحل هذا السؤال إليه تلميذه ابن المنير فأجابه بقوله :

« يطلب أحدهم مني الدعاء بلسانه ، ويظهر من قرائن أحواله أن قلبه غافل ، وأن نفسه قاسية على نفسه ، فكيف أرقّ أنا عليه أو كيف أدعو بلا رِقَّة » .

ثم روى الشيخ القباري لابن المنير القصة التالية قال :

« لقد حضر عندي يوماً أحد أصحاب الملك الكامل وهو في غاية البذخ ، عليه الملبوس الفاخر ، وعلى الباب المراكب النفيسة ، وبين يديه المماليك الثمينة ، وهو يتحدث مع رفيقه ويتصاحكان ، ثم سألت الدعاء ، فأجربته على العادة ، فناقشني وقال : ما للناس يتحدثون بأنك لا تدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك فقلت : أحوجتني لإقامة الحجة عليك ، أأستعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم؟ فقال: بلى ،



مسجد القباري

(تحجبه الأشجار المزروعة في الرحبة المحيطة به)

فقلت : أطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أو بقسوة ؟ فقال :
برقة ، فقلت : ما وجدتها منك ، فبأى لسان أدعو ؟ وإن شئت الدعاء
باللسان فهو البندق الفارغ ، خرج منه ما شئت بلا قلب . فقامت عليه
الحجة » .

وهكذا ألزم الشيخ القبارى هذا الرجل من رجالات الدولة الحجة ، فهو
يشترط فيمن يطلب الدعاء أن ينزع عن نفسه العظمة الفارغة والجبروت الإنسانى ،
وأن يتقدم للدعاء أو لطلبه بنفس صافية غاية الصفاء رقيقة غاية الرقة .

وهذا ما التزمه القبارى فى حياته ، فقد أثر العزلة ، فاختر مكاناً بعيداً خارج
مدينة الإسكندرية فى الناحية الغربية منها ، واتخذ بستاناً يفلحه ويأكل من
ثمره ، وبني فيه داراً يسكنها ويتعبد فيها ، ولم يكن القبارى يتبع طريق المدعين
من المتصوفة والفقراء والمتدروشين الذين يتظاهرون بالعبادة والفقر ولبس المرقعات ،
ويلتزمون تبعاً لذلك حياة الكسل والتراخى ، ويلتمسون سبل الرزق بالسؤال
ولإراقة ماء الوجه ، بل كان القبارى شبيهاً بأبى الحسن الشاذلى وأبى الالباس المرسى ،
ويرى أن العمل فريضة وعبادة ، وأن السؤال مذلة ومهانة ، فن أقواله المأثورة :

« من قعد فى خانقاه فقد سأل ، ومن لبس مرقعة فقد سأل ، ومن لبس

سبحة فقد سأل ، ومن فتح مصحفاً فى مسجد فقد سأل » .

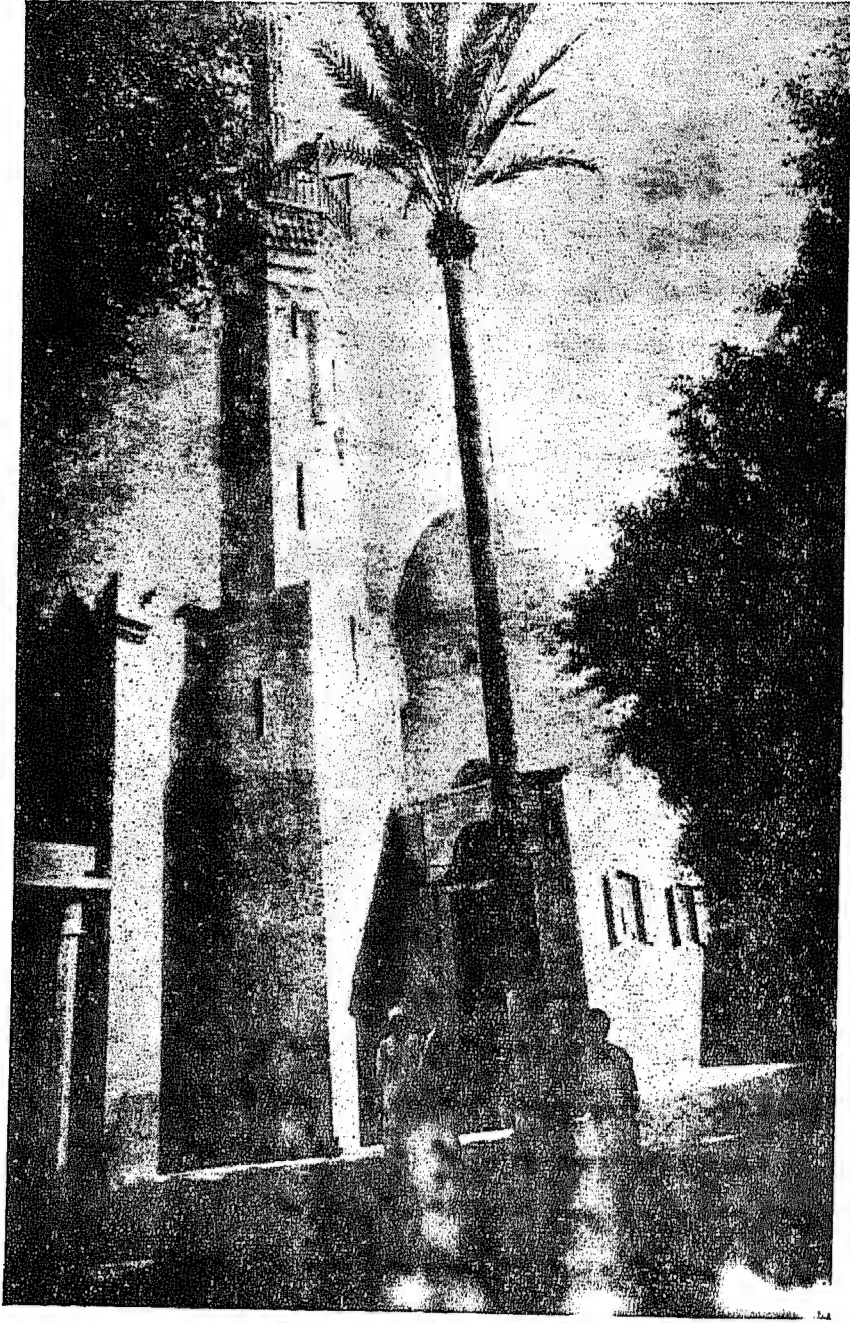
وكان رحمه الله يرى أيضاً أن ترك السبب - أى العمل - اعتماداً على الفتوح
إنما هو النقل من سبب نظيف إلى سبب وسخ ، وذلك أن الاحتراف بسبب شرعى
لا عيب فيه لا فى الدنيا ولا فى الدين .

وعرف الناس جميعاً للقبارى صلاحه وتقواه ، فكانوا يترددون على بستانه لزيارته
والتبرك به ، وعرف الحكام فى مصر - قبل العامة - للشيخ قدره ومكانته ،
فكانوا يسعون دائماً لزيارته ، ولكنه كان يأنف من مقابلتهم ، وكان كما يقول
ابن المنير :

« لا يأذن لأحد من أهل الدنيا وأرباب الولايات فى الدخول عليه

متى شاء » .

وطالما سعى لزيارته ولالة الإسكندرية وكبار رجال الدولة ، بل سلاطين مصر



مسجد القبارى
(المدخل والمئذنة والقبة)

أنفسهم ، ولكنه كان يرفض مقابلتهم ، والسعيد منهم من كان يسمح له بالتحدث إليه من نافذة بالدار التي يسكنها ، وخير مثال لهذا ما ذكره المؤرخ ابن واصل من أن السلطان الملك الظاهر بيبرس - وهو من هو قوة وعظمة - زار الإسكندرية في سنة ٦٦١ هـ وانتهر هذه الفرصة وأرسل يستأذن الشيخ القبارى في الزيارة ، فأذن له ، فلما أتاه وتحدث إليه لم يكن للشيخ من حاجة يزجيهما إلى السلطان إلا نصحه إياه أن يعنى بعمارة الثغر وتحصينه ، فقدّر بيبرس له نصحه وخرج من عنده فقصده مباشرة إلى أسوار المدينة ، فطاف بها ، وأمر بترميمها والعناية بها .

وتوفى الشيخ أبو القاسم القبارى رحمه الله في سنة ٦٦٢ هـ عن خمس وسبعين سنة ، ودفن في بستانه ، وأقيم على ضريحه مسجد صغير قام بتوسيعه محمد سعيد باشا في القرن التاسع عشر ، ثم أقبل العامة من أهل الإسكندرية في العصور التالية على السكن حول هذا القبر ، فعمر الحى ، وأصبح من أكبر أحياء المدينة ، ويعرف باسم القبارى .

السيد محمد كريم

أعظم رماً بالرصاص
في ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨

السيد محمد كريم

السيد محمد كريم مصرى صميم ، وسكندري أصيل ، وعصامى مجاهد ، نشأ نشأة بسيطة ، فبدأ حياته قبانياً فى الثغر ، وكان عنده - كما قال الجبرتي - « خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة فأحبه الناس ، واشتهر ذكره فى ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر » ، وأهله هذه الصفات لتولى أكبر مناصب المدينة ، فلم يلبث مراد بك أن أصدر أمره بتقليده أمر الديوان والجمارك بالثغر ، أى أنه عينه حاكماً للإسكندرية ومديراً للجمارك بها ، وبذلك أصبح صاحب الكلمة العليا فى الإسكندرية ، أو كما قال الجبرتي : « ونفذت كلمته وأحكامه » ، وبذلك صدقت عليه كلمة الشاعر :

« نفس عصام سوّدت عصاما »

وفى سنة ١٧٩٨ كانت فرنسا قد أعدت حملتها بقيادة نابليون بونابرت لغزو مصر ، وعلمت إنجلترا بأمر هذه الحملة ، غير أنها لم تكن على بينة من هدفها ، فأرسلت أسطولها بقيادة نلسن لتتبع الحملة الفرنسية . ومرت حملة نابليون بحزيرة مالطة وتلكأت فيها قليلا ، وسبقها أسطول نلسن إلى مياه الإسكندرية فى ٢٨ يونية سنة ١٧٩٨ ، وأرسل نلسن إلى السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية ينبئه بأمر الحملة الفرنسية ويحذره من احتمال وصولها إلى مصر ، ويطلب منه أن يسمح له بالحصول على الماء والطعام من المدينة على أن يدفع الثمن . ويقول الجبرتي فى وصف هذه المقابلة بين نلسن وبين محمد كريم :

« وإذا بقايق صغير واصل من عندهم (الإنجليز) وفيه عشرة أنفار ، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والتقص السيد محمد كريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم ، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين ، لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ، ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل

السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنجليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر، ولا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمانه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل، فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنجليز، وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية».

وأقلع الأسطول الإنجليزي متجهاً إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، ووصل الفرنسيون يوم ٣٠ يونيه، وأرسلوا يسألون السماح لقنصل فرنسا بالثغر بمقابلتهم، ووقف السيد محمد كريم وقفته الأولى، ورفض السماح للقنصل، ولكن نقولا الترك يذكر أن إدريس بك قومندان السفينة العثمانية التي كانت راسية بالثغر أقنع السيد محمد كريم بالتصريح لقنصل فرنسا بمقابلة القادمين، ومع هذا أرسل السيد محمد كريم مع القنصل بعض البحارة من أهل الإسكندرية وأوصاهم بإرجاعه إلى الثغر بعد انتهاء المقابلة.

ووصف القنصل لقواد الحملة الحالة في الإسكندرية، وكيف أن الأهالي يستعدون جهدهم للمقاومة، ولكن المدينة لم تكن للأسف في حالة تسمح لها بمقاومة الفرنسيين، فقد كانت أسوارها وقلاعها وحصونها مهدمة مخربة منذ أمد طويل، وأخطر ما كان يخشاه الفرنسيون أن يعود الأسطول الإنجليزي فيلتحم بأسطولهم في معركة بحرية، فأصدر نابليون أوامره في الحال بإزالة الجنود في منطقة العجمي، وفي الساعات الأولى من صباح يوم ٢ يوليو تقدمت جنود الحملة الفرنسية بالزحف نحو الإسكندرية فوصلت أسوار المدينة عند شروق الشمس، وعسكروا عند عمود السواري.

وأحس السيد محمد كريم بالخطر، فبذل هو والأهالي ما استطاعوا من جهد لترميم الأسوار والقلاع، وحملوا السلاح للدفاع عن المدينة، وأرسل السيد محمد في هذه الليلة ١٣ رسولا إلى مراد بك بالقاهرة ينبئه بتزول الفرنسيين، ويسأله المدد والمعونة.

وهاجم الفرنسيون مدينة، ودافع الأهالي عن مدينتهم دفاع الأبطال،

وقاوموا العدو مقاومة مجيدة ، ولكن العدو كان أكثر عدداً وأقوى عدة ، فاقتحم الأسوار ودخل المدينة ، ومع هذا لبث السيد محمد كريم يدافع ويقاوم ومعه فريق من السكندريين معتصمين بطابية قايتباى حتى بعد دخول الفرنسيين المدينة ، وأخيراً عندما أيقن أن لا فائدة من النضال كفّ عن القتال وسلّم القلعة ، وأكبر نابليون في السيد محمد كريم روح البطولة ، فاستقبله استقبالا كريماً ، ورد إليه سلاحه تقديراً لشجاعته ، وقال له : « لقد أخذتك والسلاح في يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع ، والشجاعة والشرف صنوان لا يفترقان ، لهذا أعيد إليك سلاحك ، ورجائي أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبدى لحكومة سيئة » .

وقد حضر مسيو فيفان دينون — أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون — هذه المواجهة ووصف السيد محمد كريم بقوله : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء ، وكأنما كان يكم عواطفه عنا ، على أنه بدت عليه علامات التأثير من العفو الذى أسداه إليه القائد العام » .

لقد قدر نابليون في السيد محمد روح البطولة والكفاح في الدفاع عن وطنه ، ولكنه أراد في الوقت نفسه أن يستميله إليه ليستعين به في حكم المدينة ، ترى هل استجاب السيد محمد لهذه الدعوة عندما قبل أن يعود إلى منصبه كحاكم عام بالإسكندرية ؟ كلا ، فقد قبل الرجل المنصب ليزرع الشوك في طريق الأعداء ، وليثير الصعاب أمامهم في كل خطوة يخطونها .

وبدأ نابليون زحفه نحو القاهرة ، وخلف وراءه الجنرال كليبر حاكماً عسكرياً لمدينة الإسكندرية ، والسيد محمد كريم محافظاً لها ، وأوصاه أن يتعاون مع كليبر في حكم المدينة ، وبدأ كليبر يعمل لتثبيت أقدام الفرنسيين في الإسكندرية وإقليم البحيرة ، فأمر بعد قليل بإرسال إحدى كتائبه بقيادة الجنرال ديموى لتطوف بالمنطقة المجاورة لتأمين مواصلات الفرنسيين ، فتسير إلى دمنهور وترتكها إلى رشيد ، ثم تخرج على أبى قير في طريق عودتها إلى الإسكندرية . وانتهر الأهليون الفرصة ، واستيقظت فيهم روح المقاومة ، فاخفتت الجمال والقرب تماماً من المدينة ، وبذلك لم تستطع الكتيبة أن تزود بما يكفيها من الماء والذواد ، وعمل الأهالى والعربان على

مهاجمة الكتيبة ومناوشة جنودها في أثناء رحلتها ، ويقول ديموى في تقريره : « وقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للإسكندرية ، وخيل إلى أن هناك اتصالاً بينهم وبين أهل الإسكندرية » .

ووجدت الكتيبة عنتاً شديداً من الأهالي في دمنهور وفي كل مكان ذهبت إليه ، وبدأت القيادة الفرنسية ترتاب منذ ذلك الحين في نوايا السيد محمد كريم وتشك في إخلاصه لها ، وتهمه بإثارة الأهالي وتحريضهم على العصيان ، فأمر كليبر بالقبض على السيد محمد كريم ، وأرسله إلى أبي قير ليعتقل في البارجة أوريان ، وأمر الأميرال برويس بأن يحسن معاملته إلى أن يتصل في شأنه بنابليون ؛ وأقر نابليون كليبر على سياسته ، وأرسل إليه ينبئه بأنه تأكد لديه خيانة السيد محمد كريم ، وأمره أن يكبله في الحديد ، وأن يلقي القبض على أتباعه وحاشيته ، وأن يودعهم السجن ، وأن يعمل جاهداً للبحث عن أمواله وثروته ، ولم تصل هذه الرسالة إلى كليبر لأن حاملها قتل في الطريق .



السيد محمد كريم

ولكن الأميرال برويس أرسل السيد محمد كريم إلى رشيد ليعث به الجنرال مينو إلى نابليون في القاهرة . ولم يكذ يعلم أهالي رشيد بوصوله حتى توافدوا من كل مكان للحفاوة به ، حتى اضطر مينو إلى القبض عليه والإسراع بترحيله إلى القاهرة . وفي القاهرة اتهم السيد محمد كريم بخيانة الفرنسيين ، وبدأت محاكمته ، وفي يوم ٥ سبتمبر أصدر نابليون أمره بإعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ولكنه سمح له بأن يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثون ألف ريال في مدى أربع وعشرين ساعة .

وهنا امتحنت بطولة السيد محمد كريم امتحاناً جديداً ، ولكنه كان يؤمن بأنه

برئ ، وأنه لم يقترف جرماً ، وإنما كان يجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه ، فإذا كان الوطن يتطلب منه التضحية بأغلى ما يملك ، بروحه ، فإنه ليجود بها غير ضنين ؛ لقد حاول فانتور كبير تراجمة الحملة أن يغريه بدفع الفدية ، فقال له : « أنت رجل غنى ، فماذا يضريك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟ »

فأجابه السيد محمد لإجابة الرجل المؤمن صادق الإيمان :

« إذا كان مقدوراً على أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا

المبلغ ، وإذا كان مقدراً لي الحياة فعلام أدفعه » .

وظل السيد محمد كريم على إصرره ، فحمل في اليوم التالي ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى ميدان الرميّة حيث أعدم رمياً بالرصاص ، فصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها لتكون شعلة دائمة تنير الطريق للمصريين في جهادهم ضد كل عدوٍّ مغير يحاول أن يعتدى على هذا الوطن المفدى ، مصر كنانة الله في أرضه .

عبد الله النديم

(١٢٦١ - ١٣١٤ هـ) = (١٨٤٥ - ١٨٩٦ م)

خطيب الثورة العربية

« كان - عبد الله النديم - شهي الحديث ، حلو الفكاهة ، إذ أوجز ودّ المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة في آخر إقامته بمصر فرأيت رجلاً في ذكاء إياس ، وفصاحة سحيان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقلُّ من نثره ، ونثره أقلُّ من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا »

أحمد تيمور

عبد الله النديم
خطيب الثورة العربية

(١٢٦١ - ١٣١٤ هـ) = (١٨٤٥ - ١٨٩٦)

« إني رجل عربي الجنس - حسنى النسب ، إسكندري المولد والمربي ، إسلامي الدين ، أشعري العقيدة ، شافعي المذهب ، خلقي الطريقة ، مصري الوطن ، تربيته على نفقة والدي حتى يفت ، وأخذت عن العلماء الأفاضل كثيراً مما به يشتغلون من السمعيات والعقليات ، وجالست الأدباء وشاركهم فيما فيه يتنافسون ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من الجهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون ، وحاييت كثيراً من متفرجة الشرقيين ، وألمت بما انطبع في مرآة صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين . في الغرب ممن ثبتت أقدامهم في وطنيتهم ، وفطروا على حب الجنس والوطن والدين ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم - عالية أو سافلة - فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم من مواطنهم واستيطانها وخدمتها ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة والسياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت براءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسائي نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا ، وسبكني في قالب الكهولة أيام الفتاء ، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء » .

هذا هو موجز ترجمة عبد الله النديم حتى سن التاسعة والثلاثين كما كتبها بقلمه في كتابه « كان ويكون » بعد خروجه من محبته . غير أن دارس حياته دراسة تفصيلية يرى أن وراء كل جملة من هذه الحمل حياة حافلة ، وحيوية دافقة ، ونشاطاً دائماً ، وجهاداً مريراً في سبيل الحرية ، حرية مصر أولاً وحرية هو ثانياً .

ولد عبد الله النديم في مدينة الإسكندرية في العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٦١ (١٠ ديسمبر ١٨٤٥) لأب متوسط الحال والثروة ، بدأ حياته نجاراً للسفن ، ثم ترك التجارة إلى الحيازة ، فكان صاحب مخبز يصنع الخبز ويبيعه للناس .

وقد أرسل الوالد ابنه إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا - وكان يقوم في ذلك الحين مقام الجامع الأزهر بالقاهرة - فدرس به العلوم الدينية ، غير أنه أظهر منذ حداثة ميلًا خاصًا للدراسة الأدب وتذوقه ، فانكب على قراءة كتبه ، وتردد على مجالس الأدباء « فبرع في الفنون الأدبية ، وكتب وترسل ، ونظم الشعر والزجل ، وطارح الأخوان ، وناظر الأقوان^(١) » وساعده على التفوق والبروز في هذا الميدان ذكاء فطري خارق وحافضة مصورة قوية .

ولم تكن مهنة الأدب في ذلك العصر بالمهنة التي تدر الرزق أو تجلب الكسب ، إلا أن يحيا الأديب في كنف أمير أو رعاية عظيم ، وأننى للنديم هذا وقد كان بعدُ يافعاً لا يزال يخطو خطواته الأولى ؛ لهذا رأى أن يمتن مهنة في اليد تكسبه عيشه وتغنيه من فقر ، فتعلم فن الإشارات البرقية ، وأتقن هذا في مدة وجيزة ، ثم التحق برقياً (تلغرافياً) بمكتب البرق ببها ، ولم يلبث به إلا قليلاً حتى نقل إلى مكتب القصر العالى بالقاهرة - سكن والدة الخديو إسماعيل .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بالأدباء ، حافلة بالشعراء أمثال محمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، وعبد الله باشا فكرى ، والشيخ أحمد وهبى ... إلخ فتعرف النديم عليهم واستمع إليهم وأسمعهم ، فكانت مجالسهم المدرسة الثانية التي صقلت أسلوبه وفتحت شاعريته .

وكان للقصر العالى أغناً جباراً هو الحاكم بأمره في شؤون القصر جميعاً ، وقد

(١) تيمور باشا : تراجم أعيان القرن الثالث عشر ، ص ٣ .

ساعات العلاقات بعد قليل بين النديم وبين هذا الأغا المسمى خليلاً ، فأمر بفصله ، وأخرجه هذا الفصل إلى ميادين الحياة الفسيحة يضرب في مناكبها ، يبتغى الوسيلة لكسب عيشه ، لا عدة له إلا ذخيرة من حفظة ، وقريحة وقبادة ، ونفساً وثابة ، وعقلاً يفكر ، وقلماً يكتب .

وكانت الميادين التي يستطيع أن ينزل إليها وينازل فيها بهذه العدة فيصول ويجول هي ميادين التعليم والصحافة ، ولكنه لم يتجه إليها أول ما اتجه ، فقد كانت المدارس بعدُ حكومية ، كما كانت الصحافة صحافة رسمية أو شبه رسمية .

ونزح النديم عن القاهرة إلى بدوآى - إحدى قرى مديرية الدقهلية - ونزل بها ضيفاً على عمده الشيخ أبى سعدة يقرئ أولاده ، غير أنه لم يلبث أن اختلف مع مضيفه ، فترك بدوآى إلى المنصورة ، واتصل هناك بعين من عيونها هو السيد محمود الغرقاوى فأكرم ضيافته ، وفتح له دكاناً للتجارة « ولكن تغلب كرمه الحاتمي على رأس المال والريح ففقداهما جميعاً ^(١) » .

وفي سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) رحل إلى طنطا ، واتصل أثناء مقامه بها بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى ، « وكان مجلس شاهين باشا محط رجال الأدباء ، ومنتجع الشعراء والندماء ، لا يخلو من مطارحات أدبية ومساجلات شعرية ^(٢) » .

ولبث يقيم في طنطا وما يحيط بها من مدن وقرى ثلاث سنوات ، فلما كانت سنة ١٨٧٩ . أحس الحنين إلى بلده الإسكندرية ، فعاد إليها ليبدأ صفحة جديدة من الكفاح ، فقد كان كفاحه حتى ذلك الحين في سبيل الرزق وحده ، أما كفاحه بعد عودته إلى الإسكندرية فسيكون من أجل مصر والمصريين .

كانت نفوس المصريين في ذلك الحين قلقة مضطربة ، وأفكارهم ثائرة مضطربة ، وكان جمال الدين الأفغانى يعقد حلقاته في القاهرة ، ويلقى دروسه على النخبة الممتازة من تلاميذه ، فينير الشعلة ويضيء الطريق ، ولم تكن

(١) من ترجمته بquam صديقه أحمد أفندى سيمير في مقدمة (سلافة النديم) ج ١ ، ص ٦ .
(٢) تيمور باشا ، المرجع السابق ، ص ٥ ، وقد روى له هناك مساجلات زجلية طويلة حدثت بينه وبين طائفة الأدباء . وهذه المساجلات منقولة عن مجلة الأستاذ (العدد ٤١) التي كان يصدرها النديم .

الإسكندرية — عاصمة القطر الثانية — أقل نشاطاً من القاهرة ، بل لعلها كانت تبذ القاهرة بكثرة ما كان بها من جمعيات وطنية وصحف عربية ، وكان أهم هذه الجمعيات جمعية « مصر الفتاة » وهي جمعية كانت تهدف إلى الإصلاح ، وإنما كانت تعمل له في السر ، ووسائلها هي ووسائل الجمعيات السرية ، فاتصل بها النديم بعد عودته ، ولكنه لم يلبث أن أنف من العمل في السر ، وأراد أن يعمل في العلن ، وكانت أصلح الميادين وأوفقها لمواهب النديم الصحافة والتعليم كما سبق أن ذكرنا .

وقد ظهر بالإسكندرية وقت وصوله إليها عدد من الصحف قام على إنشائها نقر من السوريين واللبنانيين الأحرار الذين نزحوا عن بلادهم ، واتخذوا الإسكندرية مقراً لهم ، ففي هذه المدينة أصدر سليم وبشارة تقلا جريدة « الأهرام » في ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، وفي سنة ١٨٧٦ وصلها أيضاً الأديب الكبير أديب إسحاق ، ولم يلبث بها إلا قليلاً حتى أنشأ جريدته « مصر » ، وكان يشاركه في تحريرها مواطنه سليم نقاش .

وسمع أديب وهو في الإسكندرية بحكيم الشرق جمال الدين الأفغاني ، فشدد الرحال إلى القاهرة ، واستمع إليه ، وتلمذ عليه ، وتأثر بأرائه ، وفتح له صفحات جريدته « مصر » ، فكان جمال الدين ونخبة من تلاميذه — وخاصة الشيخ محمد عبده — ينشرون في هذه الجريدة مقالاتهم ، ولم يكن غريباً إذن أن يتصل عبدالله النديم — وهو تلميذ قديم للأفغاني — بأديب إسحاق وجريدته وأن يكتب فيها .

وفي سنة ١٨٧٨ أصدر أديب في الإسكندرية أيضاً جريدة أخرى أسماها « التجارة » كانت تعنى أول إنشائها بالشؤون التجارية وحدها ، ثم جرفها التيار السياسي فعنيت بالأمور السياسية ، وعلى صفحاتها نشر النديم كذلك عدداً من المقالات .

وقد كان أسلوب النديم في شبابه الأول أسلوباً قديماً يلتزم فيه السجع والمحسنات البديعية الأخرى ، ولكنه عندما اتصل بالصحافة وكتب لها تحريراً من هذا الأسلوب القديم ، واصطنع الأسلوب السهل السلس ، وهو الأسلوب الجديد الذي امتازت به ودعت له مدرسة جمال الدين الأفغاني ، وقد كان لمقالات النديم أثرها في

نفوس القراء ، يقرر هذه الحقيقة تيمور باشا بقوله :

« فأعجب الكتاب بمقالاته ، واقتدوا به في تحسين الإنشاء ، وكان سقيماً منحطاً في ذلك العهد ^(١) » .

وكانت الأفكار كلها متجهة في ذلك العصر إلى أن السر في تأخر مصر والمصريين إنما هو الجهل الفاشي والخرافات المنتشرة ، لهذا كانت الدعوة التي تردد على الألسن هي العمل على نشر التعليم ، ولهذا نجد النديم يقدم في سنة ١٢٩٦ (١٨٧٩) على إنشاء جمعية أسماها « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، « ولم يكن لها مقصد سياسى وإنما كانت ترمى إلى غرض واحد شريف وهو تربية الناشئة ، وبث روح المعارف فيهم ، لترقية أفكارهم وتطهير أخلاقهم من دنس الجهالة التي ليس للأمم داء سواها ، على ما أوضحه المترجم في خطابه الطنان الرنان الذي ألقاه يوم الاحتفال بافتتاح تلك الجمعية » ^(٢) .

وأنشأت هذه الجمعية بالثغر مدرسة لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء مجاناً ، وعُيِّن النديم مديراً لها كما كان يدرس لتلاميذها مادة الأدب والإنشاء ، وهذا هو الميدان الثانى الذى كانت تؤهله له مواهبه — ميدان التعليم — وفيه برزت صفته المميزة التي عرف بها فيما بعد دون صفاته الأخرى جميعاً ، وهى الخطابة ، فقد كان يعقد بالمدرسة حفلات عامة في نهاية العام الدراسى وفي المناسبات الوطنية ، يخطب فيها ارتجالاً فيأخذ بالباب سامعيه ويثير نفوسهم ، كما كان يمرن تلاميذه على الخطابة ويتيح لهم الفرص لإلقاء خطبهم في هذه الحفلات .

وفي سنة ١٨٩٧ نزل إسماعيل عن العرش وولى الأريكة الخديوية توفيق باشا ، فسعى النديم لبديه حتى حمله على زيارة المدرسة يوم امتحانها ، وسأل تلاميذها واستمع إلى إجاباتهم وسرّ بها فجعل المدرسة تحت رعاية ابنه وولى عهده الأمير عباس حلمى ، ورتب لها وزارة المعارف إعانة سنوية .

ولم يكن أثر أديب إسحاق وسليم النقاش في صديقيهما النديم مقصوراً على الصحافة وحدها ، وإنما تعداها إلى ميدان آخر كانا المحلّين فيه وقتذاك ، وهو

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) من ترجمة صديقه أحمد سمير له ، سلافة النديم ، ص ٧ .

التثليل ، فقد كانا من طلائع المشتغلين به وله ، تأليفاً وترجمة وتمثيلاً ، وقد مثلاً بعض الروايات في حضرة الخديوى إسماعيل ، وترجم أديب بعض التمثيليات إلى اللغة العربية منها « أندرو ماك » للكاتب الفرنسى « راسين » ، ومنها تمثيلية أخرى عنوانها « شارلمان » ترجمها في الإسكندرية ^(١) .

وسار النديم — وهو يدير مدرسته — على هذا الدرب ، فألف لتلاميذه روايتين ، إحداهما « الوطن وطالع التوفيق » والثانية « العرب » ، واشترك في تمثيلهما مع تلاميذه على مسرح « زيزينيا » بالإسكندرية في حضرة الخديوى توفيق . وكانت الحكومة قد ضاقت ذرعاً بجريدتى « مصر » و « التجارة » وما ينشر فيهما من مقالات نقدية ، فأمرت بإلغائهما ، وأبعد صاحبهما أديب إسحاق إلى الخارج ، فأصدر صديقه سليم نقاش مكانهما جريدتين أخريين هما « الخروسة » و « العصر الجديد » ، وعهد بتحريرهما إلى عبد الله النديم « فجاء فيهما بالمعجب والمطرب من غير تكلف قط » ^(٢) .

غير أن الأيام لم تصفُ للنديم طويلاً ، فقام خلاف بينه وبين رجال الجمعية الخيرية وانفصل عنها ، وأنشأ لنفسه جريدة أسبوعية سماها « التنكيت والتبكيك » ، ظهر أول عدد منها في حجم الكتاب العادى في ٨ رجب ١٢٩٨ (٦ يونيو سنة ١٨٨١) ، وهى كما وصفها « صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية ، هجومها تنكيت ، ومدحها تبكيك » ولغتها كما قال :



عبد الله النديم

« قد لا تلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبرلك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسرلك معانيها » وإنما هى « صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد

(١) الدكتور إبراهيم عبده ، أعلام الصحافة العربية ، ص ١٣٧ .

(٢) سلافة النديم ، ص ٩ .

ومضحكات بسيطة لا يحتقرها العالم ، ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير»
وسخريتها كما وصفها هو :

« نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرننا بماضينا » .
وهدفها كما حدّده :

« أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيك ينادى بقبح
الجهالة وذم الخرافات ، لتتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة
في الوجود ، من ركوب متن الغواية واتباع الهوى ، اللذين أضلانا سواء
السبيل » (١) .

وكانت « التنكيك والتبكيك » — كما يقرر الدكتور إبراهيم عبده — « على
ود متصل بصحيفة " الجنان " لبطرس البستاني ، وأيد الصحفيان هذا الود في
تبادل المقالات بين الصحيفتين » (٢) .

وقامت الثورة العربية ، واشتد خطرها ، ووصات أنباؤها إلى الإسكندرية ،
فوجدت صدى قوياً في نفس النديم ، وهو الروح النائرة ، والوجدان المضطرب ،
واللسان القوّال ، والقلم الناقد ، فأوقف صحيفته بالإسكندرية بعد أن أصدر منها
ثمانية عشر عدداً ، ظهر آخرها في ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ ، ورحل إلى
القاهرة — وهي ثورة مشتعلة ونار متقدة — واتصل بعراي اتصال لطيب بلهيب ،
فأشار عليه أن يصدر صحيفته بالقاهرة ، على أن يسميها « الطائف » ، « تيمناً باسم
بلدة بالحجاز مشهورة ، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب أحمد
فارس » (٣) ، واندمج النديم في الثورة العربية ورجاها حتى أصبح خطيبها المفوه ،
ولسانها الناطق ، وبيانها المعبر ، وقلمها المبين ، فلم يكن يعقد للعرايين اجتماع
— وما كان أكثرها — حتى يدعى إليه النديم فيرتقى منبره ، ويرتل الخطبة والخطب
فيلهب النفوس النائمة ، ويحرك الهمم الحامدة .

(١) من مقدمة العدد الأول من « التنكيك والتبكيك » ، انظر أيضاً سلافة النديم ج ١ ،
ص ٧٧ - ٧٨ وإبراهيم عبده ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) تيمور باشا ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

واتخذ من « الطائف » منبراً آخر يذيع منه أخبار الثورة ورجالها ، ويكافح من أجلها وينافح معارضيها ، ويحارب شائيتها ، فانتشرت صحيفته انتشاراً لم تكن تحلم به جريدة أخرى من الجرائد المعاصرة ، يقول الدكتور إبراهيم عبده :

« ولم تبلغ صحيفة من الصحف مبلغ طائف النديم ، لا في مكانتها ولا في خطرهما ولا في تحريرها ، وهو فيها كاتب حاد الطبع نابغ في الإنشاء ، اقتصر في تحريرها أول الأمر على معالجة نواحي النقص الاجتماعية في مصر ثم انتقل من المقالات الاجتماعية إلى الموضوعات السياسية العميقة ، وتفرد بالأخبار الهامة التي كانت للصحف الأخرى مادة ومورداً ، ووقف الكاتب براعته على الدفاع عن الثورة ورجالها ، وتكذيب ما ينشر عنها في صحف الخارج ، وقد احتق بها العربيون فاشترك فيها الثواب بمبالغ كبيرة . »

وقد سمها هذا العطف الذي أضفته عليها الهيئات النيابية سمة رسمية أو شبه رسمية ، فترى محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يكتب في ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٩ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضر تلى » يقول :

« حيث إن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه ، وما يتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رضى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات لمعرفة أن هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ، ونسبها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها الموما إليه ^(١) . »

وحبذ هذا الوضع أديب إسحاق ، لأن الطائف في رأيه :

« جريدة موصوفة بالوطنية ، ومعروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام ، خطيرة مرعية المقام ^(٢) . »

ووقعت الواقعة ، وقامت الحرب بين الإنجليز والمصريين فى الإسكندرية ، وتقهقر عرابى إلى كفر الدوار ، فلاحق به النديم إلى هناك ، ثم تبعه إلى التل الكبير ،

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) إبراهيم عبده ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

وهو يصدر « الطائف » في المعسكرين ، فيضمنها أخبار الانتصار ، ويحملها المقالات المثيرة لتقوية الروح المعنوية بين الجند والشعب .

ثم أخفقت الثورة العرابية ، وقبض على زعمائها ، وفر النديم قبل أن يلقوا القبض عليه ، وأطلقت الحكومة رجالها في إثره يبحثون عنه في كل مكان ، وأعلنت عن جائزة قدرها ألف جنيه لمن يأتيها به حياً أو ميتاً ، أما هو فقد انطلق ومعه خادمه حسين إلى بولاق وقصد دار صديق له أقام بها أياماً ، ثم غيّر زيّه فلبس « زعبوطاً » أحمر ، واعتم بعمامة حمراء ، وغطى عينيه بمنديل ، وأخفى شاربيه ، وأطلق لحيته ، فتغيرت هيئته تماماً ، وخرج يتوكأ على عكاز ، فوجد بساحل بولاق سفينة ترمع الرحلة إلى بنها فركبها ، ولما وصل إلى بنها اتجه إلى قرية منية الغرقى - بالقرب من طلخا - ولما فيها إلى شيخ من مشايخ الطرق كان قد أخذ عليه العهد سابقاً واسمه الشيخ شحاتة القصبي ، غير أنه لم يمكث عنده إلا أياماً ، ثم ارتحل ، فقد خشى أن يكشف أمره لكثرة الواردين على دار الشيخ من أتباعه ومريديه .

وبهذه الرحلة تبدأ قصة اختفائه ، وهى قصة غريبة الغرابة كلها ، تصلح أن تكون фильماً سينمائياً ناجحاً لو أنها وفقت إلى مخرج ممتاز ، لأنها فى الحقيقة قصة مخاطر جرىء قوى القلب ، ومغامر مقدم حديدى الإرادة ، ظل مخفياً تسع سنوات طويلة ، وهو يتنقل من بلدة إلى بلدة ، ومن دار إلى دار ، وهو فى كل تنقلاته دائم التنكر ، يلبس لكل حالة لبوسها ، وكلما حل أو ارتحل غيّر اسمه وكنيته ، فهو مرة يمضى ، وأخرى مغربى ، وثالثة مدنى أو قيوى ، وهو يبحر لحيته تارة بالكبريت حتى تبيض ، ويخضبها بالحناء تارة أخرى .

وكان خادمه يسمى حسيناً ، فسماه صالحاً ، وقد عانى من أمره أول اختفائه ، ولكنه تدارك الأمر بذكائه ، فقد ضاق الخادم بأساليب الاختفاء ولما يمحض عليهما إلا قليل ، وضج وانتحب ، وأعلن رغبته فى العودة ، فخشى النديم إن هو أطلقه أن يدل عليه ، فجاء بالجريدة الرسمية ونظر فيها فأظهر الجزع والتأسف ، وضرب كفّاً بكف ، فسأله الخادم عن السبب ، فقال إن الحكومة جعلت لمن يرشد إلى ألف جنيه ، ولئن أتاها برأسك خمسة آلاف ، فخاف الخادم ، وأخذ يبالغ فى التنكر زيادة عن سيده ، وكان ذلك سبباً فى ملازمته خدمته مدة اختفائه ،

وقد كافأه المترجم أحسن مكافأة ، فعلمه القراءة والكتابة وحفظه سوراً من القرآن الكريم ، وأقرأه مبادئ التوحيد والفقه ، ثم زوجه واتخذة صاحباً ، ورتب له بعد ظهوره ما يكفيه هو وأهله (١) .

وقد ظل النديم ينتقل في هذه السنوات في قرى وبلدان مديرتي الدقهلية والغربية ، وهي منطقة يعرفها ويعرف أهلها معرفة جيدة منذ شبابه الأول ، وقد نزل أول عهده بالاختفاء عند قوم فأخفوه في قاعة مظلمة حالكة الظلام يتساوى فيها الليل والنهار ، ويتوصل إليها بسرداب طويل ، وكانت أرضها ترشح الماء ، ولم يكن يستطيع الكتابة أو القراءة فيها إلا على ضوء مصباح صغير كثير الدخان ، وقد أقام في هذه القاعة تسعة أشهر قاسى فيها الشدائد ، فلما غادرها أحس أنه لا يبصر الطريق لكثرة ما اعتادت عيناه الظلام .

وقد كانت هذه الفترة أقسى الفترات جميعاً على النديم ، لأنها أول عهده بالاختفاء والعيون مرصودة عليه تبحث عنه في كل مكان ، فالترم مخبأه ولم يكن يتصل بإنسان ، غير أنه ما لبث أن أحس الضيق ، فشغل نفسه وقتاً بتعليم خادمه وتثقيفه ، ثم فكر أن يشتغل بالكتابة والتأليف ، ولكنه كانت تعوزه الكتب والمراجع ، ومع هذا لم ييأس ، وبدأ فآلف في هذه الحقبة كتابه الممتع « كان ويكون » ، وقد روى قصة تأليفه هذا الكتاب ، وهي قصة طريفة ممتعة تعطينا دروساً قيمة في الوفاء وصدق العزيمة ، فهو يقول إن منهج كتابه كما تصوره :

« فذللك دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وأدبية وتاريخية » (٢) .

وهو يروى أنه بدأ في تأليفه بعد اختفائه بقليل « في الساعة الثامنة يوم الخميس ٢٨ ربيع الثاني عام ١٣٠٠ الموافق ٨ مارس عام ١٨٨٣ في قاعة ظلماء ، وحيداً بعيداً عن العلماء والكتيبات والجرائد ، مختفياً متغيباً عن الجواسيس والعيون من الباحثين » .

ثم يذكر بعد هذا الأسباب التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب ، وملخصها أنه كان قد اشتغل قديماً بتأليف كتاب أسماه « مقابلة النظير » جمع فيه « الحوادث

(١) سلافة النديم ، ج ١ ص ١٣ .

(٢) عبد الله النديم ، كان ويكون ، ص ١١ .

المهمة المختصة بالشرق والغرب دينياً وسياسةً ، وأنه أتم منه أربعة أجزاء ضخمة ، وصل فيها إلى عهد السلطان محمود ، وأنه أدلى إلى « الصديق الفاضل العالم العامل » صاحب البيت الذى يؤويه برغبته فى إتمام هذا الكتاب ، ولكن صاحب البيت ظل يحاوره فكان مما قال له :

« يمنعك من الكتابة الآن ظلمة القاعة ، واشتغال فكرك بهذه المزعجات الحاصلة ، ولو نشطت للكتابة فإنك لا تعلم إن كان كتابك فُقد أو بقي موجوداً ، فيكون هذا الجزء الأخير أبتر ، ولو صفت الأوقات وانصرفت عنك المكدرات للزمك أن تكتب تاريخاً عاماً بصورة فذلكة تاريخية ، وما أظنك تقوى على هذا الآن (١) » .

ويقول النديم بعد هذا إنه شغل نفسه بنظم قصيدة طويلة فى ثمانمائة ونيف وستين بيتاً ، أخلص فيها النصيح « للشرقيين على اختلاف الجنس والدين » ، وسماها : « وطنية الشرق » ومطلعها :

بكل صروف الدهر يمتحن الدهر ، وفوق جبال العزم ينهمر الضر
ولم ينثن النديم عن عزمه ، بل بدأه بعد قليل ، ولهذا البدء الجديد قصة أخرى أبلغ فى الغرابة والطرافة ، فقد تذكر أن صديقاً له فرنسياً كان يملك أبعادية قريبة من محبته وهو مقيم بها ، وقد بدأت معرفة النديم به فى سنة ١٢٩٢ فى الإسكندرية ، وكان هذا الصديق يتقن اللغتين العربية والتركية ، وكان يتردد على مصر أو بلدان الشرق فيقيم بها وقتاً ثم يعود إلى فرنسا ، فلما حدثت حادثة عابدين الشهيرة حضر إلى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٨ ، وأقام بها « متتبعاً الحوادث يكتبها بأوقاتها منقولة عن مصادرها بحقائقها لاشتغاله بمسائل الشرق من أمد مديد (٢) » .

وأرسل إليه النديم خطاباً مع صاحب البيت يسأله أن يحضر لمقابلته ، وذهب صاحب البيت إلى دار الفرنسى فوجده جالساً فى صحبة بعض الأجانب والمصريين ، وسلمه الخطاب فقراه ، وأعطاه لزوجته فقرأته ، ثم أعادته إليه ، فزقه إرباً وألقى به إلى الأرض ، وصاح فى الرسول مغضباً وقال له :

(١) عبد الله النديم ، كان ويكون ص ٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٢ .

« قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ للتصرف فيه لزيد وعبيد ثم تعتذر بالضروريات ، فاحفظ لى حتى عندك قبل كل إنسان حتى آتاك وتحتاسب ، وإياك أن تمد يدك لبتك أو لحاجة غيرى ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم ، وحكمت عليك بما لا ترضاه ^(١) .

ولم يفهم الرسول حرفاً مما سمع ، بل أيقن أن صديقه قد ألقى بنفسه لى التهلكة بهذه المحاولة ، وعاد إليه مغضباً يروى له ما سمع ، ولكن النديم فهم ما وراء الكلمات وأدرك أن صديقه الفرنسى كان - كما توقعه - أميناً صادق الود والعهد . وعند الغروب وصل الصديق الفرنسى ودخل على النديم فى مخبئه ، يروى النديم قصة هذه المقابلة فيقول :

« وبينما أنا جالس وإذا بهذا الوفى دخل علىّ وسلّم سلام المشوق الوهان ، فعرفته بصوته ، وقمت إليه ، وتعانقنا عناقاً طويلاً تخلله ضحك وبكاء ، ثم جلسنا ودار الكلام بيننا ، فقصص على أخباراً وأحوالاً لا علم لى بها ، فتكدرت وامتألت غمماً وهمّاً ، ثم راجعت نفسى ، ورجعت إليه بالكلام ، فأخبرته بمشروعى ، ورجوته إرسال بعض الكتب والمواد التاريخية فقال : لا بد أن أشاركك فى هذا العمل وأساعدك عليه ، إلا أنه عدل بى عن طريق التحرير المرسل إلى وضع الكتاب على ما يدور بيننا من سؤال يقترحه وجواب أقدمه ^(٢) » .

وهكذا سار الصديقان على هذا النهج ، يأتى الفرنسى لزيارة صديقه فى أوقات متقاربة أو متباعدة ، وقد ارتدى الملابس الشرقية حتى لا يثير الظنون ، ويجلس إلى النديم فيلقى إليه أسئلة فى مشاكل دينية أو تاريخية ، ويسمع الإجابة عليها ، وتطول بينهما المناقشة ، فإذا انتهت الزيارة وخلا النديم إلى نفسه سجل هذا الحديث كتابة ، فإذا تلاقيا بعد هذا قرأ ما سجله على صديقه لتهدييه وتصحيحه ، وهكذا ، وكانت زوج الفرنسى تحضر فى بعض الأحيان مع قريبها فى ملابس الفلاحات وتسهم فى المناقشة بآراء قيمة .

(١) كان ويكين ، ص ١٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤ .

وظلت العلاقات متصلة بين الصديقين شهوراً طويلة والفرنسى دائماً العناية بالنديم والحدب عليه ، يتفقد شؤونه وينفذ رغباته ، فهو يسأله فى نهاية كل اجتماع إن كانت له حاجة يقضيها ، فإذا أدلى إليه برغبته أسرع بتنفيذها وأتاه بالجواب فى اجتماعه التالى ، فى مرة سأله الفرنسى إن كان يلزمه شىء غير الدخان ، فأجابه النديم :

« يلزمنى نصف أوقية لودنم وأربع أواق من ماء الورد لأصنع منهما قطرة عين ، وزجاجة مانيزيا مكلسة ، وقدر خمسين جراماً من مسحوق الرواند لأصنع منهما مركباً معدياً ، فإن عندى ضعفاً فى المعدة ، ولا بأس من استحضار زجاجة مداد وجانب ورق وأقلام ، فإنى أصنع الحبر من هباب القرن وأضيف إليه بعض قرظ السنط وليس عندى من الأقلام غير أقلام الحجناء القريبة الحفاء ، والورق الموجود عندى رقيق جداً ، لا ينفع فى كتابة الكتب وإذا اشتريت لنا بعض الجرائد العربية كنت متفضلاً فإنى مشترك فى جريدة الوطن باسم غير اسمى ، ولكنى أحب الوقوف على الأخبار اليومية كذلك ^(١) » .

والنديم دائماً القلق على أسرته ، ويحس الصديق الفرنسى هذا القلق البادى فى أحاديثه فيذهب إلى القاهرة ويتتبع أخبار الأسرة فى خفية وكتمان وينقلها إليه مطمئناً .

وفى إحدى الزيارات يخبره الفرنسى أن الصحف قد ذكرت أن البرلمان الإنجليزى سيناقش المسألة العرابية ، ويسأله إن كانت له رغبة فى الاطلاع على هذه المناقشة حتى يترجم له أقوال الصحف فيجيب النديم :

« أحب أن تترجم لى كل ما يختص بمصر ، فإنى سأضع كتاباً فى هذه المسألة بما أعلمه من أصولها وفروعها من عهد المرحوم سعيد باشا إلى الآن ، وأريد أن أضم عليه الحقائق التى لا يعلمها الإنجليز ليكون الكتاب كافلاً للمسألة من جميع وجوهها ^(٢) » .

(١) كان ويكون ، ص ٥٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٢ .

ويلاحظ الصديق الوفي أن ملابس النديم قد بليت فيطلب منه (مقباسه) ليفصل له قفطانين في مصر ، فيشكر له الندم أريحيته قائلا :
 « أشكرك على هذه العناية ، وها هو المقياس ، والأحسن أن تأخذ القفطان الأبيض لتفصل عليه ، إنما تكون الأكمام طويلة كأكمام الفقهاء ، فربما اضطررنا للمشي أو للعود مع الناس فيرون لبس فقيه أو عالم ، وأرجوك أن تفصل لي لباسين فإن ألبسي في صورة البنطلون ولها أربطة في الرجلين ، ولا يخفك أن الفقهاء لا يلبسون مثلها ، فيكون ذلك محل الانتقاد والفكر في حقيقتي ^(١) » .

ويسأله الصديق إن كان في حاجة إلى كتب فيشترها له ، فيجيب النديم بأنه عنده من الكتب تفسير أبي السعود ، وقاموس الفيروز آبادي ، والوافي ، وجغرافية المرحوم رفاعه بك ، وفيها الكفاية مؤقَّتاً ، وإنما يطلب منه أن يشتري له متن أبي شجاع ليحفظه لخادمه .

ثم يعرض عليه الصديق أن ينتقل معه ليقم في أبعاديه ، فيعتذر النديم خوفاً من أن يتكشف أمره ، ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى قرية العتوة القبلية بمديرية الغربية ، فاخفى عند عمده الشيخ محمد الممشري ثلاث سنوات ونيفاً ، تزوج في خلالها ، وزوج خادمه بأخت زوجته ، وإبان اختفائه بهذه الدار مات ربه الشيخ الممشري ، وكانت زوجته مثله شهامة ومروءة ، فأحضرت أكبر أولادها وصارحته أن صيفهما هو عبد الله النديم طريد الحكومة الذي رصد رجال الضبط ألف جنيه لمن يأتيهم به ثم سأله :
 « أفتريد أن تؤويه وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب في حطام الدنيا فأكون بريئة منك إلى يوم الدين ؟ فأجاب الابن : حاشا لله أن أخفر ذمامي ، فسترين أني أحافظ عليه محافظتي على عرضي ، ولن يصل إليه أحد بسوء ما دمت حيّاً ^(٢) » .

وتنقل النديم من بلد إلى بلد ، فهو تارة نزير عند أحمد باشا المنشاوي في

(١) كان ويكون ، ص ٢٠٦ .

(٢) سلافة النديم ، ج ١ ص ١٤ ، وانظر أيضاً : تبصر باشا ، المرجع السابق ص ٢٠-٢١ .

بلدته القرشية ، حيث تزوج - بعد موت زوجته الأولى - من بنت مصطفى منسى أحد أهالي المحلة الكبرى ، وهو تارة أخرى ضيف على صديقه الأديب محمد أفندي التيمي ، وهو تارة ثالثة في الدلمون بمديرية البحيرة ، أو في البكاتوش بمديرية الغربية ضيف على عمدها الشيخ إبراهيم حرفوش ، أو جاره أحمد جودة . وهو مرة مقيم في شباس الشهداء عند محمد معبد الحلاق ، وهو مرة أخرى ضيف على صديقه القديم الشاعر الثائر محمد أفندي شكرى كاتب المركز بدسوق .

وهكذا ظل يتنقل بين هذه البلدان ، وهو يجد في رحاب الجميع كل إكرام وعطف ورعاية إلى أن انتهى به المطاف إلى بلدة الحميزة - التابعة لمركز السنطة - وعرفه عمدة البلدة ، فتغاضى عنه وكنم أمره ، فكان يخرج للتتزه على غير عادته في الاختفاء ، فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة ، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به ^(١) .

وكان يتردد على الحميزة رجل من رجال البوليس السرى يدعى حسن الفرارجي رابه من النديم تخفيه وتنكره وأحواله الغربية ، فشك في أمره ، وظل يتسقط أخباره ويتصل بالداخلية إلى أن تأكد أنه هو ، فبلغ عنه طمعاً في الحصول على المكافأة ، فأرسلت له الداخلية قوة كبيرة أحاطت بالدار التي كان يقيم بها حتى قبضت عليه في ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ (نوفمبر ١٨٩١) ^(٢) غير أن هذا الواشى قد نال جزاء خيانتة فلم تصرف له المكافأة لأن أجلها كان قد فات .

ونقل النديم إلى طنطا لتسليمه إلى النيابة العمومية ، « وكان المرحوم قاسم أمين رئيس نيابة طنطا إذ ذاك ، فعامله برعاية وقال له :

« أنت حر في كلامك فقل ما شئت ، وكان يسأل عن حاله في السجن

للتحقق من حسن معاملته ^(٣) » .

وأصدر الخديوى توفيق عفو عن عبد الله النديم وإنما أمر بنفيه خارج القطر ،

(١) تيمور باشا المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) مجلة الأستاذ ، العدد الأول ، ص ٤ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، الثورة العربية ، ص ٥٣٤ ، انظر أيضاً مجلة الأستاذ لعبد الله النديم ،

العدد الأول ، ص ٩ .

فاختار المقام بشجر يافا ، وسافر إليها ونزل ضيفاً مكرماً على مفتيها السيد على أفندى
أبى المواهب ، وسرعان ما سمع بمقدمه أعيان المدينة ووجهائها فأقبلوا عليه واحتفوا
به ، وانتهز هو فرصة مقامه بيافا ، فرحل إلى مدن فلسطين المختلفة وزار آثارها .
وتوفى توفيق وولى العرش عباس حلمى الثانى ، فعفا عن النديم ، وسمح له
بالعودة إلى مصر ، فعاد وأقام بالقاهرة .

عاد النديم والاحتلال الإنجليزى فى عنفوان قوته ، وعلى العرش أمير شاب ،
وفى بعض نواحي القاهرة شاب آخر يافع كان لا يزال يطلب العلم ، ولكنه كان
مرهف الحس صادق الوطنية ، فراح يكتب المقالات المثيرة داعياً الشعب إلى اليقظة
والسعى للاستقلال والحرية ، هذا الشاب هو مصطفى كامل . فإلى أى ميدان
اتجه النديم ؟ لقد كان فى مكتبته أن يصانع الاحتلال فينال بهذا إحدى الوظائف
الكبرى فى وزارة المعارف أو فى الأزهر ، وينال عليه المال وتغمره الهبات ، ولكن
العذاب المرير الذى قاساه مدة اختفائه لم يقل من عزمته ، ولم ينل من وطنيته ،
فاتصل بالشاب الصغير مصطفى كامل ، وروى له قصته ، فألهم حماسه ،
فكان بذلك حلقة الاتصال بين حركة جمال الدين الأفغانى والحركة الجديدة
التي سبقتها مصطفى كامل ، ولعل هذا هو السر فى التشابه القوى بين مبادئ
الحزب الوطنى القديم والحزب الوطنى الجديد^(١) .

وعاد النديم إلى مهنته المحببة إلى نفسه - الصحافة - فأنشأ صحيفة أسبوعية
« علمية تهذيبية فكاهية » أسماها « الأستاذ » ، صدر أول عدد منها فى أغسطس
١٨٩٢ ، فأعادت إلى الأذهان ذكرى « التنكيث والتبكيث » و « الطائف » ،
فأقبل عليها القراء إقبالا متقطع النظير ، وفاقته فى رواجها جميع الصحف الأسبوعية
واليومية المعاصرة ، فأحفظ ذلك الرواج نفوس بعض أصحاب هذه الصحف ،
كما أحفظ أسلوبه الإصلاحى نفوس الإنجليز ، واشتد الخلاف وقتذاك بين
الخدوي عباس الثانى والإنجليز ، فقد أقدم عباس وعزل صنيعتهم ورئيس وزرائه
مصطفى فهمى باشا ، فراح النديم يدبج المقالات فى صحيفته محرراً على الوقوف

(١) انظر تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، الترجمة العربية لعباس محمود ص ٢١٢ -
(٢١٤) ، وجورجى زيدان فى : (تراجيم مشاهير الشرق ، ج ١ ص ٢٨٩ - ٣٠١) .

إلى جانب الحديو ومؤازرته ، فثارت ثائرة اللورد كرومر ، واتهم النديم أنه يثير روح التعصب في البلاد ^(١) ، وطلب إليه مبارحة القطر ثانية ، فبارحه إلى يافا بعد أن عطّل صحيفته « الأستاذ » ، وودع قراءه في آخر عدد أصدره (١٣ يونيو ١٨٩٣) وداعاً مؤثراً هو أبلغ ما يقول وطني اضطر إلى مغادرة وطنه ، قال فيه : « ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقعين على الظواهر ، وعلى هذا فإنني أودع إخواني قائلاً :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلبي كان الرحيل ، وإنما دواعي تبدت ، فالسلام عليكم ^(٢)
وفي يافا لم يسلم النديم من السعاية به لدى السلطان عبد الحميد ، فأمر بإبعاده عنها ، فعاد إلى الاسكندرية ، وهو طريد الاستبداد والاستبعاد معاً ، لا يدرى أين يتجه ولا أين يستقر .

وأدركته رعاية الغازي أحمد مختار باشا ، فسعى له لدى السلطان حتى سمح له بالإقامة في الآستانة ، فسافر إليها ، وهناك صد . بتعيينه مفتشاً للمطبوعات براتب قدره ٤٥ جنيهاً مجيداً في كل شهر .

وفي الآستانة التقى بأستاذه القديم السيد جمال الدين الأفغاني ، فجمعت بينهما المحبة والغربة « واتصلت بينهما أسباب الألفة ، وتمكنت بينهما روابط الاتحاد حسناً ومعنى ، وبلغ تعلق السيد جمال الدين الأفغاني به ، وجميل اعتقاده فيه أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته في المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته في التحرير ، حتى صرح في عدة محاليس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القرينة وشدة العارضة ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب ^(٣) » .

(١) انظر مجلة المنار للسيد رشيد رضا ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، والرافعي ، الثورة العربية ، ص ٥٣٥ .

(٢) مجلة الأستاذ ، عدد ١٣ يونيو ١٨٩٣ .

(٣) عن ترجمته بقلم أحمد سير ، سلافة النديم ، ج ١ ، ص ١٧ .

وكان النديم أثناء مقامه بالإستانة دائم الحنين إلى وطنه ، دائب الشوق إلى أهله ووطنه ، يود لو استطاع العودة إلى مصر ليقضى بها أيامه الأخيرة ، ولكن الدهر أبى عليه تحقيق أمنيته ، وأدركته غلة السل ، واشتد به المرض ، فسافرت والدته وشقيقه ليكونا إلى جانبه في مرضه ، ولكنهما وصلا الإستانة بعد أن أدركته منيته ، فقد لبي نداء ربه في الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣١٤ (١١ أكتوبر سنة ١٨٩٦) ، فشيعت جنازته في احتفال مهيب مشى فيه الكبراء والعلماء يتقدمهم أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، ودفن النديم هناك في مقبرة يحيى أفندى باشكطاش . فهل يفكر المصريون في نقل رفاتة إلى أرض الوطن إحياء لذكراه وتخليداً لجهاده ؟ هذا هو عبد الله النديم ، أما أخلاقه « فكان باراً بالديه وذوى قرابته وقصاده ولولم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به ، ولا رد يوماً سائلاً ، ولا خضع لعظيم قط ، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكياً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ناثراً ^(١) » .

وقد قدر تيمور باشا صفاته وشخصيته بقوله :

« كان في أول أمره يرتدى الملابس الإفرنجية المألوفة ، ولما ظهر بعد الاختفاء لبس الحبة والقفطان واعتم بعمامة خضراء - إشارة إلى الشرف - ، وكان شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز ودّ المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة في آخر إقامته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء وإياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا ^(٢) .

أما عن جهاده فيقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

« هو الزعيم الوحيد بين العربيين الذى استمر في جهاده السياسى ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال ، وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد ، أما هو فقد ظل على عهده ، واستمر يجهاد

(١) جورجى زيدان ، مجلة الهلال السنة الخامسة ص ٤٧ .

(٢) تيمور باشا ، المجمع السابق ص ٢٧ - ٢٨ .

ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، وهذا وحده يدل على مبلغ علو نفسه وقوة شخصيته ، إذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سيلا .
فرحم الله النديم رحمة واسعة ، وسلام عليه في المجاهدين الخالدين .

عبد العزيز چاويش

(۱۲۹۳ - ۱۳۴۷هـ) = (۱۸۷۶ - ۱۹۲۹)

الزعيم الوطني المجاهد

عبد العزيز جاويش

هذا عالم ثان من أعلام الإسكندرية، هو نيدٌ للنديم وشبيه له في كثير ، ولد كلاهما في الإسكندرية ، وتربيا فيها ، وتلقيا العلم في معهد واحد هو جامع الشيخ إبراهيم باشا ، وتعلمذ الأول على السيد جمال الدين الأفغاني وتعلمذ الثاني على تلميذه الشيخ محمد عبده ، وعشقا الحرية وناضلا في سبيلها ، وكان النديم لسان الحركة الوطنية الأولى - حركة عراقى - ، وكان جاويش لسان الحركة الوطنية الثانية وقلمها - حركة مصطفى كامل ومحمد فريد .

لسنا نعرف شيئا عن أسرة عبد العزيز جاويش ، وكل ما نعرفه عنها : أنها أسرة مغربية الأصل من تونس ، هاجرت إلى الإسكندرية واستقرت بها .

وفى الإسكندرية ولد عبد العزيز جاويش فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ ، وفى أحد كتابتها تلقى علومه الأولى وحفظ القرآن ، ثم التحق بجامع الشيخ إبراهيم باشا . وفى سنة ١٨٩٢ وقد بلغ السادسة عشرة من عمره انتقل إلى القاهرة لإتمام دراسته بالجامع الأزهر ، ثم التحق بمدرسة دار العلوم ، وقد تعلمذ فى الأزهر ودار العلوم على كبار علماء العصر ومفكره ، وخاصة الشيخ محمد عبده ، وفى سنة ١٨٩٧ تخرج ، أى بعد خمس سنوات قضاها فى هذين المعهدين .

وقد عين الشيخ عبد العزيز بعد تخرجه مباشرة مدرسا لآغة العربية فى مدرسة الناصرية بالقاهرة ، ثم نقل مدرسا بمدرسة الزراعة ، غير أنه لم يمكث فى هاتين المدرستين طويلا ، فقد أرسلته وزارة المعارف فى بعثة إلى إنجلترا ليدرس التربية وطرق التدريس بجامعة « برورود » .

قضى الشيخ عبد العزيز نحو السنتين فى إنجلترا وأتم دراسته بنجاح ، وعاد إلى مصر فى سنة ١٩٠١ ، فعُيِّن مفتشا بوزارة المعارف .

وفى سنة ١٩٠٤ اختارته جامعة أكسفورد ليكون أستاذا للغة العربية بها ، وظل يشغل منصب الأستاذية بها إلى سنة ١٩٠٦ .

وقد كانت هاتان السنتان من أبرك السنوات على الشيخ عبد العزيز ، أخلص في أثنائهما الإخلاص كله في عمله كأستاذ حتى اكتسب حب زملائه وإعجاب تلاميذه ، وكان هؤلاء التلاميذ يزورونه في منزله يسألونه عن مصر والشرق وعن الإسلام بوجه خاص ، فإن الأفكار السائدة في أوروبا في ذلك الوقت عن الإسلام كانت في معظمها أفكاراً خاطئة مشوهة ، فكان الشيخ عبد العزيز يستمع إليهم في حلم ورفق ، ثم يشرح لهم حقائق الإسلام ، ويبين لهم وجه الخطأ فيما يعلمون ، وقد دفعته هذه المناقشات إلى تأليف رسالة صغيرة سماها « الإسلام دين الفطرة » ، قال في مقدمتها :

« زارني في ذات يوم وأنا في أكسفورد من بلاد الإنجليز لقيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة ، فأكاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحدث في أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التي تبين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا ، حتى أقضى بنا الأمر إلى الكلام في الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم ، فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل أصول الدين الإسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التي مثلت لهم الإسلام في أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكذب ينهي بنا الحديث حتى انطلق أحدهم قائلاً : ” يخيل إلي أيها الشيخ أن هذا الدين لا يتنافى الفطرة في شيء “ .

والتقط الشيخ عبد العزيز هذه الحقيقة من فم قائلائها ، وألّف رسالته لإيضاحها ، لإيضاح أن الإسلام دين الفطرة ، وعرض فيها للمشكلات الكبرى التي تثار ضد الإسلام ، فتكلم عن الفطرة والتوحيد ، وعن النبوة وأصول الإسلام ، وهل أسس الإسلام على السيف ، وناقش أسباب الغزوات ، وأن الإسلام صالح لكل زمان ،

والرق في الإسلام ، وتعدد الزوجات ، وتعتبر رسالته هذه على صغر حجمها من أحسن ما كتب عن الإسلام ، وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة الإنجليزية .

في هاتين السنتين أيضاً بدأ الشيخ عبد العزيز يرسم لنفسه خطته في الحياة ومثله العليا التي سيعمل فيما بعد دائماً على تحقيقها ، فهو قد نشأ نشأة دينية خالصة ، ودرس العلوم الإسلامية في معاهدها العليا في الإسكندرية والقاهرة دراسة واعية مستنيرة ، ثم هو قد خبر الحياة الوظيفية في مصر وعلم الكثير من قيودها وعيوبها ، ثم هو قد رحل إلى إنجلترا وعاش فيها مرتين كان في الأولى تلميذاً وفي الثانية أستاذاً ، ورأى في الحالتين معاهد غير المعاهد التي عرفها في مصر ، وشهد آفاقاً من المدنية والرق لم يشهدا في مصر ، وبدأ يدرس ويحلل ويقارن ، ولم ينس أثناء هذا كله أن هؤلاء القوم المتحضرين الذين يعيش بين ظهرانيهم أولو قوة وبأس ، وأنهم هم الذين يحتلون وطنه بجيوشهم ويأبون الجلاء عنه أو الأخذ بيده في مدارج الرقي ، وآمن منذ ذلك الحين بضرورة الجهاد ، وبأن وطنه مصر في حاجة إليه وإلى جهاده .

وأتى القدر رسم الخطوط التي بدأها الشيخ عبد العزيز ، ففي سنة ١٩٠٥ ، وأثناء أستاذه في أوكسفورد عُقد مؤتمر المستشرقين في مدينة الجزائر ، ودُعيت الحكومة المصرية لحضوره ، فاختارت عبد العزيز جاويز ليكون ممثلها في هذا المؤتمر ، وسافر عبد العزيز إلى الجزائر وحضر المؤتمر ، وكان من بين الحاضرين الزعيم المصري الكبير محمد فريد ، وتقابل الرجلان في جلسات المؤتمر وخارجها ، واستمع كل منهما لحديث أخيه ، وتناجيا في شئون مصر ومستقبلها ، وتجاوبت أفكارهما وآمالهما ، وعقدت بينهما بعد ذلك الحين أواصر الصداقة .

وفي سنة ١٩٠٦ كان الزعيم مصطفى كامل في باريس يجاهد جهاده العنيف بقلمه ولسانه ضد بريطانيا واحتلالها لمصر ، وكان الشيخ عبد العزيز يقضي بعض الأيام في باريس أيضاً ، وانتهز الفرصة محمد فريد وصحب الشيخ عبد العزيز معه لمقابلة مصطفى كامل ، وقدّمه إليه ، فوجد الزعيم فيه وطنية صادقة مشتعلة ، فاتخذته منذ تلك اللحظة صديقاً وصديقاً . فلاعجب إذن إن رأينا الشيخ عبد العزيز بعد قليل وقد أصبح قائداً من أبرز قواد الحزب الوطني ، فقد عاد بعد قليل وفي

نفس السنة (١٩٠٦) إلى مصر ليشغل وظيفة مفتش أول بوزارة المعارف ، ولكنه لم يلبث بهذه الوظيفة طويلا ، فقد كان دائم الاتصال بمصطفى وفريد .
وفي فبراير سنة ١٩٠٨ انتقلت روح مصطفى كامل إلى الرفيق الأعلى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، بعد أن أدى واجبه في بعث الشعور الوطنى وإحياء النفوس الخاملة ، وبعد أن قاد المعركة ضد الاحتلال ، ولا سلاح له إلا لسانه وقلمه .

وشغل مكان مصطفى كامل في رئاسة تحرير اللواء ، وبدأ خليفته محمد فريد يستعرض رجال الحزب ليتخير قلدًا كقلم مصطفى يثير الحمية ، ويرسل إذا كتب شواظًا من نار ، ووقع اختياره على عبد العزيز جاويز ، ولم يكده يحادثه في هذا الأمر حتى استجاب له في الحال ، فقد كانت نفسه تعاف الوظيفة وقيودها ، وكانت روحه العالية تريد أن تنطلق من عالم السدود إلى عالم الحرية ، واستقال جاويز من وظيفته ، وبدأ يكتب في اللواء في ٣ مايو سنة ١٩٠٨ ، وكانت مقالته الأولى معبرة خير تعبير عن النزاع الذى كان يضطرم في نفسه بين البقاء في الوظيفة وقيودها والانطلاق إلى ميادين الجهاد والصراع في سبيل البلاد وحرية واستقلالها ، فقد قال فيها :

« بعونك اللهم قد استدبرتُ حياةً زادها الجبن وخورُ العزيمة ومطيتها التلبيس ، في أسواقها النافقة تشتري نفيسات النفوس بزيوف القلوس ، وتباع الذم والسرائر بالابتسام وهز الرؤوس ، ويمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة بالحديدة حياة الصراحة في القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاسماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . . وكيف لا نقدم من أنفسنا قرايين بين أيدي أهرام هذا القطرونياله ؟ أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال في سبيل تحريره وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلتتمسك بهذا المبدأ الشريف ماحيينا ، ولنعتصم به ما بقينا ، ولنرفع أصواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء ، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا ، وقبضوا بأيدي جبروتهم على نواصينا ... فاللهم أسألك لساناً ناطقاً بالصواب والحقمة : وقاماً لاجولة له في ميادين القحة ، ولا علم بمعاهد القحش

والسبب ، فما أحوج الأمة إلى كلمة حق يستمعونها ، وجميل عظة يعونها ... إلخ» وظل الشيخ جاويش رئيساً لتحرير اللواء ، صحيفة الحزب الوطني ، إلى فبراير سنة ١٩١٢ ، وكان المصريون يترقبون مقالاته ويقبلون على قراءتها في شغف عجيب ، فقد كان أسلوبه قوياً نارياً يلهب الشعور ويثير النفوس ، فإلى عبد العزيز جاويش يرجع الفضل الكبير في تقوية الروح الوطنية وإمدادها بالوقود طيلة هذه السنوات الأربع .

وفي فبراير سنة ١٩١٢ هاجر جاويش من مصر إلى الإستانة ، ولكنه لم يكن يؤثر العافية حين هاجر ، ولم يكن يرغب الفرار من ميدان النضال والجهاد ، وإنما هو قد اضطر إلى الهجرة اضطراراً ، فقد كان أصحاب السلطان في مصر من الإنجليز ومن المستورزين المصريين يقفون له ولحمد فريد بالمرصاد ، ويتعقبون كل كلمة يقولونها أو يكتبونها فيحققون معها بشأنها ، ويصدرون عليهما الأحكام بالسجن ، وتوالت الإنذارات لصحيفة اللواء بالتعطيل ، مما دفع الشيخ عبد العزيز إلى الهجرة ليستأنف الجهاد خارج مصر من أجل مصر .

ولهذا الاضطهاد الذي لاقاه الشيخ عبد العزيز أثناء توليه رئاسة التحرير لجريدة اللواء قصة بل قصص طويلة ، تبدأ بالحكمة الأولى التي قدم لها ولما يعض عليه في جريدة اللواء سوى شهرين اثنين .

حدث في مايو سنة ١٩٠٨ أن قامت ثورة في بلدة الكاملين بالسودان بزعامة الشيخ عبد القادر ، فجردت الحكومة قوة كبيرة لإخضاعها : ونكّلت هذه القوة بالثائرين ، وقتلت عدداً كبيراً منهم ، وقدمت الزعيم وكثيراً من أتباعه للمحاكمة ، وحكمت المحكمة على اثني عشر من الثائرين - بينهم الزعيم عبد القادر - بالإعدام ، وعلى ثمانية آخرين بالسجن المؤبد ، ومصادرة أملاكهم ، ثم استبدل حاكم السودان بالإعدام بالسجن المؤبد .

وقد منعت الحكومة المصرية نشر أخبار هذه الثورة وهذه المحاكمة ، ولكن الشيخ عبد العزيز جاويش كتب في اللواء (عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨) مقالا عنها بعنوان « دنشواى أخرى في السودان » ، ٧٠ مشنوقاً و ١٣ سجيناً » ، وأسرعت وزارة الحرية فأرسلت للصحف تصحيحاً للخبر ، وعقبت اللواء على هذا التصحيح

مبينة الشك في بلاغ وزارة الحربية وأن عدد المحكوم عليهم بالإعدام يزيد على اثني عشر شخصاً .

واعتبرت الحكومة هذا المقال إهانة لوزارة الحربية ، كما اعتبرت المقالة الأولى إذاعة لأخبار كاذبة يترتب عليها تكدير السلم العام ، وأقامت النيابة الدعوى العمومية على الشيخ جاويش لمحاكمته عن التهمتين ، وأحدثت القضية ضجة كبرى ، ونُظرت في يوليو سنة ١٩٠٨ أمام محكمة عابدين الجزئية ، وتولى الدفاع عن الشيخ جاويش ثلاثة من جهابذة المحامين أعضاء الحزب الوطني وهم : أحمد لطفى ، وإسماعيل شيمى ، ومحمود فهمى حسين ، وبعد سماع المرافعات قضت المحكمة ببراءة الشيخ جاويش من تهمة نشر الخبر الكاذب ، ومعاقبته بدفع عشرين جنياً عن تهمة إهانة وزارة الحربية ، واستأنف الحكم ، فقضت محكمة الاستئناف في ٣٠ أغسطس براءة الشيخ جاويش من التهمتين .

وكان لهذا الحكم صدق قوى ورنه فرح كبرى ، فقد اعتبره المصريون انتصاراً وفوزاً كبيراً للحركة الوطنية ، فقد كان الهدف من هذه المحاكمة إسكات هذا القلم الثائر ، ولكن القضاء العادل خذل الحكومة وأفسد عليها خطتها .

ولم تأس الحكومة ، بل ظلت تترقب الفرص للإيقاع بالرجل ، وكان الحزب



عبد العزيز جاويش

الوطني وقتذاك في عنقوان قوته ، وكان محمد فريد وصحبه لا يهدأون لحظة ، ولا يسكتون عن التنديد بالإنجليز وسياساتهم وبالأستعمار ومساوئه ، تتوالى اجتماعاتهم العامة ، وتتتابع خطبهم الحماسية ونشراهم الوطنية ، وجريدة اللواء وراء هذا كله لا تنى لحظة عن مهاجمة الإنجليز وأعوانهم .

وأتت الفرصة أخيراً ، فقد نشر الشيخ جاويش في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٩

مقالا عن ذكرى دنشواى : وكلمة دنشواى كانت ترعب الإنجليز دائماً وتقض مضاجعهم ، فقد شوهت هذه الحادثة سمعتهم فى العالم أجمع ، وهم بعد لم ينسوا كيف استغل الزعيم الراحل مصطفى كامل هذه الحادثة فى التنديد بهم فى كل مكان حتى اضطروا إلى سحب عميدهم فى مصر لورد كرومر ، وبالأمس حاكموا الشيخ جاويش عندما كتب مقالته « دنشواى أخرى فى السودان » واليوم يحاكم الشيخ لكتابته عن ذكرى دنشواى .

اعتبرت النيابة هذا المقال طعناً فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المختصة التى حاكت المتهمين فى حادثة دنشواى ، وأحمد فتحى زغلول أحد أعضائها . وتقدم للدفاع عنه أحمد لطفى وإسماعيل شيمى ومحمود بسيوفى ، وقضت المحكمة بتغريم الشيخ جاويش ٤٠ جنيهاً .

ولم ترض النيابة عن هذا الحكم فاستأنفته وكانت محكمة الاستئناف برئاسة بوغوص أغويان وكيل المحكمة وعضويه المستر كلايوت وإبراهيم يونس القاضيين ، وقضت هذه المحكمة بتعديل الحكم الابتدائى إلى الحبس ثلاثة أشهر . وأحدث هذا الحكم استياءً شديداً ، ووجم له المصريون ، فقد اعتبروه موجهاً لا للشيخ عبد العزيز بل للحركة الوطنية نفسها . ورزع المحامون نقضاً عن هذا الحكم ولكن النقض رفض ، ودخل الشيخ جاويش السجن وقضى فيه الأشهر الثلاثة ، وكانت محنة عنيفة اجتازها الشيخ فى قوة وصبر وبطولة .

ونخرج الشيخ من السجن ليستقبله الشعب استقبال الأبطال الفدائيين ، فقد انتظرتهم على باب السجن مظاهرة كبرى نظمها طلبة الأزهر والمدارس ، صحبته من السجن إلى منزله واكتتب المصريون لشراء وسام ، وعقدت حفلة كبرى فى فندق شبرد يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدّم للشيخ جاويش فيها هذا الوسام باسم الشعب تقديراً له ولجهاده وتضحيته .

وكان من تقاليد الحزب الوطنى فى ذلك الوقت أن يعقد مؤتمراً عاماً فى أول كل سنة يحضره ألوف المصريين ، ويخطب فيه الزعيم محمد فريد خطبة جامعة يناقش فيها سياسة الحكومة ومشروعاتها : ويكرر المطالبة بالجلء مع إيضاح عيوب الاستعمار الإنجليزى ومساوئه ، ثم يتعاقب الخطباء من كبار رجال الحزب

فيتحدثون عن نواحي الإصلاح المختلفة ، وفي مؤتمر يناير سنة ١٩١٠ كان الشيخ جاويش من بين الخطباء ، وكان حديثه عن بعض النواحي الإصلاحية في التعليم ، فتكلم عن مشروع البعثة الأزهرية ، وعن مشروع إنشاء روضة للأطفال .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش خلال هذا كله جهاد من نوع آخر ، فقد كان يعتقد أن الجهل الفاشي بين المصريين من أكبر أسباب تأخرهم ، لهذا أنشأ في فبراير سنة ١٩١٠ مجلة أسماها « الهداية » ، تعمل على إفهام المسلمين أسرار القرآن وحقائق الإسلام ، كما عمل على إنشاء المدارس الإعدادية الثانوية واليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين .

هذا الجهاد الدائم الدائب الذي لا يفتر ولا يني لحظة كان شوكته تخرُ الإنجليز في كل دقيقة ، وتؤلم الحكومة القائمة في كل لحظة ، لهذا كان الفريقان يتلمسان الأسباب دائماً للإيقاع بأبطال الحركة الوطنية واضطهادهم وتقديمهم للمحاكمة ، وأتت الفرصة هذه المرة في ديوان شعر صغير طبعه الشيخ على الغياقي في أغسطس ١٩١٠ بعنوان « وطنيتي » جمع فيه قصائده الوطنية ، وقد نشرت هذه القصائد من قبل متفرقة فلم ترَ فيها النياحة ما تؤاخذ عليه ، ولكنها عندما طبعت مجموعة وجدت فيها ما يوجب المحاكمة ، وذلك لأن محمد فريد والشيخ جاويش كتبوا مقدمتين لهذا الديوان .

وقدم الأبطال الثلاثة للمحاكمة بتهمة تحجيد الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة .

أما محمد فريد فقد كان غائباً في ذلك الوقت في أوروبا ، فأرجأت المحكمة محاكمته إلى أن يعود ، وأما الشيخ على الغياقي فقد فر متنبكراً إلى الإستانة ومنها إلى سويسرا : فحوكم غيابياً وحكم عليه بالحبس سنة مع الشغل .

وأما الشيخ جاويش فقد قدم للمحاكمة ، وحكم عليه للمرة الثانية بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ ، ونفذ الحكم فيه فوراً .

وكان لهذا الحكم رنة أسف أخرى لما يتضمنه من معاني الاضطهاد لكل مواطن يعمل لخدمة مصر ويسعى لحريتها ، وكان هذا الحكم نذيراً بالحكم على الزعيم محمد فريد فإنه لم يكذب يعود من أوروبا بعد جهاده العنيف في مدنها المختلفة حتى

قدم للمحاكمة وحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع النفاذ .
صمد الشيخ جاويش لهذه السلسلة من الاضطهادات ، فما وهن وما ضعف
وما لانت قناته ، وحارت الحكومة في أمره ، وأخيراً اضطرت إلى إبعاده إلى الآستانة
في سنة ١٩١٢ ، وهناك استأنف الشيخ جاويش نشاطه وجهاده ، فأصدر مجلة
« الهداية » ومجلة « الهلال العثماني » ، ومجلة « الحق يعلو » .

وفي هذا السنة أيضاً كان أهل طرابلس يقاومون الغزو الإيطالي مقاومة عنيفة ،
فتقدم الشيخ جاويش وتزعم مع بعض زملائه من رجال الحزب الوطني حركة لجمع
التبرعات وإرسال الذخائر وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة هذا الغزو الإيطالي .
وتأمرت الحكومة في مصر ضد محمد فريد وأوشكت أن تقدمه ثانية للمحاكمة ،
فأثر الزعيم المهجرة لاستئناف الجهاد في الخارج ، وتحايل حتى استطاع السفر إلى
الآستانة ، فرحب بمقدمه الشيخ جاويش ، وتعاونوا معاً في تحرير الجريدة التي
كان يصدرها الشيخ جاويش باسم « الهلال العثماني » .

لم ينعم محمد فريد وعبد العزيز جاويش بالهدوء والاطمئنان في الآستانة ، فقد
بدأت المفاوضات بين الحكومة التركية والحكومة المصرية لتسليم من ترى
حكومة مصر تسليمهم بمناسبة قضية المنشورات ، وأحسّ محمد فريد بقرب الخطر ،
فأسرع بالسفر إلى جنيف لحضور مؤتمر السلام ، وأوعز إلى الشيخ جاويش
بالرحيل ، ولكن الشيخ جاويش آثر البقاء بالآستانة لأنه استبعد أن تقدم الحكومة
التركية على تسليمه ، ولكن الأيام أثبتت بعد نظر فريد ، كما أثبتت أن الشيخ
جاويش كان أحسن الظن أكثر من اللازم بالحكومة التركية ، إذ لم يمض غير
أسبوعين على سفر محمد فريد حتى طلبت الحكومة المصرية القبض عليه وعلى
الشيخ عبد العزيز جاويش بدعوى اشتراكهما في تهمة المنشورات التي ضبطت
مع أحمد مختار ، وقبض فعلاً على الشيخ جاويش في أوائل سبتمبر سنة ١٩١٢
وأرسل إلى مصر ، فما قضية المنشورات هذه ؟

حدث في أغسطس سنة ١٩١٢ أن كان أحمد مختار الطالب المصري بالمدرسة
الحرية بالآستانة عائداً إلى مصر على ظهر إحدى البواخر ، وعند وصول الباخرة
إلى الإسكندرية وجد مع هذا الطالب مجموعة من المنشورات الثورية ، فقبض عليه

وبدئ في التحقيق معه ، وانهزت الحكومة الفرصة المواتية ، وافترضت وجود جمعية سرية ثورية ، وأن الشيخ جاويش هو الذي يديرها ويشرف عليها ، ويشترك في تحرير منشوراتها ، واستصدرت النيابة أمراً من الحكومة العثمانية باعتقاله واعتقال عدد من الشبان المصريين المقيمين في الآستانة ، ورغم أن القانون الدولي لا يسمح تسليم متهم سياسي إلى حكومة أخرى ، فقد أسرعت الحكومة التركية بتسليمهم ، وأحضر الشيخ جاويش وأودع سجن الخلدرة بالإسكندرية مدة إلى أن أصدر النائب العام - عبد الخالق ثروت - قراره في أكتوبر سنة ١٩١٢ بحفظ القضية بالنسبة له .

ورغم هذه الحلقات المتتابعة من الاضطهاد لم يهدأ عبد العزيز جاويش ، ووجه جهوده في أوائل سنة ١٩١٤ إلى نواحي الإصلاح الإسلامية العامة ، فقد كان من المؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية ، ولا عجب في هذا فهو تلميذ من تلامذة مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، بل إنه كان في جهاده أقرب إلى جمال الدين منه إلى محمد عبده ، فقد كان مثل جمال الدين صريحاً جريئاً عفيفاً في جهاده ، وكان مثله يرى أن للدين والوطن المقام الأول ، يغفر لمعارضه كل شيء إلا أن يعرض للدين أو الوطن أو يتهاون في حقهما .

ففي أوائل سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم سافر إلى بيت المقدس ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بها ، وتولى إدارتها ، ثم سافر بعد قليل إلى إنجلترا ، وهناك اتفق مع أحد الأغنياء من مسلمي الهند على إنشاء أسطول إسلامي .

وبينا هو ينتقل من الشرق إلى الغرب مجاهداً في سبيل هذه الإصلاحات الإسلامية العامة إذا بحادث طارئ يرغمه على الهجرة من إنجلترا ، وذلك أن الخديو عباس كان قد سافر إلى الآستانة في صيف سنة ١٩١٤ ، وهناك اعتدى عليه طالب مصري وأطلق عليه الرصاص يريد قتله ، وبدأت سلسلة جديدة من التحقيقات والقبض على رجال الحزب الوطني وشبابه ، وأحس جاويش أنه يكون دائماً موضع الشك بالحق وبالباطل في كل حادثة تحدث ، وخشى أن تعمل الحكومة الإنكليزية على تسليمه للحكومة المصرية ، فخرج من إنجلترا متكرراً

واتجه إلى باريس .

وقامت الحرب العظمى الأولى ، وأعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، ومنعت الحديو وكبار الزعماء المصريين من العودة إلى مصر .
وبدأت الحكومة التركية تعمل لاسترداد مصر ، وأعدت في سنة ١٩١٥ حملة من الجيش التركي لاستخلاص مصر من الاحتلال الإنجليزي ، واشترك مع هذه الحملة الشيخ عبد العزيز جاويز ونفر من رجال الحزب الوطني ، غير أن هذه الحملة لم توفق في مهمتها .

ولم يئأس عبد العزيز جاويز فقد كان يرى أن الجهاد ممكن في كل بلد وفي كل مكان ، ففضى السنوات التالية ، من سنة ١٩١٥ إلى ١٩١٨ متقلبا بين ألمانيا وتركيا والشام يعمل لهدف واحد هو استقلال مصر ، وأنشأ في هذه الفترة مجلات كثيرة في كل بلد يحل به ، ففي ألمانيا كان يصدر باللغة الألمانية مجلة اسمها : "Die Islamische Welt"

وفي إسطنبول كان يصدر باللغة العربية مجلة « العالم الإسلامي » ، وفي سويسرا كان يصدر بالفرنسية مجلة (l'Egypte) للدفاع عن استقلال مصر .
وكان لا يترك مؤتمراً عالمياً يعقد في بلد من البلاد إلا قصده مع كبار رجال الحزب الوطني ، وحاول معهم الدفاع عن قضية مصر وحريتها ، وقد نجح في استخلاص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالآستانة ومن مجلس الريختاغ بألمانيا ، وذلك في سنة ١٩١٧ كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق في استكهولم .

وكان الزعيم محمد فريد يتنقل في ذلك الوقت ما بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، يدعو لقضية مصر ، يتقابل مع الشيخ جاويز تارة ويفترق عنه تارة أخرى ، إلى أن كانت سنة ١٩١٨ وقد انتهت الحرب بهزيمة تركيا وألمانيا وانتصار الحلفاء ، وكان الشيخ جاويز يقيم في الآستانة وقتذاك ، فأدرك أن الحلفاء لا بد ملقون القبض عليه ، فترك هو وزملاؤه تركيا خفية إلى روسيا ثم إلى سويسرا إلى أن انتهوا إلى ألمانيا .

وفي سنة ١٩١٩ قامت الثورة المصرية الأولى ، ووصلت أجبارها إلى فريد

وصحبه في منقاهم البعيد ، فأثلجت صدورهم ، وأرسل فريد من المصححة التي كان يستشفى بها رسالة إلى المصريين بعنوان « صوت من وراء البحار » أعلن فيها سروره بهذه النهضة الوطنية القوية ، وشجعهم على مواصلة الجهاد والتضامن والاتحاد ، وكانت هذه الرسالة آخر ما كتب فريد قبل وفاته ، فإنه لم يلبث أن اشتد به المرض ، وكان يعاني هو وصحبه الشدائد من الفقر والضيق المالى ، وأخيراً عجز الطب ولبي فريد نداء ربه في ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، وشيعت جنازته في احتفال مهيب سار فيه المصريون وفي مقدمتهم الشيخ عبد العزيز جاويش وعدد كبير من الشرقيين والألمان ، وقبل تحرك الجنازة رثاه الشيخ جاويش بكلمة مؤثرة قوية .

وفي سنة ١٩٢٢ كانت الأحوال قد استقرت في تركيا ، وتولى الحكم فيها مصطفى كمال ، وهو صديق قديم للشيخ جاويش ، فأرسل يستدعيه وعينه رئيساً للجنة الشؤون التأليفية الإسلامية بأنقرة ، غير أن عبد العزيز جاويش لم يلبث أن اختلف مع صديقه مصطفى كمال ، فقد كان جاويش كما قلنا من المؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية ، وكانت نزعة مصطفى كمال تركية خالصة ، فبدأ يعمل لإلغاء الخلافة ، ولم يوافقته جاويش على هذه الفكرة ، ولهذا استقال من وظيفته .

وكان تصريح ٢٨ فبراير قد أعلن في مصر كما أعلن الدستور ، وبدأت الحكومة تعمل لبدء الحياة النيابية ، وكان الشيخ جاويش لا يزال يرنو إلى وطنه مصر بعد هذه الغيبة الطويلة ، يريد أن يعود إليه بعد هذه الرحلة المضنية ، وبعد هذا الجهاد العنيف ، غير أن الأمور كانت لا تزال في الواقع في أيدي الإنجليز ، ولم يكن من المعقول أن يسمحوا لعدوهم القديم بالعودة إلى مصر ، فهم يخشون بأسه ويخشون لسانه وقلمه .

لهذا لجأ الشيخ جاويش إلى طريقته القديمة في التخفى ، وأصبح المصريون في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وهم يقرأون في جميع الصحف مقالا بتوقيع عبد العزيز جاويش عنوانه « تجديد العهد » ، وتساءل الناس فعلموا أن البطل المناضل قد عاد إلى الوطن بطريقة ما ، وإن كانوا يجهلون أى طريقة هي ، هل عاد بطريق الجو أو بطريق البر أو بطريق البحر ؟ ومن الذى أعانه على العودة والدخول إلى مصر ؟ لا أحد يعلم .

وبعد عشرة أيام من عودته صرحت له الحكومة المصرية بالإقامة في مصر ، وكان رئيس الوزارة في ذلك الوقت هو يحيى إبراهيم .

وفي سنة ١٩٢٥ عينته وزارة المعارف مراقباً عاماً للتعليم الأولى ، وللشيخ جاويش جهود قديمة في سبيل العلم والتعليم ، فرحّب بهذه الوظيفة وبذل جهوداً موفقة ووضع كثيراً من النظم لتعميم هذا النوع من التعليم ومحو الأمية .

وفي خلال هذه المدة كان يشارك في معظم الحركات الإصلاحية التي نبتت في مصر ، فأسّس جمعية الموساة الإسلامية في القاهرة ، وانتخب وكيلاً لجمعية الشبان المسلمين منذ إنشائها ، ووكيلاً ل نقابة الموظفين الخارجين عن هيئة العمال ، وكان يتردد كثيراً على جمعيتي الهداية الإسلامية ومكارم الأخلاق الإسلامية ، يحاضر فيهما ويشارك في تحرير مجلتيهما .

وللشيخ جاويش من الآثار القلمية — غير مقالاته وخطبه وغير رسالة « الإسلام دين الفطرة » ، رسالة صغيرة أخرى تضم مجموعة من المحاضرات ألقاها في مدرسة دار العلوم بعنوان « أثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري » ، ورسالة ثالثة عنوانها « مرشد المعلمين في التربية » ورسالة رابعة عنوانها « غنية المؤيدين » .

وفي ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ كان الشيخ عبد العزيز جاويش قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره ، وكان الكتاب قد بلغ أجله ، فتوفى الرجل فجأة بعد هذه الحياة القصيرة الحافلة بالجهاد والتضحية والفداء والأجساد ، رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أدى لوطنه ودينه .

فهرس الصور والرسوم

صفحة

١٥	ضريح أبي الدرداء
٤٥	ضريح عبد الرحمن بن هرمز
٨٩	مسجد أبي بكر الطرطوشي
١٠٣	مسجد سند بن عنان من الخارج
١٥٧	مسجد سند بن عنان من الداخل
١٧٧	مسجد العطارين من الخارج
١٨٣	مسجد مكين الأشمير
١٩٥	مسجد أبي العباس المرسى ومسجد البوصيري
٢٠٣	مسجد العطارين من الداخل
٢٠٩	مسجد ياقوت العرش
٢١١	مسجد أبي العباس المرسى من الداخل
٢٢٧	مسجد القبارى
٢٢٩	مسجد القبارى : المدخل والمئذنة والقبة
٢٣٥	السيد محمد كرم
٢٤٣	عبد الله النديم
٢٦٣	عبد العزيز جاويش

فهرس الموضوعات

صفحة	
٥	الإهداء
٧	المقدمة
١٣	أبو الدرداء
٣٣	عبد الرحمن بن هرمز
٤٩	أبو بكر الطرطوشي
١٠١	سند بن عنان
١٠٥	أبو الطاهر بن عوف
١٢٩	الحافظ السلفي
١٦١	أبو الحسن الشاذلي
١٩١	أبو العباس المرسي
٢١٣	ابن عطاء الله السكندري
٢٢٣	القبّاري
٢٣١	السيد محمد كريم
٢٣٧	عبد الله النديم
٢٥٧	عبد العزيز جاويش